

طريق فلاندر

كلود سيغون



منتدى اقر الثقافي

www.iqra.afhamontada.com

م. س. س. س.

ترجمة
باسيل قوزي



دار المامون

لتحميل كتب متنوعة راجع: «مُنْتَدَى إِقْرَأِ الثَّقَافِي»
يُودَاهِيَةُ زَانَدَنِي جَوْرُهُمَا كَتَيْب: سَهْرَدَانِي: «مُنْتَدَى إِقْرَأِ الثَّقَافِي»
پراي دانلود کتابهای مختلف مراجعه: (منتدی اقرا الثقافی)

www.iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

تلكتب (کوردی , عربي , فارسي)

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.aahlamontada.com

طريق فلاندر



دار الجامون

طريق فلاندر

تأليف

كلود سيمون

ترجمة

باسيل قوزي

دار المأمون للترجمة والنشر

La route des Flandres

Claude Simon

طريق فلاندر

كلود سيمون

دار الامون للترجمة والنشر

وزارة الثقافة والاعلام

حقوق الطبع والنشر محفوظة

رقم الایحاج في المكتبة الوطنية ببغداد (٧٣٤) لسنة ١٩٨٧

توجه المراسلات الى:

دار الامون للترجمة والنشر

وزارة الثقافة والاعلام

بغداد - الجمهورية العراقية

ص.ب. ١٤ ٨٠١٨

تلکس، ٢١٢٩٨٤

طبع بمطبع الحار العربية - بغداد

متجه من الفرنسية

ملقحة المترجم

كلود سيمون اديب فرنسي ولد عام ١٩١٣ في تانانا ريف بمدغشقر . وقع اسيراً في ايدي القوات الالمانية ، ابان الحرب العالمية الثانية هرب من السجن بشجاعة وأنجز روايته الاولى (الغشاش) سنة ١٩٤٦ اعقبها عشر اخر . يمكن تصنيف رواياته في ثلاث فئات . الفئة الاولى انجز كتابتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وتندرج فيها روايتا «كوليفر» و «الريح» . ثم اعقبها الفئة الثانية التي تعالج الحرب الالهية الاسبانية ، وتندرج فيها روايات «تتويج الربيع» و «البلاط» و «الفلاحيات» التي تتخللها تجاربه الشخصية . واخيراً تأتي الفئة الثالثة التي هي عبارة عن يومياته العائلية ، هو الفلاح المنحدر من طبقة صغار النبلاء في منطقة روسيون بفرنسا من جهة والدته . تدخل في هذه الفئة رواية «بطاقة سفر» التي يلوح فيها الى فترة مراهقته ورواية «العشب» التي يذكر فيها صفقة بيع احد ممتلكات اجداده ، والرواية التي هي عنوان «قصة» حازت جائزة ميديسيس للادب عام ١٩٦٧ ورواية «الأجسام الموصلة للحرارة» ورواية «طريق فلاندر» التي هي عبارة عن مجموعة من التجارب الشخصية التي خاضها جندي في الحرب العالمية الثانية .

بعد ان تلقى دروسه في باريس واوكسفورد وكامبريدج اكثر من الترحال ، حتى استقر به المقام في جنوبي فرنسا . حدد في روايته «الريح» اهدافه وهي تحدي التجزئة في عصره واعادة اكتشاف هيمنة الاشياء والناس . وقد عالج انبيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية في عدة روايات منها رواية «طريق فلاندر» هذه التي تعد اهم رواياته التي ترجمت الى لغات عدة . حاز جائزة نوبل للادب لعام ١٩٨٥ وذلك لضخامة اعماله الادبية واسلوبه المتميز في ادب الرواية ، اذ يخرج عن تقاليد الرواية الكلاسيكية . يحاول الكاتب في هذا الاسلوب ان يكشف لنا حقيقة تتصف بأنها غير واقعية وغير متماسكة . ويظهر جلياً من كتاباته تسلط فكرتين على مخيلته هما انعدام الاستمرارية في الانفعالات التي قلما يرتبط فيها الواحد بالآخر من ناحية والاستمرارية من ناحية اخرى مما يستدعي جهداً لبناء الزمن الذي تتسم به الرواية الكلاسيكية . فالزمن عنده غامض كأنه شبح للزمن الحقيقي ، فيه يتطابق الحاضر والماضي . اما الجملة عنده فتتطلب استقصاء خاصاً من القارئ لطولها ، اذ يتجاوز عدد كلماتها احياناً الالف ، ولتقطعها بسبب كثاره من الاقواس والحمل الاعتراضية التي توقف القارئ على تفاصيل باللغة الدقة وعلى تحليلات نفسية مبتورة . فالجملة الوصفية عنده توحى بأن العلاقة بين الوعي والحقيقة معقدة تعقيدا بالغاً . ولكن مع كل هذا ، تبقى روايات كلود سيمون ممتعة القراءة .

في طريق فلاندر يتقدم كلود سيمون كفارس لايشكل مع جواده سوى كائن واحد وكان قوة طبيعية تدفعها واحدة الى قدرهما العظيم الذي ياباه العقل الا وهو الموت وسط هجوم يشارك فيه مصلاً سيفه البراق بوجه الدبابات المعادية . وكأني بأسلوبه ، وسط كبكة من الفرسان يندفع الى رومانسية يكاد ، التاريخ فيها يتدفق جارفاً في طريقه كل شيء : ذكريات وخيالات وأطياناً .

فعندما نقرأه نشعر بعنفه الروائي الذي هو اشتهر باعصار هادر يعصف بعواطفنا
وخيالاتنا عصفاً لا يضاهيه فيه احد .

سرعان ما ايقظ سيمون قراء متحمسين في كل اصقاع الارض. لان رواياته
طُبعت في اكثر من سبعة عشر بلداً . وذهب الامر ببعض هؤلاء القراء الى تقمص
شخصيته في الكتابة ومحاكاة اسلوبه . فقد نشر الكاتب بنوا بيترز ، قبل سبع
عشرة سنة رواية صغيرة بعنوان «باص» جاء الاسلوب فيها مطابقاً للاسلوب
السيموني

وكان بطل الرواية يدعى ، بالصدفة ، كلود سيمون وهو كاتب كبير ولكنه
محتل العقل مدمن على الكحول ويتصور نفسه انه على وشك ان يحوز جائزة
نوبل . وان كلود سيمون الحقيقي الذي لم يخطر على باله فكرة الجائزة في حينه ،
بكل تأكيد هو الذي كتب مقدمة الرواية المذكورة وهو يتسم .

(كنت اظن انني اتعلم ان اعيش ولكني كنت اتعلم ان اموت)

ليونارد دافنشي

كان يحمل رسالة بيده عندما رفع عينيه وحقق اليّ ، ثم حلق الى الرسالة والى ثانية . كنت استطيع ان ارى وراءه البقع الصهباء الصفرا التي تكسو جلود الخيول وهي في طريقها الى المورد ، كان الطين من العمق حتى اتناكنا نفوس فيه الى العرقوب ولكني تذكرت ان الانجساد كان قد انتشر فجأة في كل مكان اثناء الليل . دخل واك الغرفة حاملاً فنجان القهوة فقال : «لقد اكلت الكلاب الوحل» . لم يسبق لي ان اسمعت هذه العبارة قط . يبدو لي ان واك يرى في الكلاب تلك المخلوقات الجهنمية الخرافية بافواها المؤطرة باللحم الوردي وبأسنانها الباردة البيضاء الشبيهة بأسنان الذئاب التي تلوك الطين الاسود في دجى الليل ، وكأنني بها ذكرى انتفضت في خياله ، فأخذ يرى فيها الكلاب تلتهم وتردد كل شيء غير مستقبلية شيئاً . ولكن الطين اصبح الان رصاصياً أما نحن ، فقد كنا كما اعتدنا ، نهول متباطئين متأخرين عن نداء بوق الصباح ، محترزين من إلقاء عراقيب أقدامنا في آثار قوائم الجياد العميقة التي تصلبت فبات كالحجر . وبعد لحظة قال : كتبت الي امك . وقد فعلت ذلك على الرغم من تمنعي . «ما ان سمعت هذا حتى اخذت اشعر بالدم الاحمر يصعد الى وجهي» . غير انه قطع حديثه محاولاً ان يتكلف الابتسامة . لاريب في أنه كان يتعلم عليه لا أن يكون محبوباً حسب - فقد كان يحرص على ان يحبه الناس - بل يزيل المسافة التي تفصل بينه وبين الناس . جل ما فعله انه مسح شاربه الخفيف القاسي الذي يشبه لونه خليطاً من الملح والفلفل . كانت بشرة وجهه تشبه بشرة ذلك القبيل من الناس الذين يعيشون سحابة حياتهم في الهواء الطلق ، بشرة كامدة

كانها من رواسب احد اولئك الذين اقلتوا من يد شارب مارتل او ربما كان يدعي الانحدار مباشرة من العذراء شأنه في ذلك شأن ابناء عمه نبلاء منطقة تارن او من الرسول الكريم نفسه . وقال : «اعتقد اننا ابناء عم واحد وسليلا ارومة واحدة» . غير أن عبارة ابني عم كانت تعني في نظره بالأحرى مايشبه البعوض أو الحشرة أو الذباب . ثم احساست ان الدم عاد فصعد الى وجهي غضباً ، تماماً مثلما كان احساسي عندما لحت هذه الرسالة بين يديه وشخصتها .

لم ارد عليه ، ولا بد انه لاحظني والغيظ قد اخذ مني كل مأخذ . لم أكن ارنو اليه وانما الى الرسالة . فقد كنت اود ان انتزعها وامزقها تمزيقاً . ثم حرك يده التي كان يحمل بها الرسالة مطوية حركة خفيفة ، فرفرت زواياها في الهواء البارد كأجنحة الطير ، اما عيناه السوداوان فقد كانتا لاثنتان عن عداة او احتقار ، وانما كانتا تجسدان المودة والنفور في آن واحد : فلربما كان هو ايضاً ممتعضاً مثلي ومدركاً هذا فيما كنا نواصل حفلتنا الاجتماعية هذه ونحن غائصان هناك في الطين المتجمد نقدم التنازلات المتبادلة ونراعي حرمة التقاليد والاصول من أجل امرأة هي لسوء حظي امي ، ولكنه فهم اخيراً ودون شك لان شاربه الصغير تحرك ثانية عندما قال «لا تحقد عليها» . من الطبيعي جداً ان تكون الام ... نعم ما فعلت ، فمن ناحيتي انا مسرور جداً ان تتاح لي الفرصة فاذا احتجت يوماً الي اما انا فقلت له : «شكراً ياسيدي النقيب» . فقال لي : «اذا وقعت في اية مشكلة فلا تردد في ان تأتي لمواجهتي» فقلت : «نعم سيدي» . ثم عاد فحرك الرسالة وقد كانت درجة الحرارة وقتئذ سبعة تحت الصفر أو عشراً عند الفلاس ولكنه لم يكن يبدو انه يعرف ذلك . بعد ان ارتوت الخيول من المورد ، انطلقت خبياً ، اثنين اثنين والرجال يركضون بينها ، مطلقين التجاديف وراها ، وهم يلحقونها متسلين بالتشبث بشكائهما . كنا نسمع وقع حوافرها على الطين المتجمد فيها كان والك يردد قائلاً : «اذا وقعت في اية مشكلة فساكون في غاية السعادة

لان ...» ثم عاد فطوى الرسالة ووضعها في جيبه موجهاً الى ثانية ابتسامة متصنعة كاذبة ، وهو يجر شاربه الفضفي المفلفل ذات الشمال ، ثم ادار عقبيه وفيما بعد ، اخذ اهتمامي بالامر يقل اكثر من ذي قبل ، فقد يسرت الامر الى اقصى الحدود ، عندما حلت سيور الركاب ، وترجلت عن جواذي ، فاكأ زمامه ، عندما قطعت عنه الماء مرة او مرتين ، ثم همت بفك الشكيمة عنه دفعة واحدة غامساً كل شيء في الحوض بعد ان كف عن الشرب . واذا به يدخل الاصطبل من تلقاء نفسه ، فيما كنت أماشيه متأهباً للامساك بأحدى اذنيه . ولم يبق لي بعدئذ سوى ان امسح القطع المعدنية لصهونه بخرقة . وبين الفينة والفينة ، كنت ألعنها بورق الصقل ، عندما كان الصداً يلوثها . ولكن هذا لم يكن ليغير شيئاً مني لان سمعتي في هذه النقطة كانت موصومة منذ زمن طويل . وكانوا قد كفوا عن ازعاجي . واعتقد انه بقدر تعلق الامر به ، فانه لم يكن ليعبر ذلك اهتماماً ، كما ان نظاهره بأنه لايراني عندما كان يفتش الجحفل ، انما كان من باب الاحترام الذي يكنه لوالدي . وهو احترام لا يكلفه شيئاً ، اللهم الا اذا كان التلميع في نظره واحداً من تلك الامور التافهة التي لا بد منها ، او تلك الانعكاسات الآلية والتقاليد المتوارثة القديمة المحفوظة ، كما لو في ماء مملح تقاليد ازدادت رسوخاً فيما بعد ، على الرغم مما كان الناس يحكونه عنها (اي المرأة او قل الولد الذي تزوجه او بالاحرى الذي هو تزوجه) الا انها كانت قد اخذت على عاتقها ، خلال اربع سنوات من الزواج فقط ، ان تنسيه او على ، اية حال ، ان تنبذ بعضاً من هذه التقاليد المألوفة - سواء اعجبه ذلك ام لا - ولكن حتى لو سلمنا بأنه نبذ شيئاً منها (ربما لا راغباً ولكن راهباً وان شئت مدفوعاً بقوة الرغبة او ان شئت مرغماً بالرغبة) فهناك امور يستحيل على اقوى انواع الخذلان والنبذ أن تنسي الناس اياها ، حتى لو شاء الناس ذلك ، وتكون هذه الامور عموماً من اقوى ضروب المحال والتفاهة ، امور لا صدى لها ولا انطلاق مثل الانعكاس الغريزي الذي

حصل لاحدهم عندما استل سيفه ، اذ اخترقت الرصاصة انفه وهو خلف السياج : فقد استطعت ان اراه ذات لحظة ، رافعاً ذراعه ملوحاً بذلك السلاح الذي لاجلدى من ورائه ، بحركة ورائية كأنها حركة تمثال فارس يمتطي جواداً ، حركة ربما انتقلت اليه من اجيال اجداده المحاربين ، او كأنها حركة شيخ مظلم يقابل نوراً قوياً يزيل عنه الالوان ، كما لو كان هو وحصانه مسبوكين معاً في مادة واحدة ، أو كأنهما من الرصاص ، والشمس تنعكس لحظة على نصل سيف عار واذا بهذا الكائن المتكون من الانسان والحصان ينهار دفعة واحدة من احد جانبيه ، كفارس من رصاص يمتطي جواداً من رصاص يأخذ في الانصهار ، بدأ من اقدامه ينحني ببطء في اول الامر يتسارع في السقوط على منكبيه متلاشياً والسيف ما يزال في احدى قبضتيه ، خلف هيكلك هذه الشاحنة المحترقة المتهاوية هناك القدرة كحيوان ككلبة متفخخة تسحب بطنها على الارض ، واطاراتها الممزقة تمترق ببطء مطلقة رائحة المطاط المشتعل الكريهة ، رائحة الحرب الكثيفة ، في عصر نهار ربيعي رائع. تلك الرائحة الطافية او بالاحرى الراكدة اللزجة الشفافة لابل المريبة كماء آسن ربما سبحت فيه بيوت من الآجر الاحمر والرياض والاسيجة : وان هي اللحظة حتى كنت ترى انعكاس الشمس الباهر معلقاً أو الاصح مكثفاً كأنني به اقتنص او اجتذب خلال جزء من الثانية كل الضياء وكل المجد الى الحديد البرئ ... برئ ولكن هيبات ، فقد مضى زمن طويل على فقدانه براءته ولكني اتصور انه لم يكن هذا ما كان يطلبه ويتنظره منها يوم عقد العزم على الاقتران بها مدركاً دون شك حتى الادراك لحظتئذ ، ما كان ينتظره لانه سبق ان قبل وان استنفذ وأخذ على عاتقه ، ان صح التعبير ، هذا الغرام مع فارق لمن مكان المذبح ومركزه لم يكونا تلة جرداء ، ولكن طية اللحم الخفية تلك العذبة الطرية المشوشبة التي تبعث الدوار اجل لقد صلب وخاض آلام النزاع على المذبح وفه وعرينه ... ولكن بعد كل هذا ، ألم

تكن هي مومساً ، أو ألم تكن نساء نائحات يندبن ويلوين اذرعهن ، هذا اذا افترضنا جدلاً انه طلب منها أن تتوب يوما في الاقل توقع الناس منها ان تفعل ذلك او ان تصبح شيئاً اخر يختلف عما يعرفه عنها الناس من سمعة . لعلهم توقعوا اذن من هذا الزواج شيئاً اخر يختلف عما ينتج عنه منطقياً وربما توقعوا ايضاً وربما تصوروا في الاقل هذه النتيجة النهائية او الاخرى هذا الاستنتاج ، اعني به الانتحار الذي اتاحت لها الحرب فرصة ارتكابه ارتكاباً انيقاً ، واقصد بهذه الصفة ان الانتحار لم يكن ميلودراميا مثيراً للمشاعر أو قدراً كانتحار الخادومات اللاتي يرمين بأنفسهن تحت عجلات المترو أو كالصيارفة الذين يوسخون مكنتهم كله ويبقى المكتب مع ذلك مرتدياً زي حادثة مروعة هذا اذا استطعنا ان نعد مقتل انسان في الحرب حادثة مروعة ، مغتربين خفية وبشكل أو بآخر ، الفرصة المتاحة لنا لكي نقضي قضاءً مبرماً على مالم يكن واجباً ان يبدأ قبل أربع سنوات ..

لقد فهمت هذا . وفهمت ان كل ما كان ينشده هذا الفارس قبل وقت قصير كان ان يتزل من جواده ، وليس فقط عندما رأيته راسياً هناك على صهوة جواده الواقف ، وهو يعترض وسط الطريق ، حتى دون ان يكلف نفسه ، أو ان يتظاهر بتكليف نفسه عناء التزوح بحصانه الى تحت شجرة التفاح القريبة ، هذا الملازم القزم الاحمق الذي يظن نفسه مجبراً على محاكاته ، متخيلاً ، دون شك ، انه القمة في الاناقة والبراعة والظرافة ، هو الضابط الخيال ، وقد يخامره الشك بشأن الاسباب الحقيقية التي كانت تدفع الاخر الى ان يفعل هذا ، اعني ان الامر لم يكن يتعلق بالشرف ولا بالشجاعة ، وبدرجة اقل بالاناقة ، انما كان يتعلق بقضية شخصية حسب ، ولم تكن هذه القضية قائمة بينه وبينها ، ولكن بينه وبينه . كان بمستطاعني ان اقول له ذلك . وكان باستطاعة ايجليزيا ايضاً ان يقول له افضل مني . ولكن ما جدوى القول ؟ . يخيل اليّ لا بد انه كان مقتنعاً

بقيامه بعمل يشير الدهشة . ثم لماذا هديناه عن ضلاله ، لاسيما انه بهذه الطريقة كان يموت في الاقل مسروراً ، بل مغتبطاً ، مائتاً الى جانب ... أو مثل شخصية تشبه دي ريكسك . كان اذن من الافضل ان يؤمن او حتى ان يكون غيباً والا يتساءل عما يجري خلف هذا الوجه المتزعج قليلاً وقد عيل صبره من الانتظار مقدماً لنا ، او بالاحرى مقدماً لنا طبقاً لقانون الخدمة في الريف ، أو طبقاً للاحكام المنصوص عليها في حالة وقوع هجوم بطائرة حربية تخلق على مستوى منخفض وتقصص ماتحتها ، مقدماً لنا تنازل الانتظار حتى تنأى الطائرة ونخرج من ملجئنا . واذ التفت قليلاً الى سرجه وقد عيل صبره ، ولكنه استطاع احتواء هيجانه الداخلي ، ارانا وجهه ذلك الوجه الذي لا تخترقه عين ، وجهاً خالياً من التعابير ولم يكن ينتظر منا سوى ان نغطي جياندا ، بينما كانت الطائرات تتوارى في الافق القصي . ثم ما ان امتطينا صهوات جياندا حتى انطلق بحصانه بعزم خاطف ، ضاغطاً على جانبي بطن الحصان برجليه وكان الحصان ، على ما يبدو يندفع تلقائياً ولكن بخطى غير متسعة غير متباطئة غير متوانية بخطى طبيعية تماماً . واطن انه لم يكن يمر خيباً حتى لو منحوه ابريز العالم كله ، وانه لم يكن ليضرب بالمهاز مرة واحدة ولم يكن ليتخلى عن مكانه حتى لو وجهت اليه قذيفة مدفع ، وهذه عبارة لا بد من اثباتها هنا ، لان في الدنيا عبارات كهذه ، تنقض كالصقر . بخطى طبيعية هي لعمري فكرة كانت تشكل جزءاً مما فعله وقرره قبل اربع سنوات . كان يوشك ان ينهي او الاحرى يحاول ان ينهي ما كان فيه ، متقدماً بهدوء غير هياب (كما انه ، على حد ما كان يقوله ايجليزيا كان قد تظاهر دوماً بعدم اطلاعه على شيء ولم يكن يسمح بتدفق اية عاطفة ولو طفيفة ولا أن يبدد احساس بالحسد والغضب) على هذه الطريقة التي كانت تمثل التهلكة بعينها ، ولست اقصد هنا الحرب ، بل القتل او مكاناً يقتالونك فيه ، مكاناً لا وقت لك ان تقول أف . هؤلاء الاشخاص الذين اخذوا مواضعهم بهدوء كأنهم يطلقون

رصاصاً غريباً خلف سياج أو دغل ويمضون وقتاً طويلاً في التسديد نحوك . بل هي حرب حقيقية . وقد ساءلت نفسي ذات مرة اذا لم يكن يتمنى ان يلقي فيها انجليزياً حتفه واذا لم يكن يشبع في نفسه بقضائه عليه ، غريزة الثأر التي كثيراً ما كان يهفو اليها ، ولكنني لا اعتقد ذلك لما يتصف به من اعتدال واتزان . يجيل إلي ان كل شيء في تلك اللحظة اصبح بالنسبة اليه لا يثير اي اهتمام ان صح فعلاً انه لم يكره انجليزياً قط بما انه ابقاه في نهاية المطاف ، تحت امرته وانه الان يكثر له اكثراً مماثلاً ، او الأخرى اقل مني أو من هذا الملازم الثاني الغبي ، اذ لم يعد يشعر دون شك بالالتزام بأي واجب ليس تجاه ما كان يعيننا شخصياً ، ولكن تجاه ما كان يتعلق بدوره ووظيفته كضابط . ولربما كان يتصور ان ما كان باستطاعته ان يفعله بهذا الشأن لم تعد له في المرحلة التي كنا قد وصلناها اية اهمية . فقد نجا اذن وتحرر وانعتق ان صح القول من واجباته العسكرية منذ اللحظة التي تقلص فيها عدد افراد سريته الى اربعة وهؤلاء الاربعة هم نحن (على ان سريته نفسها هي كل ماتبقى من فوج كامل مع بضعة فرسان اخرين تشتتوا وضاعوا هنا وهناك في الطبيعة) . وهذا لم يكن ليحول بينه وبين الحفاظ على اعتدال قامته وصلابتها وهو جالس على سرج حصانه . اعتدال وصلابة يضاهيان حالة الفارس الذي يمر في موكب استعراضى لليوم الرابع عشر من تموز . وليست حالة الفارس الناجي مع فلول الجيش او الفارس المهزوم الذي خسر الحرب ، وسط هذا التفكير الشاسل ، كما لو ان العالم نفسه وبأسره وليس بحقيقته المادية حسب وانما بالتصور الذي باستطاعة العقل ان يحمله عنه (ولكن ربما حصل ذلك بسبب النعاس اذ ان النوم لم يزر عيوننا حقاً منذ عشرة أيام اللهم الا ونحن على ظهور جيادنا) . كان الفوج في حالة انكماش وتحلل وتبعثر وتمزق وتلاش . وقد صرخ احدهم مرة او مرتين ينهاء عن الاستمرار لا اذكر العدد تماماً ولا اتمكن من تشخيصهم : انجيل ان الذين صرخوا كانوا جرحى او

محتبئين داخل بيوت أو في الموضع أو من هؤلاء المدنيين الذين كانوا يصرون
 اصراراً يتعذر عليّ فهمه على السير بغير هدى حاملين حقيبة ممزقة وهم يدفعون
 امامهم عربات للأطفال محملة بأمتعة غامضة (او قل ليست بأمتعة فعلاً . فهي
 اشياء يغلب عليّ الاحتمال كونها غير ذات جدوى : ربما مجرد ألا يتسكعوا فارغي
 الايدي او لئلا يكون لهم الانطباع ، بل الوهم لان يحملوا وان يمتلكوا شيئاً ما ،
 مهما كان هذا الشيء ، شريطة ان ترتبط به - سواء كان وسادة لا حشوة فيها او
 مظلة او صورة ملونة للجد والجدّة - فكرة الثمن أو الكثرة الاعتبارية) كما لو ان
 المهم في الامور هو المشي دون الاكتراث بالانجاء : بيد اني لم أرهم حقاً . وجل
 ما كان باستطاعتي رؤيته وما كنت اتمكن من تمييزه وعده ضرباً من محاط
 الانظار ، كان ذلك الظهر العظمي الهزيل الصلب الشديد الاعتدال الجامم على
 سرج جواده ، وقيصه المنسوج من قماش السرج * يلمع قليلاً اكثر عند بروز
 لوحى الكتفين . كانت قد مضت فترة طويلة على زوال اهتمامي او قل قدرتي على
 الاهتمام بما قد يجري على قارعة الطريق ، اذن هي اصوات غير حقيقية ، اصوات
 نواحه وصراخات (ربما ما ترمي اليه هو التحوط والتحذير) كانت توافيني عبر
 الضوء الباهر والمعمّ لنهار الربيع هذا كما لو ان الضوء نفسه كان وسخاً ؟ كما لو ان
 الهواء غير المنظور كان يحمل ماءً ملوثاً كدراً ، او هي قذارة الغبار او التناثرة التي
 تفرزها الحرب) . اما هو ، (فقد كنت استطيع ان ارى رأسه يتحرك ، وتحت
 خوذته تظهر صفحة وجهه ضائعة مع تقاطيع جبهته اليابسة الصلبة وحاجبه وفوقه
 حزم محجرة ، ثم الخط الثابت القاسي الذي لا يطرأ عليه تغيير ، ذلك الخط النازل
 شاقولياً من وجنته حتى حنكه) فعندما نظر اليهم وتركزت عينه العديمة التعبير التي
 لاتعرف الفضول لحظة (ولكن على ما يبدو لم تكن تبصر شيئاً) في ذلك الشخص

• السرج : قماش مصوف يكون صلباً عموماً وسداه من الصوف .
 المترجم

الذي (او ربما لم تتركز فيه وانما في المكان او النقطة التي كان ينبعث منها الصراخ حسب) كان قد ناداه ، ولكن النظرة لم تكن نظرة شجب او قسوة أو تذمر ، بل لم تكن حتى تقطيب الحاجبين وانما جل ما كانت هو انعدام التعبير والاهتمام - او ان شئت قل اكثر، ربما نظرة تعجب : فقد كان كمن عيل صبره من الحرمان ، كما لو ان احداً مرّ به فجأة في قاعة ، ولم يقدموه له لكي يتعرف اليه ، او كمن قوطع في وسط جملة اثر ملاحظة خارجة عن الموضوع يديها له احدهم (كأن يشير اليه احدهم بشأن رماد سيكارة الذي يوشك ان يسقط او قهوته التي توشك ان تبرد) ولربما يحاول ويذل الجهد وييدي استعداداً وصبراً ومجاملة ، اذ يحاول ان يفهم اسباب الملاحظة او اهميتها او اذا كان بالمستطاع ربطها ، بطريقة او بأخرى ، بما كان يسوق الحديث اليه ، ثم يرفض الفهم ثم يذعن حتى من دون ان يهز كتفيه معتقداً انه لافر من ان يلتقي المرء دائماً وفي كل مكان وفي كل الظروف - في القاعات او في الحرب - اناساً اغبياء يفقدون التربية . واذا فرغ من هذا - اعني من خزنه في ذاكرته - ناسياً الشخص الذي قاطعه ، شاطباً اياه من شاشة مخيلته ومحجماً عن رؤيته حتى قبل ان يدير طرفه ، محجماً احجاماً كلياً بعدئذ عن النظر الى ذلك المكان الذي لم يكن فيه شيء مقوماً رأسه مستأنفاً مع هذا الملازم الثاني القزم حديثه الهادئ ، وهو حديث يقرب الى الحديث الذي يجري بين فارسين يسيران جنباً الى جنب (في ميدان ترويض الخيل او في الفروسية) وقد دار الحديث بلا شك عن الخيول ، عن الرفاق، عن الترقية ، عن الصيد او عن الطراد . اظن انني ارى الامور الان جيداً . ارى ظلالاً خضراء مع نساء يرتدين ثياباً ملونة مطبوعة ، واقفات او جالسات على مقاعد حديدية في الحديقة ، ورجالاً يرتدون سراويل قصيرة فاتحة اللون ، وجزماً ، يبادلونهم الحديث ، وهم منحنون اليهن قليلاً ، ويضربون جزمهم

ضربات خفيفة بسوط الاسل ، بينما كانت ألوان الجياد وثياب النساء وجلود
الجزم الشبيهة بلون جلود السباع تكون بقعاً صارخة (بلون الاكاجو والخنازير
والورد والزعفران) فوق أوراق الشجر الأخضر ، والنساء اللاتي هن من هذا
الصنف الخاص ولا أقصد هنا الصنف الذي تنتمي اليه وانما الذي تشكله بنات
العقداء او بنات اللقاب المرموقة : فقد كن باردات قليلاً ، تافهات هزيلات
بعض الشيء ، يحتفظن فترة طويلة (حتى زواجهن ، بل حتى الولد الثاني او
الثالث) بشكل الفتيات العازبات ، مع اذرعهن الطويلة الناعمة العارية ،
وقفا فيهن البيضاء القصيرة (الى ان يتغيرن فجأة - في منتصف عقدهن
الرابع - ليصبحن مسترجلات بعض الشيء أو شبهات بالخنيل (لا أقصد بالخنيل
هنا البغال بل الحصن) يتعاطين التدخين ، ويتحدثن عن الصيد وسباقات الخيول
تماماً كالرجال) وطين الاصوات المعلقة تحت أوراق البلوط الثقيلة ، اصوات
(نسوة اورجال) قادرة على ان تبقى لائحة ومستوية أو تافهة كلياً ، اصوات تجسد
الاحاديث الجافة وكأنها الاصوات التي يطلقها مركز حراسة ، تحكي عن السفاد
(الحيواني او البشري) وعن المال او عن تناول القربان الاول بالطلاقة المحبوبة التي
ذكرتها طلاقة يمتاز بها الخيالة . فيما كانت الاصوات تختلط بقرعة الجزم والكعوب
العالية على الحصى وتستقر في الهواء والغبار الذهبي اليراق ، الذي لا تحس به اليد
عند ملامستها اياه ، بقي معلقاً ، في العصر الاخضر الهادئ ، بفوحان الازهار
والروث والعطور . اما هو فقال : «.....»

فأجابه بلوم : «نعم !» (كنا آنذاً نياماً في الظلام متشابكين مترصين
حتى كان يتعذر علينا ان نحرك ذراعاً او ساقاً دون ان نصادف او بالاحرى ان
نستأذن ذراعاً اخرى او ساقاً اخرى ، يخنقنا الزحام ، والعرق يتصبب علينا
ورثاتنا تبحث عن الهواء كأسماك اخرجت الى اليابسة). واذ توقفت حافلة القطار
مرة اخرى في اثناء الليل ، لم نكن نسمع شيئاً اخر سوى الفحيح الذي تطلقه

التراث عند الشهيقي والزفير ، وهي تمتلئ مكرهة بهذه الرطوبة الكثيفة وهذه
 التنانة المنبعثة من الاجساد المتداخلة ، وكأننا قد استحوذ علينا الموت اكثر من
 الاموات انفسهم ، بما اننا كنا قادرين على ادراك ذلك كما لو ان العتمة
 والدياجير... وكنت استطيع ان اتحسسهم وان اتصورهم متزاحمين ، يزحف
 بعضهم فوق بعض ببطء ، تماماً كالزواحف ، تخنقهم رائحة القذارة والعرق ،
 واذ كنت ابحث كي اتذكر كم من الوقت مضى علينا ونحن داخل هذا القطار ،
 نهار واحد وليلة واحدة او ليلة واحدة ونهار واحد وليلة واحدة اخرى ، ولكنها
 محاولة لم يكن من طائل تحتها لان الوقت لا وجود له . وسألت احدهم عن الوقت
 قائلاً : « هل يمكنك ان تفلح في معرفة ما الوقت ؟ » فرد عليّ بقوله : « تباً لك »
 وما جدوى ذلك او ما التغيير الذي يحصل لو عرفت الوقت ؟ . عندما يحل النهار
 سوف تحرص على رؤية أوجهنا ، اوجه الجبناء المدحورين . سوف تحرص على
 رؤية وجهي ، وجه اليهودي القذر . فأجبت : « لا بأس ، لا بأس » . فردد بلوم
 مرة اخرى كلمة نعم . ثم اخذ يتذوق ، عن كذب ، رشقات الرشاشة . لربما كان
 عليه ، من باب الفطنة والذكاء ، ان ... - فقال : كلا : اسمعني ... الذكاء !
 آه ، ليت شعري ما الذكاء .. اعرفني سمعك : ذات مرة ، سقانا مشروباً على
 نفقته . واعني هنا انني اظن انه فعل ذلك ليس تعلقاً بنا ، بل بالخييل . اعني بأنه
 تصورهما عطشى ، ولذا اغتتم الفرصة نفسها لكي يسق ... فقال بلوم : « هل
 دفع ثمن المشروب ؟ » فقلت : « اجل . فقد كان ... اعرفني سمعك : كأني بذلك
 المشروب نموذج دعائي لعلامة بيرة انجليزية ؟ » (كان فناء الحانة القديمة مع
 جدرانها المبنية بالآجر الاحمر الداكن تربطه مفاصل فاتحة اللون لها نوافذ مزودة
 بزجاج صغير الحجم قاعدتها مصبوعة بالابيض والخادمة تحمل نيطلا من نحاس
 والسائس يحمل سقاء من الجلد الاصفر مع لسينات الحلقات البارزة ، مقدماً
 الماء للجياد بينما كانت جعاعة الخيالة واقفة وقفها الكلاسيكية : الحقوان مقوسان

واحدى الساقين محتذية جزمة متقدمة الى الامام واحدى الذراعين منطوية على الورك وباليه سوط وباليه الاخرى يرفع قدحاً من البيرة الذهبية باتجاه احدى نوافذ الطابق الاول حيث كنت تلمح خلال فتحة ضيقة من الستار وجهاً يبدو وكأنه طالع من عجينة الاصباغ .. أجل : ولكن مع فارق واحد هو انه لم يتبين من كل ذلك غير جدران الطوب ولكنها جدران وسخة ، وكان الفناء بالاحرى يشبه حظيرة الماشية : فناء داخلي لمقهى ، لمشرب مع صناديق شراب الليمون الفارغة المكومة ودجاجات تتسكع وملابس منشورة تنتظر جفافها على حبل ، وفي الواقع كان من بينها صدرية بيضاء . كانت المرأة ترتدي هذه الصدرية المصنوعة من النسيج المورداً كالتى تباع في الاسواق المكشوفة في العراء بينما كانت ساقاها عاريتين ، في قدميها خفان بسيطان فيما كانت تبدو وغير متعجبة مما كانت تفعله ومما كنا نفعله نحن هناك ، كما لو كان أمراً طبيعياً ان يفرغ كل واحد منا واقفاً هادئاً ، ولكن منهوك القوى ، قدح بيرته . كان هو والملازم الثاني منفردين عنا قليلاً حسب الاصول وحتى أنني لا اعرف هل شرب ، لا اظن اذ لا اذكر اني رأيته يفرغ قدح بيرته في فمه ، فيما يمسك كل منا زجاجته بيد ورسن حصانه باليد الاخرى بينما الخيول كانت تنهل الماء من المورد . وكان يجري كل هذا على جانب الطريق ، حيث كانت جثة رجل (او امرأة او ولد) هناك هامدة ، أو شاحنة أو سيارة محروقة بعد كل عشرة امتار تقريباً . وعندما دفع ثمن البيرة - لانه دفع نقلاً - استطعت ان ارى يده تنزل بهدوء الى جيبه ، تحت النسيج الرصاصي الاخضر اللين لسرواله الانيق والحلبتين اللتين تشكلها اصبعاه الوسطى والابهام الملوئتان ، بينما كان يقبض على محفظته متترعاً اياها انتراعاً ويعد القطع النقدية على راحة يد المرأة بهدوء تام يشبه هدوءه ، اذ يسدد ثمن شراب البرتقال او احد المشروبات الراقية في احد البارات الممتازة في دوفيل اوفيشي ... ثم خيل اليّ ثانية انني ارى الفرسان الذين يحترفون السباق يفترون العشب الاخضر المنقطع

النظير الذي تنتصب عليه اشجار البلوط العظيمة ، ويمرون تحت رنين الحرب ،
مستعدين للانطلاق ، ورؤوسهم شاحخة ، كأني بهم قردة على ظهور الجياد
الضامرة الرشيقة ، وستراتهم الزاهية تتلاحق تحت اشعة الشمس حسب الترتيب
الآتي : الاصفر ثم الحمايلات بالقبة الزرقاء - وارضية اشجار الكستناء الخضر
الداكنة - الاسود ، صليب سانت اندري فالازرق ، فالقبة البيضاء - وحائط
اشجار الكستناء الاخضر الداكن - ثوب ومحزز وردي وازرق وقبة
سمائية اللون - وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن -
الاصفر ، اكمام دائرته صفراء وحمراء مع قبة حمراء - وحائط اشجار
الكستناء الاخضر الداكن - الاحمر ، ملابس رصاصية وقبة حمراء - وحائط
اشجار الكستناء الاخضر الداكن - الازرق الفاتح ، اكمام سود وساعدة*
وقبة حمراوان - وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن - الاصفر ، دائرة
وساعدات خضر مع قبة حمراء - وحائط اشجار الكستناء الاخضر
الداكن - الازرق ، اكمام حمراء وساعدة وقبة خضراوان . وحائط اشجار
الكستناء الاخضر الداكن - البنفسجي ، صليب اللورين الوردي وقبة
بنفسجية - وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن - الاحمر ، جلبان ازرق
واكمام وقبة بنفسجية - وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن - البني
وطوق ازرق سمائي وقبة سوداء والسترات المتألقة المتزلقة ، فحائط الاوراق
الداكن فالسترات المتألقة فأقراص الشمس الراقصة والجياد ذات الاسماء
الراقصة - كاربستا ، ميلادي ، زبدة ، نهازو ، رومانس ، بريماروزا ،
ريسكولي ، كارباتشيو ، وايلد ريسك ، سمرقند ، شيشيو - والمهرات
الصغيرات تلقي سنابكها الناعمة ثم ترفعها ، كأنها تحشى ان تحترق ، راقصة وكأنها

• وهي رذن اعمالية تلبس لواقية الرذن الأصلية.

المترجم

تمسك نفسها معلقة فراقصة فوق الارض ، وبدون ان تلامس الارض ،
والجرس والبرونز يتلألأ ويتلألأ دون انقطاع ، بينما كانت السترات الزاهية تنزلق
انزلاقاً صامتاً ، في عصر ذلك اليوم الرائع . واذا مرايـجـليـزيا بدون ان يتطلع اليها ،
وعلى ظهره سترته الوردية التي كانت تبدو وكأنها تترك وراءه قلعاً معطراً براحة
جسمها ، هي وكأنني بها أخذت أحد ثيابها الداخلية الحريرية ورمت به على
ظهره ، فيما كان لا يزال بعد دافئاً متشبعاً براحة جسدتها ، وإلى الأعلى كانت
صفحة وجهه الاصفر الحزين الشبيهة بصفحة وجه أحد الكواسر ، فيما كانت
قدماه ملوئتين وركبته بارزتين ، مقعياً على فرس ذهبية مهيبة شائخة قوية
الوركين ، والمؤخرة والاطراف المطبوعة ليس على السير وانما على الكر والفر ،
بحيث ان ردفيها يتحركان الواحد بعد الآخر تحركاً ملحوظاً مرتبكاً ارتباك
المتكبرين ، وذيلها الاشقر الطويل يتأبل ممتصاً بريق الشمس ، والسترات
الاخيرة لم يعد يظهر منها سوى ظهرها (احداها داكنة الزرقة وعليها صليب سانت
اندري الاحمر والآخرى كستنائية مع حبيبات زرقاء) اخذت تتوارى خلف
الموازين والمبنى المسقف بالقش مع عارضاته النورمندية الكاذبة وهي (هي التي لم
تلتفت اليه لحظة ولا تظاهرت بأنها تراه) كانت جالسة على احد تلك المقاعد
الحديدية في ظل ظليل ، وربما كان بأحدى يديها واحدة من تلك الاوراق
الصفراء او الوردية كتبت عليها اخر الحظوظ ، (ولكنه لم يكن ينظر اليها هو
ايضاً) فقد كان يتحدث طائشاً (او ينصت طائشاً أو قد لا ينصت) مع احد
اولئك الاشخاص ، احد اولئك العقلاء او الأمرين المتقاعدين الذين لم نعد
نراهم الا في مثل هذه الامكنة ، وهم يرتدون سروالاً مخططاً ، وعلى رؤوسهم
قبعات رصاصية (وربما يكونون على هذه الشاكلة مصطفىين في مكان ما ،
لابسين هذا الزي فيما تبقى من ايام الاسبوع ، ولكنهم يغيرون بزتهم يوم الاحد
فقط ، بعد ان يزيلوا عنها الغبار ويدعكوها بسرعة ثم يضعونها هناك بالضبط

حيث يضعون اوعية الزهور على الشرفات وعلى درج المنابر ثم يعودون فيضعونها في صناديقها). . واخيراً نهضت كورين كسلة غير عجلة فيما كان ثوبها الاحمر الشفاف القليل الحشمة يتأرجح مهتلاً فوق ساقها - نحو المنابر...

ولكن لم يكن ثمة منابر ولم يكن ثمة جمهور ظريف لينظر اليها : كنت استطيع ان اراهم دوماً امامنا يتحركون كأطياف في الظلام (وكأنهم اشكال بهيئة دون كيخوت ، وقد جردهم النور اللاذع من لحمهم وأكل ما يحيط بهم من بشرة) ثابتين بوجه الشمس الباهر ، وظلالهم السوداء تنزلق ، تارة الى جانبهم ، كصديق امين يلازمهم ، وطوراً تقصر وتنكش متراسة او بالاحرى تستطيل كالتلسكوب او تقصر فتشوه ثم تسترسل مترهلة مسترخية مكررة ، بأختصار وتطابق ، حركات قوائمها العمودية التي تبدو متحدة بها بأواصر غير مرئية : اربع نقاط - والسنايك الاربعة - كانت تغرق ثم تتقارب على التوالي (تماماً كقطرة الماء التي تنفصل او بالاحرى تنشق عن سقف بيت فيما يبقى جزء منها عالقاً بحافة الميزاب) وتتلخص ظاهرة سقوط القطرة على النحو التالي : تنسحب القطرة كعموطة تحت ثقلها الذاتي ثم تشوه فتختق فيأخذ الجزء السفلي - الذي هو الاكبر - بالانفصال ساقطاً بينما يبدو الجزء العلوي منها وكأنه يصعد الى الاعلى منسحباً كأن شيئاً يجتذبه رأساً بعد الانفصال ، ثم تعود فتتفخ على الفور بعملية ثانية حتى انه يجيل اليك ان القطرة نفسها تتدلى بعد لحظة ، في ذلك المساء ، ثم تنتفخ ثانية ودائماً في المكان نفسه ، وباستمرار مثل كرة من الكرسنال تتحرك في نهاية خيط مطاطي ذات اليمين وذات الشمال (كما ان العجينة وظل العجينة كانا منفصلان ثم يلتحان فيعودان الواحد الى الاخر بحركة لا نهاية لها ، بحيث ان الظل ينسحب الى ذاته كذراع الاخطبوط بينما يعلو الحافر - ونظراً لانحدار الاشعة المائل فإن السرعة التي تعود ، ان صح القول ، لتصيب الهدف كانت تتعاضد ، بحيث انها اذ كانت تبتدي ببطء ظهرت وكأنها في النهاية تتسارع كمضاء السهم

كَانَ شَيْئاً يَمْتَصُّهَا أَوْ يَحْتَذِبُهَا) كَأَنَّهَا عَمَلِيَّةٌ تَنَافُذٌ ، فَالْحَرَكَةُ الْمَزْجُوجَةُ مَضْرُوبَةٌ فِي
 أَرْبَعَةٍ وَالسَّنَابِكُ الْأَرْبَعَةُ وَالظَّلَالُ الْمُسْتَطِيلَةُ الْأَرْبَعَةُ كَانَتْ تَنْتَقِلُ بِحَرَكَةٍ ثَابِتَةٍ ذَاتِ
 الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ وَتَطَأُ الْأَرْضَ وَطَرْبِيّاً ، بَيْنَمَا كَانَتْ تَتَوَاقَبُ تَحْتَ الظَّلَالِ
 عَلَى الْمَعْرَاتِ الْجَانِبِيَّةِ الْمَعْفَرَةِ ، سَوَاءٌ كَانَتْ مُبْلَطَةً أَمْ مَكْسُوءَةً بِالْعُشْبِ ، كِبْقَعَةٍ
 حَبْرٍ مُتَعَدِّدَةِ الْأَمْتَدَادَاتِ تَنْفَرُطُ تَارَةً وَتَنْعَقِدُ طَوْرًا ، مَزْتَلِقَةً بِدُونِ أَنْ تَتْرَكَ أَثَرًا عَلَى
 الْخَرَابِ ، عَلَى الْأَمْوَاتِ ، عَلَى الْمَوْتِ ، عَلَى الدَّنَسِ ، عَلَى أَكْدَاسِ الْعَرَبَاتِ
 الْمَتَكْسِرَةِ الَّتِي تَخْلِفُهَا الْحَرْبُ . وَلَا بَدَّ لِي هُنَاكَ قَدْ شَاهَدْتُهُ لَأَوَّلِ مَرَّةٍ ، قَبْلَ
 وَصُولِنَا الْمَكَانَ الَّذِي تَوَقَّفْنَا فِيهِ لِكَيْ نَشْرَبَ أَوْ يَبْعَدَ وَصُولُنَا إِلَيْهِ ، حَيْثُ اكْتَشَفْتُهُ
 وَحَدَقْتُ إِلَيْهِ وَأَنَا شَبْهُ نَعْسَانَ وَغَائِصٍ فِي الطِّينِ الْبَنِيِّ ، وَرَبَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ
 نَحِيدَ عَنِ الطَّرِيقِ لِكَيْ نَتَجَنَّبَهُ ، فَقَدْ كُنَّا بِالْأَحْرَى نَتَصَوَّرُهُ أَعْنِي (مِثْلُ كُلِّ مَا كَانَ
 مَرْمِيًّا عَلَى حَافَتِي الطَّرِيقِ كَالشَّاحَنَاتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالْحَقَائِبِ وَالْجُنُثِ) شَيْئًا غَرِيبًا
 لَا وَاقِعِيًّا . هَجِينًا بِمَعْنَى أَنْ مَا كَانَ حَصَانًا (أَعْنِي مَا كُنَّا نَعْرِفُ أَوْ بِأَمَّاكُنَا أَنْ نَعْرِفُ
 وَأَنْ نَشْخَصَ أَنَّهُ حَصَانٌ) لَمْ يَبْعَدْ آنَذَاكَ سِوَى رِكَامٍ غَامِضٍ مِنَ الْأَشْلَاءِ وَالْقُرُونِ
 وَالْجُلُودِ وَالشَّعْرِ اللَّاصِقِ ، رِكَامٌ كَانَتْ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهِ مَغْطَاةً بِالْوَحْلِ - وَإِذَا كَانَ
 جَوْجٌ يَتَسَاءَلُ ، بِدُونِ أَنْ يَتَسَاءَلَ بِالضَّبِطِ ، أَعْنِي إِذَا كَانَ يُلَاحِظُ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ
 الْعَجَبِ الْهَادِي ، أَوْ الْآخَرِ الْمَتَلَاثِي وَالْبَالِي بِلِ حَتَّى الْمَشْوَةِ بِكَلِمَتِهِ تَقْرِيبًا مِنْ
 جَرَاءِ الْأَيَّامِ الْعَشْرَةِ الَّتِي زَالَ عَجْبُهُ خِلَالَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَتَحَلَّى إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ عَنْ
 الْمَوْقِفِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْبَحْثِ عَنْ سَبَبٍ أَوْ عَنْ تَفْسِيرٍ مُنطِقِيٍّ لِمَا شَاهَدَهُ أَوْ
 لِمَا حَصَلَ لَهُ : أَذِنَ لَمْ يَكُنْ يَتَسَاءَلُ عَنِ الْكِيفِ وَأَمَّا كَانَ يُلَاحِظُ فَقَطْ أَنَّهُ عَلَى
 رَغْمِ كَوْنِهِ لَمْ يَعْجَبْ أَحَدًا مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ - بِالْأَقْلَى عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ - فَالْحَصَانُ
 أَوْ بِالْآخَرِ مَا كَانَ يَوْمًا حَصَانًا كَانَ مَغْطَى بِكَامِلِهِ - كَمَا لَوْ كَانَ مَغْمُوسًا فِي فَنَاجَانٍ
 قَهْوَةٍ عُلْبَةٍ ثُمَّ سَحَبَ مِنْ ذَلِكَ الْفَنَاجَانِ - بِوَحْلِ سَائِلٍ أَغْبَرِ رِصَاصِي سَبَقَ أَنْ
 اِمْتَصَّتِ الْأَرْضُ نَصْفَهُ ، كَأَنِّي بِهَا كَانَتْ قَدْ شَرَعَتْ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مَا كَانَ قَدْ

خرج منها ، على ما لم يعيش الا باذن منها وبواسطتها (اعني العشب والشوفان اللذين اقتات منها الحصان) ، على ما كان عتيداً ان يعود اليها فيذوب فيها ، (على شاكيلة الزواحف التي تبدأ في طلاء فرائسها باللعباب او بالحامض المعدي قبل ان تلتهمها) بذلك الوحل السائل الذي تفرزه هي والذي كان يبدو كختم لعلامة فارقة تؤيد العائدية ، قبل ان تبتله ابتلاعاً وثيداً ونهايياً في احشائها ، مع انطلاق صوت ربما هو صوت الامتصاص : على انه على الرغم من انه كان يبدو مائلاً هناك قبل دهر ، كواحد من تلك الحيوانات او النباتات المتحجرة المعادة الى الحالة المعدنية وقائماتها الاماميتان ملويتان كجسم الجنين او الراكع او المصلي كمثل الطرفين الامامين لسرعوفة متوترة الرقبة مقلوبة الرأس يتيح لك فكها المفتوحان فرصة مشاهدة البقعة النفسجية لداخل فها لم يمر وقت طويل على مقتله - لان الدم كان لايزال طرياً ، فقد كانت بقعة منه كبيرة حمراء اللون فاتحة محبة براقه كطلاء التلميع تمتد على او بالاحرى خارجاً عن القشرة الطينية والشعر اللاصق وكأنه لا يتدفق من حيوان ، من مجرد حيوان صريرع وانما من جرح يصنعه المنافقون من بني البشر ، جرح يتعذر التكفير عنه (بالطريقة التي يتدفق فيها الماء او الخمرة في الاساطير من الصخرة او من جبل تضربه بعضا) على صفحة الارض الطينية : نظر اليه جورج بينما كان يدرب مطيته على القيام بنصف دائرة واسع ينوي تجنبه . وكان الحصان ينصاع لأوامره بدون ان يتنحي ولا ان يستحث الخطى ولا ان يضطر راكبه الى الامساك به بقوة لغرض السيطرة عليه ، كان جورج يفكر بهيجان الحصان ، بذلك النوع من الذعر الذي كان يستحوذ على الحصن عندما كان يحدث لها وهي تنطلق الى التدريب ان تمشي جنباً الى جنب مع حائط المسلخ في نهاية ميدان المناورت ، ثم يعقب ذلك الصهيل وصرير سلسلة اللجام وتجاذيف الرجال المسكين بالارسان : «وئمة لم تكن سوى الرائحة . لكن الان لم تعد رؤية حتى واحد من اقراهم ميتاً يؤثر فيهم .

ولربما بلغ الامر بهم الى ان يمشوا فوق جثته لمجرد ان ذلك المشي يوفر لهم ثلاث خطوات» ، واذ كان يسترسل في تفكيره قائلاً في سره : «حتى انا ايضا بالفعل . . .» رآه يدور فوقه ، كما لو كان موضوعاً على صفيحة دوارة (ففي المقدمة كان الرأس مقلوباً لا يظهر من الوجه سوى جانبه السفلي ثابتاً ، والرقبة متصلة به ، ثم ان القوائم كانت ملوية الواحدة فوق الاخرى تحجبان الرأس . بعد ذلك كان يظهر المنكب في المقدمة ثم الجرح - فالطرفان الخلفيان يتمددان ملتصقين الواحد بالآخر ، كأي بها مشدودان ، ثم كان الرأس يعود فيظهر هناك في الخلف مرسوماً في منظور مشوه ، بينما كانت خطوطه المحيطة تتغير تغيراً مستمراً ، أعني بذلك شكلاً من اشكال التدمير واعادة البناء المتزامنين للخطوط وللأحجام (اذ كانت البروزات تتلاشى تدريجياً ، كانت تظهر بروزات اخرى غيرها واضحة المعالم ثم تتلاشى وتوارى هي ايضا بدورها) بقدر ما كانت زاوية النظر تنتقل ، في الوقت الذي كان شيء هناك يشبه مجموعة نجوم تبدو وكأنها تتحرك حول المكان - على انه لم يشهد لأول وهلة سوى بقع غامضة - وكانت هذه المجموعة تتكون من اشياء متباينة جداً (وحسب زاوية النظر ايضا ، فأن المسافات كانت تتناقص وتتوسع في ما بينها) مبعثرة ومشتتة حول الحصان (ربما كانت عبارة عن حمولة العربات التي جرها ولكن لم ير أحد عربة هناك : ربما كان الناس قد تراصفوا امامها واستمروا في سحبها) . وكان جورج يسأل نفسه كيف كانت الحرب تنشر (ثم رأى الحقيقة الممزقة تخرج منها المصران والامعاء المصنوعة من قماش) هذه الكمية التي لا يمكن تصورها من الملابس الداخلية ، يتغلب عليها اللونان الابيض والاسود (غير انه كان ثوب داخلي وردي مقدوفاً على سياج الزعرور او متعلقاً به كما لو ان أحداً وضعه هناك لكي يحف) كما لو ان ما كانت الناس تحسبه اثنى شيء كان خرقاً ومزقاً باليه واغطية أسرة محترقة وملوية مشتتة ومسحوبة كأنها لافتات او اسماء متساقطة على وجه الارض الاخضر . . .

ثم كف عن مساءلة نفسه عن أي شيء . حتى انه توقف في الوقت نفسه عن الابصار على الرغم من محاولته فتح عينيه بدون انقطاع ، والجلوس على سرجه افضل جلسة بينما كان الطين الداكن الذي كان يجلي اليه انه يتحرك فيه ، يزداد كثافة . ثم اطبق الظلام تماماً . وكل ما بات يتحسسه انثذ كان الضجة ووقع السنايك الرتيب المتزايد على الطريق ، المرتد والمتكرر (اذ اصبح عدد السنايك مئات بل الوفاء) بحيث انها (كتساقط قطرات المطر) راحت تتلاشى وتضمحل مولدة باستمراريتها وانتظامها صمتا من الدرجة الثانية ونسقا من المهابة والجلالة : حتى ان تدرج الوقت ، بات شيئاً لا يراه احد ، شيئاً ليس من قبيل المادة ، شيئاً لا بداية له ولا نهاية ولا نقطة دلالة ، شيئاً كان يشعر انه حي في احشائه ، بينما كان هو جامدا متصلبا على حصانه هو ايضاً لا يراه احد في وسط الظلام بين اشباح الخيالة التي تنسل بهيئاتها العالية اللامرية ، وتأرجح او بالاحرى تترنح قليلاً مع تقدم الجياد ، بحيث ان السرية او الفوج بأكمله كان يبدو وكأنه يتقدم بدون ان يتقدم فعلاً ، كأولئك الاشخاص العديمي الحركة في المسرح ، تحاكي سيقانهم على الخشبة حركة السير ، بينما تتحرك وراءهم قطعة قماش في صدر المسرح مرتجفة ، وقد رسمت عليها صور البيوت والاشجار والغيوم ، مع فارق ان قطعة القماش هنا كانت الليل والديجور . وفجأة اخذ المطر يسقط هو ايضاً رتيباً مستمراً كالخارج لم يكن شديدا ولكنه كالليل نفسه كان يطوق في احشائه الرجال والمطايا ، مضيفا ومازجا صريره الضعيف الى المهمة المتأنية الخطيرة لآلاف الجياد التي تجتاز الطرق هذه المهمة الشبيهة بالصوت الذي تحدثه الاف الحشرات وهي تقضم وتقرض العالم ، (والحقيقة ان الجياد ، الجياد العسكرية القديمة ، الافراس الشمطاء البليدة التي أكل عليها الدهر وشرب ، الماشية تحت مطر الليل على امتداد الطرقات وهي تهز رؤوسها الثقيلة المدرعة المستعرضة ، أليس لها شيء من تلك الصلابة التي تنفرد بها القشريات ، او تلك

الهيئة المضحكة الغامضة التي ينفرد بها الجراد ، بأقدامها الصلبة وعظامها الناتئة ومناكبها الحلقية الشكل التي تذكرنا بصورة أحد الحيوانات التي تظهر في الشعارات المصنوعة ليس من اللحم والعصل وانما هي شبيهة - الحيوان والسلاح يتقابلان - بأحدى العربات القديمة المتصدئة الصفائح والاجزاء ، وهي تطلق فيما تكون مرقعة بواسطة بضعة اسلاك حديدية تهددك دائماً بالتفكك ؟) مهمة انتهى بها الامر في تصور جورج ، الى الضياع في فكرة الحرب نفسها ، وقع الاقدام الرتيب الذي كان يملأ الليل شبيهاً بقطعة العظام ، والهواء الاسود الشديد يضرب الوجوه ، كأنه معدن بحيث انه خيل اليه (متذكراً قصص الرحلات الاستكشافية الى القطب ، حيث يقال ان الجلد يبقى ملتصقا بالحديد المتجمد) انه يحس بالظلام البارد يلتحم بجسمه ويتصلب ، كما لو ان الهواء والزمن نفسه لم يكونا سوى كتلة وحيدة من الصلب البارد (كتلك العوالم المائتة المنطفئة منذ مليارات السنين التي يغطيها الجليد) كانوا قد اختفوا في عمقها وقد حكم عليهم بالسكون الى الابد هم وجيادهم البجيرة المتجهمة ، ومهاميزهم وسيوفهم واسلحتهم الحديدية : كانوا واقفين لم يمسه اذى كما يراهم النهار عند طلوعه عبر الطبقات السميكة الشفافة الزرقاء ، الشبيهة بجيش يسير ، وفيما هو يسير يفاجأ بزلزال كبير ، كما لو ان نهراً جليدياً لا يكاد المرء يحس بتقدمه يسترد ذلك الجيش ويقذف به الى ما قبل مائة الف او مائتي الف عام ، وقد اختلط الحابل بالنابل ، مع كل الجنود الالمان المرتقة القدامى الذين كانوا يهملون فرسانا في خدمة فرنسا او مدرعي العصور الخوالي ، وهم يتدحرجون متكسرين محدثين صوتاً خفيفاً كصوت تكسر الزجاج..

ورأودته فجأة فكرة طرحها على نفسه قائلاً : «اللهم الا اذا اخذ يدب في كل هذا ، ومن الان ، الفساد والتآنة مثل حيوان المموث..» ثم أستيقظ (ربما الان الحصان غير مشيته بمعنى انه رغم استمراره في المشي فقد تخلع

قاذفا يحسم الفارس نحو قربوس السرج وكان هذا دليلاً على ان الطريق اخذت بالأنحدار : ولكن الظلام كان لايزال مطبقاً وعلى الرغم من انه كان يفتح عينيه الى اقصى مدى ، فإنه لم يكن يوفق في رؤية شيء . وفكر (فيما اصبح صوت وقع السنايك يختلف الان كما يختلف الشعور بالصمت ايضاً وبالظلام ، ولا اعني هنا انه ابرد واكثر رطوبة - وذلك لأن المطر نفسه كان لايزال يسقط - وأنما ، ان صح القول ، اصبح وهو يخيم عليهم ، بليلاً متحركاً) في انهم لابد ان يعبروا جسراً : ثم رددت الأرض تحت وقع السنايك ثانية صوتاً قوياً ، فأخذ الطريق بالصعود .

وهناك عندما كان السروال يحتك بالسرج ، بين الركبة وخرج الشوفان ؛ كانت شبكة الماء الهادىء الذي كان يتسرب ، قد بللت غطاء السرير تماماً . وتمكن من الأحساس بملامسة النسيج المبلل البارد لجسمه . وربما كانت الطريق تصعد متعرجة ، لان الحشخشة الرتيبة باتت آنذاك تنبعث من كل مكان : ليس من المقدمة والمؤخرة فحسب ولكن ايضاً من اليمن ومن فوق ومن اليسار ومن تحت . ففتح ملء عينيه في الظلام ، وقد كانتا عديمتي الأحساس تقريباً (كان الركاب مكشوفاً وقتئذ ومائلاً الى القربوس والساقان قد عبرتا فوق الخرج ، تخفيفاً عن الركبتين ، وقد استسلمتا للأهتزاز كعلبة) . كان يتصور انه يسمع كل الجياد ، كل البشر ، كل عربات القطار تمشي عمياء بلا هدى في تلك الليلة نفسها ، وبذلك الجلد نفسه ، بدون ان تعرف الى اين والى ماذا كانت تتوجه ، اذ كان العالم الأزلي البالي بأسره يرتعد ويصطخب ويدوي في الدياجير ، مثل كرة برونزية فارغة تبعث صوتاً كارثياً ، كقرقرة المعادن المتصادمة ، بينما كان هو يفكر في ابيه الجالس في كشك زاهي الألوان ، كائن عند نهاية صف اشجار البلوط ، حيث كان يقضي اوقاته بعد الظهر في العمل ، وهو يسطر بخطه الرفيع المليء بالتشطيب ، على الأوراق العتيقة التي يحملها حيناً يتنقل ، ويحفظها في قبص رث

مقرن الزوايا، وكأنها جزء لا يتجزأ. من كيانه، أو كأنها جسم اضافي اخترعه، ربما لكي يشفي علل الآخرين (سواء كانت العلة في العضلات أو العظام المنهكة القوى تحت ثقل الشحم واللحم المتهدلين تحت وقر مادة باتت غير صالحة لان تسد حاجتها الخاصة بنفسها، بحيث انها كانت تبدو وكأنها اخترعت أو افرزت مادة ثانوية معينة وبديلة كحاسة سادسة اصطناعية أو كعضو اصطناعي عالي الاقتدار يعمل بالحبر وبعجينة الخشب): ولكن صحف الصباح التي لاتزال معروضة متشابكة في ذلك المساء على منضدة صفصاف، فوق القميص والأوراق - الثمينة التي جلبها كمادته كل يوم والتي كانت لاتزال في المكان الذي وضعها فيه عند وصوله ، في مستهل بعد الظهر ، الصفحت المشبكة المدعوكه من تعدد مرات قراءتها ، كان لايزال نور الشفق الصيفي يصلها في شبه الظل ، ويمر خلاله لثات الجارات الهادئ ، بينما كان المزارع قد فرغ من حصد المرجة الكبيرة وحشرجة المحرك تحدد وتحدد ، عندما كان يتسلق سفح التل حائفاً ، يتغلب على اصوات الجميع . ثم بعد ان وصل رأس التل ارتخى فجأة وكاد يتوارى عندما مر وراء حزم الخيزران ، وهو يستدير وينحدر فوق السفح كان لايزال يمشي ، محاذياً قاعدة التل . ثم اخذ يتسارع ويهجم ثانية ، بينما كان المحرك ، على مايلدو ، يصلو ويحول في منحدر التل ، كان جورج يعرف انه سيراه وهو يلوح ويطلو ويرتفع بتلك الدرجة من البطء المحتوم الذي هو صفة كل من الانسان او الحيوان او الآلة ، من شأنه ان يمس من قريب او من بعيد شؤونا تخص الارض ، بينما كان المزارع ساكناً تماماً ، لانتكاد تشعر بأنه يهتر عند سماعه الحشرجات التي كانت تنبعث عند الشفق تحت اقدام التلال . فهو كان يتجاوزها واخيراً ينصرف كالحأ تحت السماء الشاحبة ، فيها كان والده قابلاً على مقعد من صفصاف ، يحدث صريراً تحت ثقله ، اثر كل حركة تصدر منه ونظرة ضائع في الفراغ وراء نظارات لا يجديده حملها نفعاً . كان بإمكان جورج ان يرى

فيها انعكاس الشبح الدقيق المتمزق انعكاستين على المغيب ، والشبح يخترق (او
الاحرى يتزلق انزلاقاً بطيئاً) السطح المتفتخ للديدان ، عبوراً بمراحل التشوهات
المتلاحقة الناجمة من تحذب العدسات - المنسحبة في البداية الى الاعلى ثم
المستوية ثم المستطيلة الخيطية الشكل ، بينما كانت تدور ببطء ثم تختفي - بحيث
انه عندما كان يصغي ، في شبه الظل ، الى الصوت المتعب القادم من الرجل
المسن كان يخيّل اليه انه يرى صورة الفلاح الذي لا يقهر ، وليس مجرد رؤية كل
واحد من قري السماء يجتازانها من طرف الى اخر ولكنها (على غرار اولئك
الاشخاص الجالسين وهم يتفرجون على تدريب الخيول) كانا يظهران ،
فيتضخمان فيتقاربان ، ثم يعودان فينكمشان كما لو كانا يطوفان سطح العالم
الدائري الباهر ، مرتجفين لايهزها شيء ، وهما في رحلة أبدية ...

وكان والده يتحدث بدون انقطاع مع نفسه. يتحدث عن فيلسوف لا
اتذكر اسمه ، كان قد قال يوما ان الانسان لا يعرف سوى وسيلتين هدفهما ان
يستأثر بما يعود الى الآخرين هما الحرب والتجارة. وانه يختار عادة الوسيلة الاولى ،
لأنها تبدو له اسهل واسرع. ولكنه عندما يدرك اضرار الاولى وهي الحرب
ومخاطرها فإنه يتصرف الى الثانية التي هي التجارة وهي وسيلة لا تقل خداعا
ووحشية ولكنها اجلب للراحة. وان جميع الشعوب في نهاية الامر قد مرت مرغبة
بهاتين المرحلتين. وان كل شعب بدوره جعل اوربا تسبح في بحر من النار والدم
قبل ان تتحول هذه الشعوب الى مجتمعات مبهولة الاسهم ، متكونة من وكلاء بيع
متجولين كالانجليز ، على ان الحرب والتجارة لم تكونا قط سوى تعبير عن شراهة
الحيوان الكاسر. وهذه الشراهة نفسها ان هي الا حصيلة الرعب الوراثي
الذي يسببه الجوع والموت ، مما جعل من القتل والسرقة والنهب والبيع شيئا
واحدا في الحقيقة وما هذا الشيء سوى مجرد الحاجة الى الاطمئنان ، كالغلمان
الذين يصفرون ويفنون بصوت عال لكي يكتسبوا الشجاعة عندما يجوبون غابة

في الليل . وهذا لما يفسر كيف أن الانشاد ضمن جوقه يشكل جزءا مماثلا تماما لاستخدام الاسلحة او لتمرين الرمي ، جزءا من برنامج تعليم القوات العسكرية لانه لا أسوأ من الصمت عندنا .

آنذاك اغتاط جورج قائلا . « طبعاً ، طبعاً » بينما كان والده يطيل النظر في غابة الحور الصغيرة ، بدون ان يراها في الحقيقة ، وهي تتألق قليلا في الشفق ، وحجاب الضباب يتراكم تراكما بطيئا في قعر الوادي ، مغطيا اشجار الحور ، بينما غابت الروابي في بحر الظلام فقال : «مالك ؟ » فأجابه : «لاشيء ، لاشيء . ليس لي شيء لاسيما اني لأأملك نضد الكلمات الى ما لانهاية . واخيرا أما يكفيك انت ؟ » فأجاب والده : «مالذي يكفيني ؟ » فرد عليه قائلا : «الخطاب تلو الخطاب» . حيثئذ صمت فأخذ يتذكر انه سيفادر المكان في اليوم التالي . ثم اكتفى بينما كان والده يحدجه صامتا هو ايضا ، وبعد ان كف عن النظر اليه (كانت الساحة وقتئذ قد انتهت عملها ، فرت مصطخبة خلف الكشك ، والمزارع قابح على مقعده العالي ، لا يظهر منه سوى بقعة فاتحة في قبصه ، في الظلام المتكشف تحت الاشجار التي كانت تتباعد وتتواري ، كأنها شبح في احدى زوايا مستودع للحصيد . فانقطعت فرقة المحرك بعد قليل وساد الصمت ثانية) : لم يعد بإمكانه ان يميز وجه الرجل الشيخ . اذ لم يكن يظهر منه سوى قناع غير واضح معلق فوق الكتلة الضخمة المضطربة القابعة في المقعد . وكان يفكر في سره : «ولكنه يشعر بمشقة ويحاول اخفاء ذلك الشعور كما يحاول استجماع شجاعته . لذا تراه يتكلم كثيرا . لان كل ما كان تحت تصرفه انما هو هذا الايمان القوى العنيد بالرجوع المطلق للمعرفة التي يتلقاها المرء نيابة عن غيره ، لما هو مكتوب ، لهذه الكلمات التي لم يوفق والده ، الذي لم يكن سوى فلاح ، في فك رموزها ، موليا اياها سلطانا خفيا سحريا» كان صوت ابيه مشوبا بالحزن

وبالرغبة العارمة المتذبذبة في ان يفيق هذا الصوت نفسه ان لم نقل يجدوى وصحة ما كان يقول في الاقل يجدوى الاعراب عنه ، مصرّاً لوحده - مثلما يصفر غلام وهو يحتاز غابة في الظلام - كما سبق ان قال - بينما كان لايزال يتوالى عليه ، ولكن الان ليس خلال شبه ظل الكشك في حرّاب الراكد ، حر الصيف الفاسد ، حيث ينتهي الامر ببعض الاشياء الى الفساد التام ، بعد ان تكون قد ننتت وانتفخت كجثة ملأى بالدود تنفجر في النهاية غير تاركة شيئاً سوى بقية تافهة ، يتوالى عليها كدس الصحف المدعوكه ، حيث لم يعد بإمكان المرء ، منذ زمن طويل ، ان يميز شيئاً (حتى الحروف او العلامات التي يمكن الاستدلال بها بل حتى العناوين البارزة الكبرى : جل ما بإمكانك ان ترى كان بقعة أو ظلا خافت الدكنة على الورق) ولكن (الصوت والاقوال) ارتفعت آنذاك في الظلام البارد ، حيث كانت نظرية الجياد التي لاتعرف لها نهاية ، الجياد التي كانت تسير منذ دهور : التقط جورج ، وكان والده لم يكف قط عن الكلام ، واحدا من الجياد فامتطاه بسرعة خاطفة ، وكأني به لم يفعل شيئاً سوى انه قام من مقعده وركب واحدا من تلك الظلال المتحركة فهز فجر الكون ، بينما كان الشيخ يواصل حديثه مع مقعد فارغ ، فابتعد فتوارى فيما كان الصوت المنفرد يقاوم بعناد ويطلق كلمات فارغة لاجدوى من ورائها ، وهو يكافح ، جالسا واضعا رجلا على رجل ، شيئا يشبه النمل يغمر ليل الخريف ويطغى عليه في نهاية الامر ، تاركا اياه تحت رحمة فرقعته المهيبة اللامبالية .

او ربما ان جل ما فعله ، هو انه اغمض عينيه ثم عاد ففتحها مباشرة ، وان حصانه لم يوفق في الاصطدام بالحصان الذي كان قبله ، ثم استفاق تماما وادرك ان صخب الحوافر زال في ذلك الوقت ، وان الرتل كله كان قد توقف ، بحيث اتنا لم نعد نسمع سوى صوت انهار المطر حولنا ، فيما كان الليل لايزال حالكا ، مقفرا ، فما كان احد الحصن يشخر احيانا ويحمحم ، ثم كان صوت المطر يتغلب

على كل شيء ثانية . وبعد هنية سمعنا اوامر تنطلق بصوت عال من مقدمة الكتبية ، فاهتر الجحفل بدوره وتجمد في مكانه ، بعد تقدمه بضعة امتار وانحدر احدهم محاذيا الرتل يرخبها ، فيما كانت مطيته مجهزة بنعال من حديد ، تحدث عند كل وقع صوتا واضحا معدنيا . ثم انتفض في غلس الظلام طالعا من العدم طيف ، واجتاز عبر حفيف البهائم المعتضلة وهي في الطراد او عبر حملات السلاح او عدة الرواحل او نفايات الحديد المتصادمة ، وجذعه المظلم منحن الى الامام على رقبته لواجه له ، وقد اعتمر خوذة كأنه جواد الرؤى الكوارثية بل كأنه شبح الحرب نفسه الطالع مدججا بسلاح الظلام . وبعد ان عاد ثانية انسل لفترة غير قصيرة ، حتى صدرت الاوامر بالانطلاق ولتو لمحا اولى الدور وكانت سوداء اكثر قليلا من ظلمة السماء .

واذا بهم في مستودع الحصيد مع تلك البنت التي كانت تحمل مصباحا في طرف ذراعها المرفوعة ، وكأني بها تلمح في ظهور شخص سماوي : كواحد من تلك الرسوم القديمة بلون عصير التبغ المتكون في اسفل الغليون : بني (او الاحرى قيري) وفاتر ، وان صح التعبير ، لم يجدوا انفسهم داخل مبنى اقتحموه ، ان صح التعبير (مقتحمين في آن واحد رائحة الحيوانات اللاذعة ورائحة الشوفان) او كان ما اقتحموه اشبه بمساحة عضوية حشوية . فالتفت جورج طائشا بعض الشيء ، مذهولا بعض الشيء ، محركا جفنيه الساختين بليدا متخدرا داخل ثيابه الباردة والثقيلة من ماء المطر ، وجزمته متصلبة من تعب . ومع تلك الطبقة الرقيقة المتكونة من الوسخ والارق الواقعة بين وجهه وبين الهواء الخارجي ، كطبقة من الجليد متشققة لائمها يد . حتى انه كان يحيل اليه انه يستطيع ان يشعر ببرد الليل في وقت واحد - او بالاحرى ببرد الفجر - ذلك البرد الذي جلبه معه ودخل معه البيت وهو لا يزال يعصره (وكان يفكر في شيء يساعده على الوقوف ربما هو مشد يرتديه ، كما كان يفكر ايضا بغموض في ان عليه ان يبادر الى حل

سرج حصانه وان يتام قبل ان يبدأ بالذوبان والانحلال) ومن ناحية اخرى كانت البنت واقفة ، ان صح القول ، داخل دفة بطنها الفاتر غير واقعية نصف عارية . لم تكذب تستفيق او لم تستفيق جيدا ، فيما كانت عيناها وشفتاها وكل لحمها منتفخة من كسل النوم الرقيق ، شبه عارية الساقين والقدمين رغم البرد ، محتذية نعلا رجاليا لاسيور له ، مع شال مجدول بنفسجي القت به على بشرتها الناصعة البياض ، وجيدها الحلبي اللون ، النقي ، الطالع من قبض نومها الخشن ، في تلك الطبقة من الضوء الاصفر الذي يبعثه المصباح ، والذي كان يبدو وكأنه ينسكب فوقها ، ابتداء من ذراعها المرفوعة ، كطبقة فسفورية من الصبغ ، الى ان نبح واك في اشعال الفانوس فأطفأت حينذاك المصباح ثم حادت وخرجت صوب الضوء الاصفر الشبيه ، في كثافته بقرنية عين عمياء . ثم توضحت قامتها لحظة في الظلام ، عندما كانت في شبه الظل داخل مستودع الحصيد ، ثم ما ان عبرت العتبة حتى تظاهرت بالاغماء رغم استمرارها في متابعتها بعيونها ، لم تكن في الحقيقة تتبعد ، وإنما كأني بها تنصهر وتدوب في ذلك الشيء الذي كان رصاصيا اكثر من كونه مصفرا ، فقد كان النهار ، بدون شك ، بما انه كان لا بد من طلوعه . ولكنه كان ظاهريا مجردا من كل سلطان ومن كل الخصائص التي تنسب الى النهار . رغم اننا كنا نستطيع ان نلمح في ذلك الجانب من الطريق جدارا ، صغيرا وجذع شجرة جوز وخلفها اشجار الروضة ، ولكنها كلها بأجمعها كانت بدون لون وبدون قيمة ، كما لو ان الحائط الصغير وشجرة الجوز والتفاح (كانت المرأة الشابة قد اختفت) كانت قد تمحجرت ، ان صح التعبير ، غير تاركة هناك سوى بصنات على تلك المادة الواهية الاسفنجية الرصاصية التي كانت تتسرب شيئا فشيئا داخل مستودع الحصيد . كان وجه بلوم كقناع رصاصي عندما التفت اليه جورج ، كورقة ممزقة فيها ثقبان للعينين ، وكان الفم هو ايضا رصاصيا . واصل جورج الجملة التي كان قد

استهلها او بالاحرى انه سمعه يكملها (ربما كانت تدور حول شيء يشبه :ألا قل لي ، هل رأيت هذه البنت ، انها ...) ثم انقطع الصوت فيما استمرت الشفتان تتحركان ربما بصمت ثم انقطعتا هما ايضا بدورهما ، فيما كان هو ينظر الى الوجه الورقي ، اما بلوم (فقد كان قد خلع خوذته فظهر وجهه حينذاك ، وجه بنت ضيق بل يزداد ضيقا ما بين الاذنين ، وجه ليس اكبر من قبضة يد ، وجه طالع فوق رقبة بنت من ياقة المعطف الصلبة المبللة طلوعه من داخل قوقعة ، متألم ، حزين ، انثوي يحدث صدمة) فقال : «اية بنت ؟» فأجابه جورج : «اية ... ماذا حل بك ؟» فيما كان حصان بلوم لا يزال مسرجا ، ولكنه لم يكن مربوطا بعد ، أما هو فقد كان مجرد متكئ اتكاء الى الحائط ، كما لو كان قد خشي السقوط وهو لا يزال متقلدا بندقيته القصيرة ، حتى انه كان يفقد الهمة لان يلقى راحله . ثم عاد جورج وقال : «ماذا حل بك ؟ هل انت مريض ؟» فhez بلوم كنفه ، بعد ان انسحب من الحائط ، ثم اخذ يحل فراشه العسكري . فقال له جورج : «تبا لك ، اترك هذا الحصان . اذهب الى النوم . لو دفعتك لسقطت» انه كان موشكا ان ينام واقفا . غير ان بلوم لم يبد مقاومة عندما دفعه جورج : على ارداف الجياد البرونزية كان الشعر قد التصق ، على أثر سقوط المطر قائما ، كما كان مبتلا ايضا وملتصقا تحت بساط السرج ، تنبعث منه رائحة حامضة . وفيما كانا يرتبان متاعهما العسكري على امتداد الحائط ، كان يجيل اليه انه لا يزال يراها ، حيث كانت قد وقفت قبل هنية ، او بالاحرى يشعر بها ويلمحها كبصمة لا تمحى غير واهية بقيت فترة اقل على الشبكية (لانه قلما رآها ، واذا كان قد رآها فالرؤية كانت رديئة) من بقائها داخل كيانه : كأني بها شيء فاتر ، ابيض كالحليب الذي كانت قد استخرجته قبل لحظات من وصولها ، او هي اشبه بالظهور العجائبي الذي يتلقى النور لا من ذلك المصباح المضيء ، كما لو ان بشرتها كانت هي مصدر النور ، كما لو ان هذه المسيرة الفروسية الليلية التي

انتهت بها الى بيتها لم يكن لها من سبب او هدف سوى اللقاء اخيرا بهذا الجسم الشفاف المسبوك في خضم الليل الدامس : لم تكن امرأة وانما الفكرة التي يكونها الانسان عن المرأة بل رمز كل امرأة أعني ... (هل كان لايزال واقفا او يحل السيور والاشرطة بحركة انسان آلي او كان قد نام أم كان لايزال ناعسا مستلقيا على الشوفان بعناد فيما كان يطوقه ويبتلعه الرقاد) كان يتصور اعضاء جسمها معجونة من الطين اللين عجنا ايجازيا ، فخذها وبطنها ونهديها واسطوانة رقبته المدورة ، وفي جوف الطيات ، كما في وسط التماثيل البدائية الواضحة المعالم كان يتصور تلك القوامة المعشوشبة ذلك الاسم المحرم التلفظ به خارجا عن نطاق التاريخ الطبيعي اعني به قدس اقداس الانثى ، يذكرونا بتلك الاجسام البحرية آكلة اللحوم العمياء المحرومة من الشفاء والحواجب : فتحة الرحم او البوقفة الاصلية التي كان يتصور انه يراها في احشاء الكون والشبيبة بالقوالب التي تعلم الجنود والفرسان ان يشموا فيها وشما ويصموا بصما . عندما كان غلاما صغيرا ، لم تكن غير مجرد عجيبة صغيرة ضغط احدهم عليها باهامه او رعاها لايخصى لهم عدد ، طلعوا مدججين بالسلاح ، كما تقول الاسطورة ، فازدادوا وتراحموا وانتشروا على وجه البسيطة ، وهم يتحدثون جلبة لايمكن حصرها ، وقرعة تستحيل السيطرة عليها ، فاذا هم جيش يتقدم بخيوله الداكنة الكالحة التي لايجبى لها عدد ، هازة رؤوسها الحزينة ، متوالية كأنها في موكب لا نهاية له ، وسط قرعة السنايك الرتيبة ، (لم يكن انذاك ناعما وانما كان واقفا بلا حراك ، ولم يعد يرى الان نفسه في مستودع للحصيد ، ولم يعد يستنشق رائحة الشوفان الجاف والصيف المنصرم ، وانما رائحة الزمن نفسه والسنين الغابرة والليل والسلام وتنفس امرأة الى جانبه لايكاد يشعر به ، تلك الرائحة التي لايمكن تحسسها ، على انها رائحة الحنين العنيدة ، وبعد لحظة توسم المستطيل الثاني الذي رسمته امرأة الحزانة وهي تعكس النور الداكن الذي يتخلل الشباك - تلك الحزانة الفارغة

منذ الدهور ، خزانة غرف الفنادق ، وقد ثبتت في داخلها اثنتان او ثلاث حاملات ملابس خالية من الملابس ، والخزانة نفسها (بجبهتها المستطيلة المحاطة بصنوبرتين) كانت مصنوعة من خشب اصفر اللون وكأنه مصطبغ بالبول مائل الى الحمرة ، خشب لا يستعمل ، على ما يبدو ، الا في صناعة مثل هذا الاثاث الذي لا يبيأ لاحتواء شيء سوى فراغه المليء بالغبار ، مع اشباح اكفان مكسوة بالغبار لآلاف العاشقين ، لآلاف ، الاجسام العارية الرطبة الغضبي ، لآلاف العناقات المخزونة المختلطة في اعماق المرأة السحيقة ، تلك المرأة التي تتحدى الزمن بيكوريته وبرودتها - اما هو فقد تذكر ... الى ان ايقنت ان ما كنت أحس به ، لم يكن الجياد ، وانما المطر المتساقط على سطح مستودع الحصيد . ففتحت للتو عيني ورأيت الضياء يتسرب بحزمة عبر الفجوات بين الواح الجدار : لا بد ان الوقت كان متأخرا على ان ضوء النهار كان لا يزال مصطبغا باللون الابيض الوسخ الذي توارت فيه ، ذلك النهار التي ابتلعها او التهمها ، في فجر جاء محملا بالماء او بالاحرى مبتلا او مغمورا ، كقطعة قماش او كملابسنا ، واذا استنشقتنا رائحة الغطاء المبتل النشاف الذي نمنا فيه فاننا لم نتمكن من السيطرة على يقظتنا . فقد كنا كالاغبياء ، ننظر في احد اطراف المرأة المعلقة فوق سطل من قماش ملآن ماء جامدا ، بينما كانت اوجهنا الرصاصية وسخة شاحبة هي ايضا من جراء نقص النوم وحدودنا سيئة الخلاقة ولحانا قد علق بها القش وعيوننا محمرة الزوايا اضافة الى حالة الذهول وعدم الارتياح والنفور التي كانت تخيم علينا (كالحالة التي يحس بها المرء عند رؤيته جثة ، كما لو ان الانتفاخ الذي ينتهي الى التفسخ كان قد ضرب اطنابه وبدأ عمله ، يوم توشحننا بملابسنا العسكرية ، مرتدين في الوقت نفسه ملابس ذابلة او قناعا من التعب الشامل ، من الاشتمزاز من القذارة ، ثم شرعت بازاحة المرأة او بالاحرى المدوس وهي ذلك الجنس من الحيوانات الهلامية البحرية التي تضيء في الليل متراقصة مستطيرة كأن اعماق مستودع الحصيد

الظليل البني اللون يمتصها ، متوارية بالسرعة الصاعقة التي يطبعها اقل تغيير في الزاوية على الصور المنعكسة . وهناك فقد رأيتهم في الطرف الاخر من الاصطبل ، ناطقين اوبالاحرى ساكنين انهم اعني انهم يتبادلون الصمت كما يتبادل الآخرون اطراف الحديث ، اعني به ضربا من الصمت الذي لم يكن يفهمه غيرهم صمت كان بالنسبة اليهم ، بدون شك ، افصح من كل الخطابات . فيما كانوا يحيطون بالحصان وهو مستلق على احد منكبيه : انهم ثلاثة ورؤوسهم اشبه برؤوس الفلاحين ، هؤلاء الاشخاص السكوتيون الحذرون المتحفظون الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى لافراد الفوج ، يشوبهم شيء من الحزن لاعلم لي به يبدو على وجوههم التي تجعدت قبل الاوان ، او شيء من الحنين الى حقولهم والى خلوتهم والى حيواناتهم والى الارض السوداء الشحيحة : ثم قلت : ماذا هناك وما الذي يجري ؟ لكنهم لم يجيبوني ، ربما لاعتقادهم ان الاجابة لاتجدي نفعا ، او ربما اننا لم نكن ننطق بلسان واحد . ثم تقدمت ونظرت بدورى الى الحصان ، وقتا قصيرا ، وهو يتنفس بصعوبة . كان انجليزيا هو ايضا هناك ولكنه ، شأنه شأن الآخرين ، لم يظهر وكأنه يسمعي ، رغم اني كنت اتصور أو أمل وجود امكانية اقامة اتصال بيني وبينه . ولكن ان يكون الانسان فارس سباق ، الايشبه هذا ، في بعض النواحي كونه فلاحاً ، رغم المظاهر التي قد تحمل على الاعتقاد بأنه مجرد ان عاش فترة في المدن أو في الاقل كان على اتصال بالمدن ، يجوز والحالة هذه اعتباره مختلفا بعض الشيء عن الفلاح ، اعني به انه راهن كثيرا ولاعب كثيرا او ربما كان خصيا ، كما هي الحال غالبا عند فرسان السباق ، وبما انه قضى طفولته ليس في حراسة الاوز او سوق البقر الى المورد وانما في العبث بالسواقي وعلى ارضة المدن . ويجب القول هنا ان الامر امر الريف اهون من امر الحيوانات ومساكنة الحيوانات ومؤلفتها . لانه كان انزاليا سكوتيا قليل الاتصال كأني واحد منهم وعلى نسقهم ، فقد كان منكبا

ومنهمكا (كما لو كان غير قادر على البقاء بدون عمل يتلهى به) على مزاوله واحد من تلك الاعمال الدقيقة الوثيدة التي ينفردون بسر اختراعها لانفسهم : وحيث كنت (جالسا قريبا منه ، وراءه قليل ، على نقالة وقد ادار عني ثلاثة ارباع ظهره ، فيما كان كثفاه يتحركان قليلا ، ربما لكي يلمع عدة راحلته او عدة راحلة دي ريكسكاسك ، بصقل حلقات النحاس بنشارة الخرف وتلميع الارسان بالشمع الاصفر ، كان يبدو انه يحمل معه كمية منه في تنقلاته) كنت استطيع ان اشاهد انفه الكبير ، ورأسه منحنيا من ثقل عرنيته هذا او شعره المستعار ، شعر الكرنفالات الذي يكاد يبدو مضافا على يافوخه ، وكأنه شفرات السكاكين التي ربما لم يعد احد يصنع منها منذ ايام السيفافين الايطاليين في عصر النهضة ، اذ كانوا يغطون انفسهم بدثار لا يرتديه سوى القتلة لا يبرز من وجههم سوى خيشومهم المعقوف كمنقار النسر ، مما يخلع عليهم هيئة مربعة بانسة لطائر واجم كتيب ... اين قرأت هذه القصة ؟ اعتقد اني قرأتها لكيلنغ والافهيتة ذلك الحيوان المصاب بعلة في منقاره في انفه فقد كان يقول : اذهب وسن بصلك «أو» عجيزتك محاطة بمعكرونة شريطية وهذه عبارة محصورة الاستعمال عند فرسان السباق ، لكي «يكون حظهم سعيدا» ولكن لم يكن ثمة اي شك في رزانه صوته ، وانما بالعكس فقد كان يتم عن براءة ونقاوة وسذاجة واندهاش وشجب لفضيحة ، كالطريقة التي رأى فيها بلوم يسرج حصانه ، وانه رغم ذلك لم يصب بأورام بارزة بعد ذلك الشوط الطويل . فقد كان صوته مكسورا مبجوحا ناصعا غريب العذوبة بعكس ما كان قد يتوقع الناس سماعه . بل كان متواضعا ، عليه مسحة من الطفولة . كأنني بها تكذيب لامعقول لقناع الكرنفال الهزيل المتجعد ذلك . هذا اذا تجاوزنا عن ان عمره كان اكبر من معدلات اعمارنا بنحس عشرة سنة في الأقل . كان شاخصا هناك ، وكأنه محاط بصبيان فحسب . وذلك لأن دي ريكسكاسك كان قد اتخذ التدابير بل من المحتمل انه استغل علاقته لتسيبه الى فوجنا

وذلك بغية ابقائه قريبا اليه ، وفي الواقع كان يُخيل الى الجميع ان الواحد لم يكن
ليستطيع الاستغناء عن الاخر. كأني به تعلق الانسان بكلبه ، او الكلب
بصاحبه ، بدون ان يسائل الكلب نفسه عن مدى استحقاق صاحبه ذلك
التعلق : فقد كان يسلم بالامر ويقر بدون ان يضع الحالة لحظة موضع شك ،
ويقدم الاحترام لدي ريكسك . هذا وان كل شيء كان يدل على ذلك
الاحترام .

وعلى سبيل المثال تلك الطريقة او ذلك الصوت اللذان كان يؤاخذ بهما
الزملاء بعناد واناة وبامانة الخادم لخدمته ، عندما كانوا يلفظون اسمه على النسق
التالي : دي ريكسكاش وكان هو يؤنب واحدا منهم بقوله : ويحك الم تفهم
بعد ؟ الم تعلم ان تلفظ ريشاك : بقلب الكاف والسين الى شين والكاف الاخيرة
الى شين . تبأ لك اني اقسم لك بان هذا الانسان نهاية في الغباء . فها هي المرة
العاشرة في الاقل وانا اشرح له . لعلك لم تذهب قط الى حلبة سباق الخيل ابها
المغفل مع العلم ان اسمه يعرفه الجميع ... كان يتباهى بالاسم ، بالالوان ،
وبسترة الفارس الحبرية الوردية التي كان يرتديها ، والحالات السوداء والطاوية
السوداء المائلة الى لون خضرة سطح لعبة البليارد ، او ميدان سباق الخيل او زي
الخدم الموحد . ولكن عندما عصف برشاشته عن كئيب فاقترحت العودة بعد
ذلك بلحظة والذهاب الى حيث كان ، للتأكد من موته او حياته اخذ يتفحصني
(مثلا فعل دي ريكسكاش قبل قليل اذ اجبر ذلك الجندي الذي ضل الطريق على
النزول من حصانه الذي توسل البنا للسماح له بركوبه وقال بعد ذلك بلحظة لقد
كان جاسوسا . فقلت : من . فقال وهو يهز كتفيه : هذا الشخص . فقلت ...
ولكن بماذا رأيته ؟ فقال وهو يتفحص اسارير وجهي بتينك العينين الواسعتين ،
بذلك النظر المذهل الحلو الشاحب المتشكك والمتعجب بعض الشيء ، كما لو كان
ينذل قصارى جهده لكي يفهمني مشفقاً على حماقتي وحائثاً في الظاهر متأثراً

كحيرته وتأثره عندما كان يسمع احدهم يلعن الضباط ، مرسلًا دي ريكسك الى الشيطان ، دي ريسكالك الذي يغلب على الاحتمال كونه انتهى به الامر الى الشيطان الآن) بينما كان يبحث عن تلك الرقاقة او تلك القشرة التي كنت اشعر بها على وجه كأنها البارافين وهي تتجزع وتفصلني عنه ، قشرة متكونة من التعب والنعاس والعرق والغبار ، بينما كان وجهه لا يزال مقنعا بتلك التقاطيع الرافضة لللايمان والشاجبة الحلوة وهو يقول : «ارى ماذا ؟» فقلت له : «كي نرى هل مات في النهاية..» بعد رشقه بوابل من الرصاص عن كثب ، استطاع ذلك الشخص ان يفلت او ربما اصيب بجروح فقط او ربما قتل حصانه لا اكثر فقد سقط الحصان عندما رأينا راكبه وهو يستل سيفه و... «ثم لزمت الصمت ، اذ ادركت اني كنت اضيع وقتي ، وان مسألة العودة بالنسبة اليه والذهاب للتأكد ، لم تكن مطروحة . لم يكن يطرحها ، ليس عن جبن في نفسه ، ولكنه ربما كان يتسأل فقط لماذا وبأسم من (وفي الحقيقة لم يجد) فان ذلك كان يعني بالنسبة اليه المجازفة بحياته من اجل شيء لم يدفع له احد اجرا عليه ، ولم يتلق الاوامر الرسمية الصريحة به ، مشكلة ربما كانت تتعدى افاق فكرة : صبغ جزم دي ريكسك وتلميع عدة راحلته والعناية بحصنه وتوفير سبل الفوز لها . ذلكم كان لعمري ديدنه . وقد كان يؤديه بامانة وانكباب اصبحا مضرب المثل ، منذ خمس سنوات ، وهو يمتطي حصنه نيابة عنه ويروى بعضهم انه لم يكن يمتطيها هي فحسب وهو يتسلق الذرى طافرا عليها ، ولكنه كان يدوسهم هم ايضا ومعهم دي ريكسك...» وفيما كان جورج يحاول ان يتصور هذا ، اعني به مشاهد ولوحات ربعية وصيفية هاربة ، كان العجب قد أخذ منه كل ماخذه ، وهو ينظر من بعيد ، خلال فرجة في سياج أو بين دغلين ، الى شيء يكسوه العشب الاخضر الابدئي النقاء وموانع بيضاء ، وهو واقف وجهها لوجه قبالة كورين . كان هو اقصر منها ، منتصبًا على رجله القصيرتين المقوستين ، وجزمته

اللينة مقلوبة ، وسرواله الالبيض وسترته الحريرية الزاهية التي كانت هي قد
 اختارت الوانها التي كانت تبدو (وقد كانت مصنوعة من تلك المادة اللامعة
 المطلسة التي تصنع منها الملابس الداخلية النسائية كرافعة النهدين والملباس
 وحالات الجواريب السوداء) كزري تنكري مضحك عدواني شهواني ، مثل
 الاقزام المشوهين الذين كانت الناس تخلع عليهم ملابس ذات الوان لا ترتديها
 سوى الملكات والاميرات ، الوان ثمينة وحلوة اما هو فقد كان هناك بقناعه الشبيه
 باقنعة كرنفال ايطالي ، وجلده الاصفر ووجهه الهزيل المتسك ، وانفه الشبيه
 بدوارة ريح وعينه الواسعتين الكرويتين ، وهيته الانفعالية (التأملية) الانطوائية
 المتألمة (لعله مظهر يفرضه حمل رأس كرأس فارس السباق مع ياقة سترته التي
 علق تحتها منديل يشبه لقافه جرح تقمط الرقبة وتعطيها صلابة فريدة فيما الرأس
 مقذوف الى الامام ، وكأنه مريض يشكو وجعاً من ورم في الرقبة او من ثللول)
 بينما كانت كورين واقفة قبالة وجهه (كان ظاهرياً كفارس سباق لاغير ، يقدم
 الاحترامات وينصاع لاوامر سيده صبوراً عاصراً بين يديه ، بحركة ميكانيكية ،
 مقبض سوطه) وهي متوشحة باحد ثيابها الزاهية الالوان الشفافة ، شاخصة
 بعكس اتجاه الضوء الذي يسحب الظلال على العشب . وقد كان ذلك الضوء
 احمر ، كافي به مهيا ليلائم شعرها ، فيما كان جسمها (او مفرق ساقها) يرتسم في
 الداخل ، شفافاً بفعل اشعة الشمس الباهرة . واذ تحت كلياً كانها عارية وعليها
 كساء احمر قان ، ضمن غلالة من السحاب البخارية بحيث انها كانت تحمل
 على التفكير (ولكن لست اقصد التفكير فعلاً اكثر من تفكير الكلب عندما يسمع
 قرع الجرس الذي ينشط انعكاساته : لا الى التفكير اذن ولكن بالاحرى الى
 ما يشبه افراز اللعاب) بشئ اشبه بسكر الشعير (او عصير او شراب اللوز)
 ومجاوليات مغلفة بورق السيلوفان ذات لذعة حمامضة (ورق يبدو اندعاكه
 الكريستالي ولونه ومادته وتكسراته حيث تظهر البارافين في شبكة رفيعة من

الخطوط المتقاطعة تهيح الاستجابات الفلسفية) وقد تمكن جورج من رؤية حركات شفاههم ولكن بدون ان يسمع (لانه كان محتباً بعيداً خلف سياجه ، خلف الزمن بينما كان يسمع (في وقت لاحق عندما استطاع هو وبلوم من تدجينه قليلاً) انجليزيا يروي لهم احدى قصصه التي لا يحصى لها عدد عن الحصن وعلى سبيل المثال قصة ذلك الحصان الذي يعاني مدة ثلاث سنوات ، من التهاب في الوعاء اللمفاوي ، التهاب لم يمنع من الفوز عدة مرات ... فقال جورج : «ولكن هل كانت تـ.....» «فاجابه انجليزيا : «كانت تأتي للمراقبة عندما كنت اضمده طبقاً لوصفة تعلمتها من سيدي الاول ولكن كان علي ان انتبه ل...» فقال جورج : «ولكنها عندما كانت تأتي هل كنت تـ..... اعني هل...» وكان انجليزيا يرد عليه وهو لا يزال الى جانبه قائلاً : ثم ان ذلك لم تكن به اية اهمية : لم يكن يحتاج الى ان يعرف ماذا كان يقوله الفم والشفتان المصبوغتان اللتان كانتا تتحركان ببطء ، ولا ماذا كانت ترده من اجوبة بتلك الشفتين المشققتين الصلبتين الشبيهتين بشفاة اقنعة الكرنفال ذلك لان الاجوبة لم تكن او على الاصح لم يكن ممكناً ، ان تكون سوى كلمات لا اهمية لها البتة وتافهة (ربما هو وهي كانا يتكلمان عن دواء الحصان او عن الغضروف المنفجر كما يرويه لنا بسذاجته البريئة) ، ويغلب على الاحتمال ان القصة كانت تدور حسب عذري او عن مؤامرة تحاك ملاً بالشوشرة متفق عليها ، مدبرة تبتدئ ثم تكبر فتتطور وفقاً لتصعيد في الاصوات متناغم ومعقول ، تتخلله توقعات لا بد منها وحركات كاذبة ، حتى تبلغ الذروة وربما بعد ذلك تأتي فترة راحة ثم يعقبها الهبوط الالزامي في الاصوات : فلا تنظيم فيها ولا تماسك ولا كلمات ولا أقوال تمهيدية ولا تصريحات ولا تعليقات وانما مايلي فقط : بضع صور خرساء لانكاد تتحرك تلوح من بعيد : صورة كورين تصدر له الاوامر عند ميدان السباق ، او صورته هو ملطخاً بالقدارة والتراب والعشب المسحوق الاخضر المصفر الملتز بسروله .

وربما كان يعرج قليلا وهو متأبط سرجه الصغير الشبيه بسرج الدمي سرجا كان يتدلى منه الركابان اللذان كانا يتصادمان فيحدثان صليلا كصليل الفضة ، وهو يمشي الى جانبها متوجها صوب الموازين خلف الحصان المبلل المدخن الذي كان يقتاده احد سائسي الاصطبل ، بشعره الوسخ المفرط الطول وملابسه الرثة ووجهه الشبيه بوجه صبي سيئ التربية ، او مرة في صبيحة مشمسة امام الاصطبلات ، فيما كان مرتديا سرواله المرقع الذي اكل الدهر عليه وشرب وجزمته البالية المتشققة وقبضه المكتم وهو يغسل بالصابون ويدلك عراقيب حصان ، وهو مقع على رجليه . وفجأة وعلى البلاطات المبللة عند النافذ ، تراءى ظلها ، وهي متشحة باحد ثيابها الفاتحة البسيطة الصباحية ، او ربما كانت هي ايضا تحتذي جزمة كفارسة وتضرب بالسوط احدى ساقها بينما كان هو لا يزال مقبسا لا يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، يواصل تمسيد العرقوب المريض ، الى ان بادرت به بالكلام . فنهض حينئذ مشخص ثانيا امامها مطأطئا ومنحنيا قليلا الى الامام ، وذراعه مصطبغان بالصابون حتى المرفقين واثار الحركات التي كان رأسهما يقومان بها ، واثار حركة قام بها بذراعه تبين انها كانا يتكلمان عن الحصان وعن الرقة ليس الا (اللهم ربما غمرة عين غامضة بين حبيبين ، او طريقة مأكرة للنظر اليها ماثلة لطريقة الصبيان النحاف المعزقي الثياب الارذال الذين يبرون امامك وهم متعلقون برسن الحيوانات المتألقة بخطومها الرذيلة سيئة التغذية وهيئتها الماجنة التي يرثي لها ، وسط اضطرام كهربائي شب في اعرافها وعضلاتها وثيابها المتقرحة) اذن لم يدر الحديث عن الحب ، اللهم الا اذا كان الحب - او بالاحرى الغرام - يعني تلك الحالة الخرساء او الانطلاق او التفور او الاحقاد او حالة لم يجد لها احد صيغة بعد ، ولا شكلا ، اذن كان مجرد تعاقب حركات واقوال ومشاهد لاتعني شيئا وفي المركز وبدون مدخل كانت ارفضاضة او التحامما مستعجلا بين جسمين سريعا وحشيا ، حيثما كان ، ربما في الاصطبل نفسه او

على كدس من التبن فيما كانت تنورتها مرفوعة الى اعلى وهي مرتدية بنواربها مع حاملاتها ، مع وميض البرق الذي كانت تطلقه بشرتها الباهرة من اعلى فخذها ، وكلاهما يلهتان غاضبين خشية ان يفاجئها احد بينما كانت هي ترصد من اعلى كتفيه بعين مجتونة وعتق مائل ، باب الاصطبل . وقد كانت راحة محامل الدواب النشادرية تنتشر حولها ، مع ضوضاء الحيوانات وهي في مرابطها . اما هو فتفنع بعد ذلك للتوبيشته . وهي عبارة عن قناع من الجلد والعظم الذي لم يتغير ولم يخترقه شيء ، قناع حزين واجم انفعالي كثيب كأنه قناع صعلوك

وفوق هذا كله كنت تقرأ بين السطور ، ان صح القول ، ثرثرة غثة لازمت جورج واصبحت بالنسبة اليه ليس شيئا لايفترق عن امه رغم كونه متميزا عنها (كأنني به بفلت منها كموج او كمادة افرزتها هي) ولكن امه بالذات ، ان صح القول ، كما لو كانت العناصر التي تكون امه (شعرها البرتقالي المتألق واناملها الماسية وثيابها مفرطة الشفافية التي كانت تصر على ارتداؤها ليس رغما عن سنها ولكن ، على ما يبدو ، وفقا لعمرها . وان عدد الالوان وبريقها وشدها كانت تتزايد مع تقدمها في السن) لم تشكل سوى الدعم اللامع الصاحب لتلك الثرثرة الذلقة الموسوعية التي ظهر خلالها ال ريكسك ، في معمعة اقاصيص الخدم والخياطات والحلاقين والمتعلقين والمعارف التي لا يحصرها عد ، ولا أقصد هنا كورين وزوجها ولكن ذرية ال دي ريكسك وعرقهم وطبقهم الاجتماعية وسلالتهم ظهوروا فيها حتى قبل ان يدنو هو من احدهم وهم مطوقون بهالة من ألصبت فائقة الطبيعة منبعا بعيدة المنال ، لاسيا وانها لم تكن تتركز على ملكية شيء معين (كالشراء مثلا) يمكن امتلاكه على أمل ان يمتلك المرء شيئا يوما لنفسه لابل امكانية ، ولو افتراضية ، لامتلاكه تتزع منه حبيبته ولكن هناك اكثر من ذلك (اعني اكثر من الثراء او بالاحرى مايسبقه) واقصد هنا الارتكاز على اللقب والدم الذين كانا يمثلان بالنسبة لسابين (ام جورج) قيمة ومجدا ، ولم يكن ممكنا

الحصول عليها فحسب (لأنها كانا يتكونان اساما من شيء يستحيل على كل سلطان منحها او استبدالها ، وهذا الشيء هو القدم والزمن) وانما كانت تعاني بسببها من عاطفة نفست عليها عيشها ومن حرمان شخصي لكونها هي بالذات (ولكن للأسف عن طريق والدتها) واحدة من ال دي ريكسك : ربما هنا كان يمكن اصرارها وعزمها وتشبها المريض الذي لا ينقطع (فضلا عن حسدها المستمر وخوفها من الشيخوخة وشؤون المطبخ والمخزن المترلي ، فان هذا كان يشكل جزءاً من المواضيع الثلاثة او الاربعة التي كان يدور فكرها حولها بدون شك ، بضراوة الحشرات الرتيبة العنيدة الساخطة المعلقة في الشفق المتطايرة الحوامة بلا هواده حول مركز سطحي غير مرئي ولاوجود له الا في مخيلتها) اصرارها على ان تستنكر بدون انقطاع صلات القرابة التي لانزاع حولها والتي تربطها بهم ، صلات معترف بها ، كما يشهد على ذلك حضور شخص من ال دي ريكسك في الصورة التذكارية لزفافها وهو بزي ضابط خيال ، في الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى ، وكان يؤيد هذه الصلة علاوة على ذلك ، امتلاك الفندق العائلي الذي ورثته بدون ان تراث اسمه ولقبه على اثر تقسيم التركة والميراث . وفي رأي القسم الشرعي ، ربما كانت الوحيدة التي تعرف هويتها العائلية بل ربما كانت الوحيدة ايضا التي تعرف ، من ظهر قلبها القائمة الطويلة العريضة للمصاهرات والزواجات غير المتكافئة السابقة . فهي تروي لك كيف ان الجد البعيد الفلاني لدي ريكسك سقطت حقوقه كنيل لمخالفته اعراف طبقة الاجتماعية ، بانهاكه في التجارة . وكيف ان الآخر الذي كانت تشير الى صورته ... (لأنها كانت ورثت صوراً شخصية كثيرة من معرض زاهر او بالاحرى من مجموعة للاجداد او الاحرى للاباء . فقال بلوم مقاطعاً : «او الاصح للفحول لانه هكذا يليق ان نسميهم في عائلة كهذه في رأيي . اليس للجيش هناك مركز شهير لتربية الخيول او مرتبط ؟ اليس هذا ماتسميه الناس بسلالة اهل تارب مع اختلافاتهم ... - فقال جورج ، حسن ، حسن فلنوافق على لفظة فحول . أما

هو فرد يقوله - ... اصيل ، ونصف اصيل ، غير خصي ، خصي فقال جورج : حسن ولكن هذا أصيل انه ... «فقال بلوم : « ذلك امر واضح . ولم اكن بحاجة الى ان تقوله لي . تراوج تاريخي عربي بدون شك او تاريخي عربي . اه كم كنت اود ان أراه مرة بدون هذه الجزمة » فقال له جورج : « لماذا ؟ » « فقال بلوم : « مجرد ان اتأكد مما يحمله . لانه يجيل الي انه يحمل حافرين بدلا من قدمين . مجرد ان اعرف فقط من اي جنس من البغلات كانت جدته ... » فقال جورج : حسن . الامر كما يرام . قد رجحت انت ... » . كان يتصور انه يرى الوريقات والمعاملات المصفرة الاوراق التي ارته اياها ساببن يوما ، وقد كانت حفظتها بحرص بالغ في احد الصناديق المشعرة التي نعث على بعض منها في الاهراء ، حتى وقتنا هذا وقد قضى ليلة كاملة ، وهو مضطر الى ان يخطط كل خمس دقائق بسبب الغبار الذي كان يحفف انفه ، في تصفح المستندات الموثقة التي ابيض خبرها وعقود الزواج وعقود شراء الاراضي والوصايا والاجازات الملكية والبعثات التبشيرية ومراسم الجمعية التأسيسية ورسائل انكسر شمع ختمها واكداس الحوالات الحكومية وكشوفات الديون الاقطاعية وتقارير عسكرية وقوائم الصاغة وتعليقات ، وشهادات العمد وبيانات الوفيات وشهادات الدفن وانقاض طافية وقطع مختلفة ورقوق غزال شبيهة باجراء القشرة الخارجية للجلد ، بحيث انه عندما كان يلمسها ، كان يتصور انه يلمس في الوقت نفسه (وهي متقرنة قليلا ومتحفقة كايدي الشيوخ المبقة ، خفيفة وهشة زمادية مستعدة على ما يبدو لان تنكسر وتتساقط كالرماد عندما تلامسها اليد ، ولكنها مع كل ذلك حية - يلمس عبر السنين والزمن المحذوف جلد الطموحات والاحلام والاباطيل والاهواء الزائلة التي لايعفو عليها الدهر) وكان يوجد فيما بينها دفتر سميك ازرق الجلد ، رث ، مشدود بأشرطة زيتونية اللون ، كان قد كدس في صفحاته واحد من الاجداد (او الابناء او

الفحول كما ادعى بلوم) خليطاً عجيباً من القصائد والاستطرادات الفلسفية ومشاريع تراجيديات والصلوات المقامة ابان الاسفار ، صلات كان بأمكانه ان يذكّر حرفياً بعض العناوين الدالة عليها («باقة مرسلّة الى سيدة عجوز كانت لها قصص غرامية في شبابها رغم كونها قبيحة») او بعض الصفحات كالصفحات التالي نصها وهي منقولة عن الايطالية ، على ما يبدو ، لورود ترجمة بعض الكلمات في هامشها :

مرونة	الرشمة الثامنة والعشرون والثلاث الاخر المشابهة لها
مطاطية	جميلة كلها ونبيلة وتبدو وكأن يدا واحدة صنعتها . كل جزء
رهادة	من اجزاء المرأة الستورية وسم ورهيف وكل شيء فيها يستحق ان تنظر الناس اليه بانتباه خاص ، على سبيل المثال ،
ايض ناصع	العقد او المفصل حيث ينتهي الجزء البشري بالجزء الحصاني
بشرة	هي جديرة بالاعجاب والعين تميز رهادة البشرة البيضاء
	الناصعة للمرأة ووضوح الشعر البراق عند
حركة	الهيمة وبعد ذلك لا يمكنك التمييز ، اذا اردت تثبيت الحدود .
	ان هيئة اليد اليسرى التي تلامس بها حبال القيثارة مريحة .

وكذلك هي الحال مع اليد الاخرى التي تبدو جيد جدا وكأنها تريد ان تقرع بها جزءا من الصنج الذي تمسكه بيدها اليمنى . والجزء الاخر الذي وضعه الرسام ثبعا لفكرة شريفة توخاها

بشكل مغاير فن الرسم (الكلمات الاربع الاخيرة مشطوبة) رائعة في اليد اليمنى للرجل الذي يعانقها عناقا شديدا ماذا تحت الابطال اليمنى لهذه المرأة يده اليسرى التي تعود فتخرج من تحت كتفها ثوب الشاب بنفسجي والثوب الذي يرفرف متدلّيا على كتف المرأة خصوصاً

الستورية أصفر : وتحسن أيضا ملاحظة التسمية والاساور وجر الزمام والتماسك الشديد القائم بين الستور والاله باخوس والهة الحب فينوس .

فقال جورج وهو يفكر : « اجل ، ليس هناك سوى حصان واحد استطاع ان يكتب هذا » ثم عاد فقال : « حسن ، حسن جدا ، فحول » فيما كان يفكر بكل هذه الكلمات المبهمة الجامعة التخطيطية التي كانت تثبت في اطاراتها الذهبية ذريتهم بنظرة تأملية متباعدة وكان من بين هذه الصور واحدة تتبوأ مكاناً مرموقاً هي تلك الصورة الشخصية التي تأملها مدة طفولته كلها ، بشي من عدم الارتياح والذعر . لانه (اي الاب البعيد) كان يحمل في جبينه حفرة حمراء ينضح منها الدم ويجري في احدود ملته طويل عند الصدغ ، متجهاً صوب منحى الحد ، متقطراً على بطانة بدلة الصيد الزرقاء الملكية ، كما لو ان احداً ، وذلك لابرار الاسطورة الغامضة التي كانت تكتنف ذلك الشخص وتخليدها ، اذن كما لو ان احدا رسمه بصورة مزرعة بالدم بعد اطلاق الرصاصة عليه ، رصاصة أودت بحياته . كان واقفا هناك غير هباب ، عزوما كالحصان ، لائقا في وسط هالة من الاسرار والموت العنيف (كغيره من النبلاء الاذكياء وجزالات الامبراطورية المحققين والمتزينين وزوجاتهم اللباسات اشربة سوداء) والخطرة والطموح والمجد الزائل او الترهات . كان ان صح القول ، قد اخبر جورج ، قبل ان يسمع من سابين بمدة طويلة (ربما كانت هذه مدفوعة بالرغبة الغامضة نفسها التي كانت تجعلها تشير بوضوح الى سقوط الشخص الذي كان يفادها ، اعني انها كانت تدفعها عواطف متضاربة ، وربما انها لم تكن تعرف هي ايضا ما اذا كانت بسردها هذه القصص المفصحة او الفاضحة او المأساوية ، تنوخي الخط من قيمة هذا النيل وهذا اللقب الذي لم ترثه ، او انها تنوخي ايلاءهما المزيد من الاشعاع ، لكي تزداد كبرياء وخيلاء ، مستندة الى القرابة والصيت) كيف نبذ

دي ريكسك لنفسه لقبه النبيل ليلة الرابع من آب ، ان صح التعبير ، وكيف به يحتل بعد ذلك مقعدا في الجمعية التأسيسية ، وصوت على حكم الاعدام بحق الملك وكيف اصبح ، فيما بعد ، نظرا لمعارفه العسكرية ، مستشارا في الجيش ثم بعدها لقي مصرعه بأيدي الاسبان ، ثم بعد ان تنصل عن لقبه مرة ثانية ، جاء لكي يموت برصاصة هشمت دماغه ، اطلقت من مسدس (وليس من بندقية وان بدلة الصيد التي يرتديها في الصورة والسلاح الذي كان يحمله بدون اكرات في عمق ذراعه ذكره بأيام طفولته ، وكذلك الاثر الدموي الذي كان ينزل في الصورة الشخصية على جبينه لم يكن بالحقيقة سوى المحاولات الاستعدادية للوحة القهوائية الحمراء التي ، ولما تكتمل حدث فيها شق كبير) . ثم انتصب واقفا بالقرب من مدخنة الغرفة التي اصبحت الان غرفة سابين ، حيث لم يتمكن جورج ، خلال فترة طويلة ، من ان يبحث غريزيا في الحائط وفي السطح عن اثر بندقية الرصاص الضخمة التي اطاحت يوما بنصف رأسه .

واذ كانت عائلة دي ريكسك تعطي لنفسها هذه الصورة العريقة ، خلال الثروة القاتلة التي هي ديدن النساء ، وبدون ان يحتاج جورج الى ملاقاتها ، فأنها اي عائلة دي ريكسك ثم دي ريكسك نفسه منفردا وخلفه زمرة اجداده تدافع وتراص كأني بها اشباح تحيق بها الاساطير وحكايات الليل وطلقات المسدسات والسندات الموثقة وصليل السلاح التي (اي الاشباح) كانت تماذج وتتصارع في اعماق اللوحات المتشققة القديمة المزفة القائمة ثم ان دي ريكسك وقربته تلك الشابة التي تصغره بعشرين سنة تلك التي كان قد تزوجها قبل اربع سنوات وسط شائعات وهمسات دارت حول فضيحة ، ذلك الزواج والناس تخشي الشاي مثيرة انفجار غضب واستياء دفين وحسدا وشبقا ، شائعات لا بد ان تصاحب احداثا كهذه : كانا اذن (الرجل ناضج جاف ومستقيم الهيئة - بل أنه صلب - لا يمكن النفاذ اليه والمرأة الشابة البالغة من العمر ثماني عشرة سنة كنا

نستطيع رؤيتها في هيئتها الشفافة البعيدة عن الحياة، مع تسريحة شعرها وجسمها وبشرتها التي كانت تبدو مصنوعة من مواد مماثلة ثينة غير واقعية تقريبا، لا يمكن لمسها تقريبا ايضا كالمواد الحريرية والعطور التي تغطيها. اما هو فقد كان مرتدبا معطف فارس احمر (كانت قد حصلت له على استقالة من الجيش) في اثناء استعراض السنوي للخيول او عندما كانا يجتازان، لا يصلهما احد وهما داخل السيارة الضخمة السوداء بفخامة ومهابة السيارة الجنازة تقريبا (وكما قد اجبرته على التخلي عن الجيش فانها اجبرته ايضا على شراء هذه السيارة، عوضا عن السيارة الاعتيادية التي كانت تستعملها حتى ذلك الحين) كانا اذن او اقل كانت هي وحدها داخل هذه السيارة تسوقها لانه قدما لها هدية (ولكن هذه الحالة لم تدم وانما ازعجتها دون شك بسرعة) كانا محاطين، بهالة وهما في الحقيقة من المناعة وعدم الواقعية بحيث انها كانا يندرجان وهما على قيد الحياة (او في الاقل يندرج هو وحده) في مجموعة الالباء الاسطوريين الذين تجمدوا الى الابد داخل اطار المذهب الكامد) كانا إذن محاطين بهالة...

فقال بلوم: «ولكنك لامعرفة لك بها البتة ! . قلت لي انها ليسا هنا ابدا وانما في باريس او في دوفيل او في مدينة كان وانك رأيتها مجرد مرة واحدة، او بالاحرى لحتها كعجز حصان، او كأحد الاشخاص الذين يرتدون ازياء ممثلي اوبريت مدينة فينا، عليهم سترّة وقبعة رمادية وناظور صغير مثبت في العين وشارب يشبه شارب جنرال طاعن في السن... ترى هل هذا كل ما رأيته منها؟ انت؟...»

كان رأس بلوم ايضا اشبه برأس غريق لم يصح جيدا بعد، ولم يتعش لذا فقد سكت هازا كتفيه. كان المطر قد اخذ يسقط او بالاحرى كانت البلاد والطريق والمروج قد عادت تذوب صامتا هادئة متحللة منصهرة، لتصبح رذاذ يتطاير بدون ان يحدث صوتا. كانت الأشجار والمساكن اشبه بصفيحة من

بلور. اما الان فقد كان جورج وبلوم واقفين على عتبة مستودع الحصيد تحت مخبأ الحائط وهما ينظران الى دي ريكسك مستسلماً لمشجرة مع رهط من الرجال كانوا يكثرّون من الحركات ويحتدون ويتجابهون، فيما كانت اصواتهم تتأرجح وكأنهم جوق مرتلين متنافر الاصوات مضطرب، يطلقون صيحات كصيحات اهل برج بابل، وكانت صورة كلامهم الساخرة مع خبث الأشياء التي صنعها الانسان واستعبدها لنفسه وانقلبت ضده وراحت، غير هيابة، تنتقم منه بغدر وقوة، كأنني بها تؤدي المهمة التي اوكلت اليها، وهي ان تقبّ حاجزا امام كل اتصال وكل تفاهم.

وبدأت الاصوات حينئذ تتصاعد، كأن سلم الاصوات بات عاجزا، اذ لم يبق لها (اي الاصوات) امل سوى في قوتها، حتى تحولت الى صراخات يحاول صراخ ان يتغلب على صراخ وان يطغى عليه...

ثم اختفت فجأة كلها معا، تاركة المجال لواحد منها اقواها واعلاها. ثم ان هذا ايضا كف فاصبح بالامكان سماع صوت دي ريكسك وحيدا، وكأنه حسيس يخرج ببطء وتؤادة، بينما كان وجهه الشاحب (لان الغضب او بالاحرى الانزعاج او مجرد الضجر كان ينعكس على صوته المحايد الخافت العديم النغمة بانخفاض النبرة، ان صح القول، او في تغيير سلبي نوعا ما لان جلده الكامد كان مايزال شاحبا- اللهم الا اذا لم يكن الشحوب والصوت الخافت سوى مجرد ملل رغم وقوفه دائما مستقيما صلبا، وهو محتذ جزمته البراقة التي لم يكن انجليزيا بعد قد استطاع صبغها ذلك الصباح جزمة كان عليه ان يصبغها بنفسه، بعناية بالغة ويجرأ موليا عمله هذا العناية نفسها التي يوليها خلق لحيته وتنظيف ملابسه بالفرشاة وعقد ربطة عنقه، وكأنه نسي انه في قرية ضائعة من منطقة اردن، وكأنه نسي انه في حرب، وكأنه هو ايضا لم يقض الليل كله على حصانه تحت المطر وجهه الشاحب اذن وجهه الذي لم يتورد بالانعاش ولا بالبرد وجهه الذي

يتناقض مع الوجه الشديد الاحمرار الضارب الى البنفسجي ، اي وجه الرجل الاسمر القصير الذي كان واقفا امامه على عتبة الدار وهو معتمر خوذة مقدمتها من الجلد ، ومحتد جزمة من مطاط مرقعة ، ملوحا ببندقية صيد خطيرة .

وعندما خطا خطوة وتقدم مبتعدا عن الباب لاحظ جورج وبلوم انه يعرج فقال جورج : « ولكني رأيتها فترة كانت تكفي لان أعرف انها كانت بيضاء كالحليب . كان ذلك المصباح كافيا . نيا لك . كانت بيضاء كالحليب تماما او كالقشدة المهرقة... » فقال له بلوم : « ماذا؟ » فاجاب جورج « ولكنك ، وبحك لم تكن صريعا لكي لاتلمحها ، أليس كذلك؟ حتى ان الميت ... كان المرء يشناق ويهفولان يزحف وان يلحس... » حينئذ صرخ الرجل الاسمر القصير قائلاً : « لو تقدمت خطوة واحدة لتزلت ! فتدخل دي ريكسك قائلاً : « هيا . هيا رويدك » فقال الرجل يانقيبي : « لو تقدم خطوة فسوف انزله للاحالة » . فقال دي ريكسك ثانية : « هيا » . تقدم خطوة . فوقف بين الرجلين ، وأحدهم هو ذلك الذي يحمل البندقية والاخر كان نائب ضابط يشبه شبها قريبا جدا صاحب المزرعة بل هو نسخة مطابقة له ، كان يحتذي هو ايضا جزمة سوداء من مطاط تكسوها رقعة صغيرة ، ولم يكن لباساً بزة زرقاء ولكن بدلة رمادية لاشكل لها معها شيء يشبه ربطة عنق تشد قيصه ، وعلى رأسه قبعة من لباد لين ، بدلا من خوذة ، قريب الشبه في ذلك لرجل المدينة ، ويحمل بيده مظلة او كان يشبه فلاحا ايضا ولكن يختلف عنه بعض الشيء . وفي وقت مارتفع عينيه بسرعة ، فرأى جورج ايضا ما كان ينظر اليه هو فوق رأس النقيب . ولكن ربما لم ينظر بسرعة كافية لانه لم يستطع ان يرى خلال احدى نوافذ الطابق الاول من البيت ، الستار الذي كان ينزل ، ستارا كأنه شبكة ، رخيص الثمن كالستر التي تباع في المعارض ، ستارا مرسوما عليه شكل طاووس بذيله الطويل الذي يكنس الارض ، داخل اطار بشكل معين جانبا المائتان يشبهان درجات سلم يبلغ عددها عدد زردات

الشبكة. واذ تحرك ذيل الطاووس مرة او مرتين تجمد بعد ذلك بينما كانت الجلبة قد عادت فوق (ولكن جورج لم يعد ينظر واكتفى بأن يرصد بينهم، الشبكة البيضاء المائلة الى الرمادي، الجامدة حيث كان الطاووس الزخرفي المختال واقفاً وراء الرذاذ المتساقط خارجاً صامتاً صبوراً ابدياً) تتعالى متنافرة فوضوية شديدة غير متماسكة حماسية: «...سوف انزله لاحالة. ادخل يانقبي ان شئت انت ولكن هذا الرجل لن يمر من هذا الباب والا انزلته أنا- هيا يا صديقي».

ان السيد المساعد يريد مجرد التأكد من ان هذه الغرفة - ثم قبل كل شيء لم لا يؤويهم في بيته لأن بيتاً كبيراً فيه غرف كثيرة فارغة يـ... انظر لست اقدر على الدخول في مثل هذه الاعتبارات، بامكاني ان اقود بنفسي نواب ضباطك الى الغرفة. انا لا افرض ايواءهم ولكن هناك في القرية اناساً لديهم ثلاث غرف او اربع فارغة لذا فاني اود ان اعرف لماذا هويـ... وانت كف عن المزاح والا لا انزلك هل تسمع. لا تبرح مكانك. افلا تسمع ايها الـ... وفيما كان احدهم يتنكب سلاحه ويصوبه انسل الآخر وراء نائبي الضابط وحتى في تلك اللحظة لم يتحرك الطاووس كما يتحرك اي شيء اخر. فقد كانت واجهة الدار شبه ميتة. وكل الدار شبه ميتة الا تنهداً منتظلاً رتيباً مأساوياً كان يتصاعد من الداخل وقد كان بالتأكيد تنهداً صاعداً من حلق امرأة ولكن ليس منها بل من كورين. ولكنه كان يتعالى من صدر امرأة عجوز ورغم انهم لم يروها استطاعوا ان يتصوروها جالسة على مقعد عمياء سوداء جامدة. تنحسر مرجحة جسمها تارة الى الورا وطورا الى الامام.

كان يبذل كل ما في وسعه لكي لا يرفع الصوت. او ربما لم يكن له ان يبذل جهداً بل واقفاً في الخارج بعيداً كمعاداته (لا متعالياً اذ لم يكن عنده ذرة من الكبرياء والاحتقار بل مجرد بعيداً بالاحرى غائب) وهو يقول: «دعك من هذا السلاح لانه باستعمال امثاله تحدث الحماقات» فرد عليه الرجل: «آية

حماقات ؟ هل تسمي هذه حماقات ؟ امرأة نذلة تريد اغتنام فرصة غياب زوجها لتدخل في وضوح النهار في بيت ، هوب . . . » فزجر وقال : « هيا ولّوا من هنا . » فأجاب الآخر : « سيدي النقيب ! انت تشهد انه . . . » - فقال دي ريكساك : « هيا بنا . هيا . انتم كلكم شهود انه . . . » فقال دي ريكساك : « بما انه يقول صراحة انه يتطوع لايوائهم جميعا » .

ولكن دون جدوى انتظر جورج لحظة طويلة لانه لم يظهر من النافذة ماخلا الطاووس . وقد ظهر بشكله الابيض الرمادي ، جامدا بينا كان صوت المرأة العجوز ينبعث دون انقطاع من الداخل رغم ان الباب كان موصداً . كانت تسترسل في اطلاق اناتها المنتظمة الرتبية بصوت عارم لا ينقطع ، مثل نأحات العصور الخوالي ، كما لو ان كل هذا (هذه الصراخات وهذا العنف وانفجار الغضب هذا الذي لا يفهمه احد ولا تمكنه السيطرة عليه وهذا الهوس) لم يكن يحدث في عصر البنادق والجزم المطاطية والرقع الجلدية والبذلات الجاهزة ، وانما في عمق الماضي ، او في عمق التاريخ السحيق ، او خارجا عن الزمن ، او في كل الازمنة ، بينا كان المطر يهطل باستمرار ، وربما كان يهطل منذ الازل ، فيما كانت اشجار الجوز في البستان تنقطر الى مالا نهاية : لكي يراها المرء ، كان عليه ان ينظر اليها امام شيء غامق اللون ، او امام ظل او حافة سطح ، بينا كانت قطرات المطر السريعة تمحو اخاديد لا تكاد ترى ، وكأنها خطوط ضعيفة ، كانت هذه القطرات تتشابك رمادية اللون ، كانت الكبيرة منها تلوي ورقة عشب تنتصب فوراً بعد هزة قصيرة ، بينا كان المسرج جامدا ، ولكنه يرتعش بين مكان وآخر ارتعاشة خفيفة : كانت الدور ومستودعات الحصيد تحدد معالم الجهات الثلاث تحديدا غامضا بمستطيل غير منتظم ، حول مسق او معلف حجري او في الماء المتجمد . كان جورج يحاول ان يفسل بعض الملابس ، فيما كانت يداه متجمدتين متخدرتين ، وهو يفرك الصابون بحافة الحاشية المبقعة ،

حيث كان القماش المبلل يلتصق ويتلون بالوسخ الرمادي الشبيه بالسماء الرمادية ، مع جيوب هوائية محاصرة من تحت ، وهي ترسم التجاعيد والخطوط والبروزات بلون رمادي افتح . وعند امراره الصابون عليها كانت تنكسر لتصبح طبقات متوازية وغيا متعرجا . غيا مائلا الى الزرقة ينتشر في الماء . وعندما غسلها بالماء ، اخذت فقاعات زرقاء تتدافع وتتلاحم وتتوالد ببطء . شاقة لنفسها طريقا ملتوية منزلة عبر الطين الاسود الذي اشبعته الحيوانات دوسا ، حيث كان الماء يجري من اثر حافرات اخر ، ولكن الملابس خرجت في النهاية رمادية تقريبا مثلما كانت قبل الغسيل فقال بلوم : «لم تطلب منها ان تغسلها لك ؟ خشيت ان يطلق عليك زوجها الرصاص بينديته ؟» - فاجاب واك : «لست اخشى زوجها مطلقا» ثم لزم الصمت وكأني به ندم على ما قاله . فاطرق ثانية وحنأ وجهه الشبيه بوجه فلاح الزاسي ، صامتا ، معاديا ، نحو السطل الذي كان يفرك فوقه شكيمته وركابيه برمل رطب فقال له جورج : «وما ادراك بذلك ؟» «اما واك ، فكان يلمع معادن مطيته ولم ينبس ببنت شفه فكرر جورج عليه السؤال : «وما ادراك بذلك ؟ وما الذي تعرفه عن ذلك ؟» ولكن واك لم يحرك رأسه ، فيما كان وجهه ينظر الى الاسفل ، الى السطل ، وفي النهاية قال ممتعضا حانقا : «اعرف ذلك » فضحك مارتن قائلا : «لقد ساعدتهم قبل قليل في نقل البطاطا الى الداخل . الخادم هو الذي قال له ذلك :»ان هو الا اخو . « فقال بلوم «ولكن اين الزوج ؟ هل يتسكع في المدينة ؟» بعد ان عاد واك من احدى الغرف قال : « امثالك يتسكعون ايها الاحمق ، وخوذته على رأسه . « فقال بلوم : لقد نسيت ان تسميني بالقنذر . لا لست احمق ، انا بلوم . كان الاجدر بك ان تذكر هذا فقال جورج : «هيا» فاجاب بلوم : دعك من هذا . اه لو عرفت كم احتقر هذا فقال جورج : «اذن الامر على هذه الشاكلة . فقد ساعدتهم على ادخال البطاطا والخادم هو الذي روى لك القصة ؟ وكان صوتهم ينطلق من

الغرفة ليخترق المطر الرمادي الذي لم يكف عن المطول صابرا (وكأنه ملايين الحشرات التي لا ترى وهي تقضم وتلتهم البيوت والأشجار والأرض كلها جميعا) بينما كانت الشكائم والركب ترن أحيانا رنينا قويا : كانوا مجرد جنود تتصاعد أصواتهم الخافتة الرتيبة الواحد تلو الآخر ، متصادمة متلاحقة متجابهة ، ولكن كما يدور الحديث بين الجنود ، أعني كما ينامون ويأكلون صابرين منفعلين ستمين ، وكأنني بهم مرغمون على اختلاقي أسباب للخصام أو أسباب للكلام . كان مستودع الحصيد لا يزال يبعث رائحة « الشرشف » المبلل بالشوفان . وكأنما حين يفغرون أفواههم كان يهب منها ضباب رمادي يتلاشى بعد ذلك فوراً .
- ولكن لماذا كان يريد بكل قواه أن يطلق الرصاص ؟

ربما لأنها الحرب والكل ...

- هل أنت جاد ، الكل ..

: ولكنه اعرج وقد رفضته الجندية .

- شجاعة فائقة . لست أعلم ماذا أعطي لكي أكون أنا أيضا كذلك ولا ...
: لا شك أن هذه ليست طريقة تفكيره . فهو يبدو وكأنه يحب البنادق ويرغب في استعمالها . وربما هو مستعد لأن يعطي كل شيء لكي
- والآخر ؟

: تريد أن تقول نائب رئيس البلدية ؟

- لا تحاول إقناعي أن في قرية كهذه لا تتكون من سوى أربعة بيوت رئيس بلدية

ومساعد رئيس البلدية - ولم لا تقول اسقفا أيضا ؟

- لم أجد كنيسة

- نستدل من هذا أنها لا تستطيع الذهاب إلى الكنيسة لتعترف ...

- ربما ، قد

- لا كاهن ولا صيدلي ولا شبكة مياه . وهذا مما يجعل الأمور صعبة للغاية . وربما

كان هذا سبب مراقبته لها وعلى كتفه بندقية .

- ماهذه الحماقات التي تنطق بها ايها الوجد ؟

- ايه . فقد استيقظ واك . كنت اظنك اصم . كنت اتصور انك لاتريد ان تتكلم مع واحد قدر مثلي .

- قلما يهمني ذلك ايه . واذا لم يكن يهمني فبأمكنه ان يطلق علي اي اسم يـ

- ياالله . كف عن الهذر . واخيراماذا حل بهذا الجواد البجير ؟

فنظروا الى الجواد المنبطح على منكبه في عمق الاصطبل : كانوا قد القوا عليه غطاء ، ولم يكن يظهر منه سوى اطرافه الجامدة ، ورقبته الطويلة الهائلة ، كان يتدلى في نهايتها رأسه الذي لم يكن قد بقي فيه من القوة مايكفي لرفعه . لم يكن قد بقي فيه سوى العظام .

وقد كان ضخما مستعرضا . كان شعره مبللا واسنانه الطويلة صفراء ، كانت تكشف عنها شفتاه المنفرجتان . لم يكن قد بقي فيه علامة على الحياة الا في عينيه الكبيرتين ، الخزيتين وفي داخلهما ، على سطحهما البراق المتفخ ، كانوا يستطيعون ان يتمروا ويرى بعضهم بعضا ، بينا كانت اشباحهم مشوهة تختفي عند اطراف الباب ، وكأنها ضباب يميل الى الزرقة او كستار او كودقة كانت قد اخذت تتكون على القرنية لتحجب الرؤية عن نظره الزوبعية الحلوة الشاكبة الرطبة .

- جاء البيطري وشرطه بالموسى .

:انا اعرف مابه

- واك يعرف دائما كل شيء . انه

:ان مارتن هو الذي ينال بضربات من خوذته على رأسه عبر كل المراحل التي تقطعها ، فقدضربه كثيرا طوال الليل . واني رأيته يرتكب ذلك . واني لاراهنكم على انه قد كسر شيئا في جسمه .

- ليست هناك طريقة اخرى لمنعه من الكرذحة
: لو قرع في اذنيه بضع قرعات جرس فانه ل-
- بقرع الجرس لاتستطيع ان تمنع الحصان من العدو القصير لانك تفقده
صوابه .

: على اية حال لاتجوز معاملة الحيوان معاملة كهذه .
- كما انه لايجوز ان تعامل شخصا هذه المعاملة . ستون كيلومترا قطعها بدون ان
يتوقف عن النط ككرة . وهذا لما يجعل الحيوان او الانسان فاقد العقل تماما .
: بامكان المرء ان يفعل شيئا اخر بدلا من هذا الضرب المبرح بالخوذة . فقال
انجليزيا :

«انا لست فارس سباق ولكني خراط»
- بما انك على هذا القدر من الذكاء ، وانك تحب الجياد الرديئة الى هذا الحد
فلم لاتبادلان حصانيكما . ماعليك الا ان تمتطيه انت فهو لايبحت عن شيء
افضل من ان يجيله اليك . فهو ...

: ولكن ماذنب هذا الحيوان اذا عدا عدوا قصيرا .
- لاذنب له مطلقا ولاذنب للمارتن ايضا . كما ان الحالة لاتسره هو ايضا . وليس
لك سوى ان تقترح المبادلة .

: ليس لي ان اغير حصاني . انا امتطي الحصان الذي خصصت به . اما الحصان
الاخر فهو حصانه .

- صه ايها ال-.....

: يالك

- من الافضل لك ان تسكت

: لست صرصرا .

- ذلك -خير لك .

:الا تصور انك قد تخيفني؟ ربما لا املك علما مماثلا لعلمك ولكنك لا تخيفني .
يكفيني ان ادفعك لكي تقع .
- حاول اذن .

:يا لك من ضعيف . حتى انك لا تستطيع ان تقف على قائمتيك . انت نصف ميت . لعلك تحاول ان تنقطع

وواصلوا المشاجرة ، بينما كانت اصواتهم بعيدة عن الفظاظة ، بل فيها بالاحرى شيء من المرارة يشوبها نوع من الخمول الخاص بالفلاحين والجنود ، او قل هي اصوات لاشخصية تشبه بزتهم الصلبة فيما هم يحتفظون (لم يكد الخريف قد حل بعد ، الخريف الذي عقب صيف السلام الاخير ، الصيف الباهر والفساد معا الذي كان يخجل اليهم انهم يرونه انذاك بعيدا كواحد من الافلام الاخبارية رديئة الاخراج التي بليت من الاستعمال ، حيث كانت الاشباح ، وسط ضياء يذيب كل شيء ، محزومة ومحتدية ، تتحرك بطريقة منتظمة ، كما لو كانت عارية . لم تكن تتحرك بتوجيه من ادمعتها الفظة الحسنة الغبية ولكن بتوجيه آلي يتعذر ايقافه كان يجبرها على التحرك والدوران والتهديد والاستعراض ، كالجنانين يدفعهم فوران يعمي البصر ، تتعالى فيه البيارق والوجوه ، فكأنني به هو الذي يولدها ويسيرها ، كما لو ان الحشود تملك شبه موهبة او غريزة لا تخطئ تجعلها تميز في باطنها وتدفع الى الامام بحركة هي حركة الانتقاء الذاتي - او الطرد او بالاحرى الافراغ بالمعنى الطبي - الغبي الخالد الذي سوف يلوح باللافتة والذي سوف تتبعه في ذلك الانخطاف الصوفي والانبهار حيث تطمسها كالاولاد رؤية برازها) . كانت بزتهم تحتفظ اذن بمظهرها الجديد ، البزة التي اتخذوها فراء لهم ، ان صح القول : لا اقصدها الهدمة القديمة التي بليت ورثت من جراء التدريب ، الهدمة التي لبستها عدة مواليد وعقمت بالدواء الرشاش فلا تصلح لسوى حمل السلاح ، وكأنها زي تنكري مهترئ مستأجرا ومشتري بالتقسيط من بائع البسة

مستعملة ، هدمة توزع على الممثلين الصامتين لكي يرتدوها خلال فترة التدريب ، مع السيوف البيضاء ، مع مسدسات عملاء ولكنها (القيافة والتجهيزات التي كانوا يحملونها على ظهورهم) هدمة جديدة تماما لم يمسهما احد ، وكل هذه الكسوة (قشاشا كانت اوجلدا او حديد) من النوعية الممتازة ، كالشراشف التي لم تلوث ، الشراشف التي تحتفظ بها العوائل بحرص بالغ لكي تكفن بها موتاهم ، كما لو أن المجتمع (او الوضع الراهن او النصيب او الحالة الاقتصادية- بما انه يبدو وان امورا كهذه هي مجرد وليدة القوانين الاقتصادية) الذي كان يتأهب لقتلهم كان قد غطاهم (شأنهم في ذلك شأن الشباب الذين كانت الاقوام البدائية تقدمهم ضحايا لالهتها) بأفضل مالدیه من اقشمة واسلحة ، صارفا بسخاء وفخفخة بربرية اموالا طائلة على اشياء لن تكون يوماً سوى اشلاء حديدية متصدئة ومعوجة ، او يضع مزق هائلة تطفو على هياكل عظمية (حية او ميتة).

وفيا كان جورج منبطحاً في ظلام قطار الحيوانات الدامس النتن كان يفكر: «ولكن هل بلغ الامر بنا الى ...؟ انها حكاية عظام معدودة...» واذ واصل التفكير: «آه. لقد ادركت الحقيقة: فقد رققوا اقطاع اشجاري لكي يخطوا المرور في الطريق... وعلى اية حال شيء من هذا القبيل». حاول ان يطلق ساقه من جسمه الذي كان يثقل عليها. لم يعد يحس بها الا كشيء لاهرك فيه ، كشيء بات غريبا عن جسمه ، ولكنه مع هذا لا يزال عالقا داخل وركه مؤلماً كمنقار من عظم. انها سلسلة من عظام مترابطة متداخلة تداخلا غريباً في ما بينها ، او سلسلة من المواعين تطفلق وتصر.

كان الهيكل العظمي حسب تفكيره ماوصفناه قبل قليل. ولكنه استيقظ (ربما لان القطار قد توقف - ولكن كم من الوقت مضى على توقفه؟) وكان

يسمعهم يتدافعون ويتشاجرون في الزاوية الواقعة تحت الكوة، تلك الزاوية المستطيلة الشكل الافقية التي كانت جاحمهم تتناطح عليها، وكأنها أخيلة الظل: كانت بقع الحبر السائلة المتحركة تتمازج مع بعضها ثم تتفارق، وكان يرى خلالها جزئيات من السماء الليلية التي لايعترها تغيير في أيار، فيما كانت النجوم البعيدة الثابتة راكدة لا تبرح مكانها، باكرة كالعدارى، تترأى تارة وتتوارى طورا، في الفجوات التي كانت تنفتح وتنغلق بين الرؤوس، وكأنها سطح جامد بلوري حصين، كانت تنزل عليها بدون ان تترك أثرا او لونة تلك المادة المائلة الى السواد اللزجة الصارخة الرطبة التي كانت تنبعث منها اصوات بانث شاكية غضبي، أعني بها انها أخذت تتخاصم الان بشأن أمور حقيقية مهمة كالهواء مثلا (فالذين كانوا في الداخل كانوا يكيلون الشتائم للذين كانت رؤوسهم تحجب الكوة) او الماء فالذين كانوا عند الكوة كانوا يحاولون التماس رجال الدورية الكاثنين في الخارج ان يذهبوا ليجلبوا لهم الماء بالبراميل) وأخيرا كف جورج عن انتزاع مايسمى ساقه وتحريرها من القوضى الجهنمية التي كانت فيها هذه الاعضاء التي كانت تدوس بكل ثقلها عليها. فبقي هناك زاحفا في الظلام محاولا ملء رثتيه بهواء الثخين الملوث الذي لم يكن يبدو وكأنه ينقل رائحة او نثانة الاجسام الخناقة، انما كان ينتن ويعرق هو ايضا. لم يكن الهواء شفافا، ولايقع تحت حاسة اللمس كعادته، ولكن سميكاً اسود، حتى انه كان يجيل اليه انه يستنشق شيئا يشبه الحبر، ولكنه في الواقع لم يكن سوى المادة نفسها التي اشتقت منها البقع المتحركة على اطار الكوة البقع التي كان عليه ان يحاول الامتلاء منها (وهي الرؤوس وجزئيات السماء الصغيرة) املا ان يستفيد في آن واحد من احد الرفوف المعدنية التي كانت تتوغل فيها، كضربات سيف سريعة براقة خلاصية تنطلق من النجوم ثم يعاود الكرة. حتى كأن كل ماكان يستطيع عمله هو الاستسلام لوظيفة ورق الترشيح هذه، ان صح التعبير - وفكر قليلا: «على اية حال، لقد قرأت في

مكان ما ان السجناء شربوا بولهم...» وبقي بلا حراك في الظلام، يشعر براحة العرق الأسود وهو يتغلغل في الرثتين ثم في الوقت نفسه كان يسيل فوق جسمه، بينما كان يتصور انه يرى جسمه الجامد كجسم تمثال عرض الازياء، غير هباب كأنه جلد وعظم، يتقدم مترنحا لا يكاد يلمحه احد (اعني ان الوركين كانا يقومان بحركات تحاكي حركات الحصان وأعلى الجسم - الكتفان والرأس - مستقيم وثابت، كما لو انزلق افقيا على سلك حديدي) أمام اعماق الحرب المتوهجة بينما كانت الشمس الساطعة تقذف بشعاعها على زجاج النوافذ المتكسر، فتولد الآف الاشعاعات المستطيلة الشكل الباهرة، تنبسط كالسجاد على الشارع الطويل المقفر الذي كان يلتوي ببطء، بين واجهات بيوت الأجر المتكسرة النوافذ والحالية، في بحر الصمت الباهر الذي قاطعه اطلاق المدفعين الوحيدين المتتالي. وقد كان ضجيج الانطلاق (في مكان ما ذات اليمن داخل البساتين) والوصول (كانت الشحنة تقع عشوائية فوق المدينة المهجورة المائتة حيث كان يسقط ماتبقى من حائط متداع في غيمة من غبار وسخ، كان يسقط متاقلا على الارض) يتناوب بانتظام وحشي لاجدوى من ورائه ولافحوى له، بينما كان الفرسان الاربعة يواصلون تقدمهم (او الاخرى كان يبدو عليهم وكأنهم جامدون، كما في احدى الحيل السينمائية التي لانرى فيها سوى الجزء الاعلى من الاشخاص وهم في الواقع واقفون على مسافة واحدة من الكاميرا، فيما كان الشارع الطويل الملتوي امامهم - احدى جهتيه مشمسة والاخرى في الظل، يبدو وكأنه قادم او انه يتوسع لاستقبالهم، كأحد الزخارف التي يستطيع المرء ضبعها وتشذيبها، ماتبقى (على ما يبدو) من الحائط المتداعي نفسه انهار عدة مرات، وكانت غيمة الغبار المتكونة على اثر الانفجار تتقارب وتتفخ وتتضخم مدركة ارتفاع الحائط المتبقى ومتجاوزة اياه، فيما كانت الشمس تضرب بشعاعها قبة الغيمة الغبارية التي اخذت تعتمر خوذة صفراء انتفخت وتصاعدت الى الاعالي، حتى تلاشت

الغيمة كلها تماما على يسار الفارس الاخير، فيما كانت واجهة دار تترنح هناك، في الوقت نفسه، في جزء الشارع الذي كشفتته واجهات اليمين، حيث أخذ عمود الغبار والانقاض الجديد يحوم (وقد ظهر وهو يفتح ويتضخم قليلاً مثل كرة الثلج، ولكنه كان يغترف مادته من احشائه نفسها، على خلاف كرة الثلج، بحركة وثيدة حلزونية منتشرة متدافعة متراصفة) متزايدة الحجم كلما تقترب - او يقترب منها الفرسان الاربعة-، وهكذا دواليك) فأخذ يفكر: «ولكن حتى لو سقط ضعف هذا الوابل من القصف، لما تنازل وجعل هذا الحصان يعدو. ربما لان مثل هذا الامر لايفعله احد. او لانه سبق ان اكتشف حلاً أمثل، او لأنه حل المشكلة حلاً نهائياً واتخذ قراره.

مثل ذلك الانسان - الحصان او ذلك الغبي المتكبر قبل مائة وخمسين عاماً، اذا استعان بمسدسه الخاص لكي... ولكنها مجرد كبرياء - ليس غير واذا كان يلهث لهاثاً ضعيفاً في الظلام، واصل يكيل الشتائم لها بصوت خافت: كان شخصه الاصم والاعمى والصلب يتقدم امامه مديراً له ظهره، متوغلاً في ادخنة خرائب الحرب.

وكان الآخر يظهر من وجهه، ولكن بدون حراك، مهيباً صلباً جامداً داخل اطاره الكامد، مثلما كان قد رآه طوال سني طفولته، مع فارق واحد هو ان البقعة التي كانت تنتشر عمودية متمزقة، ابتداء من الصدغ وتنزل الى الرقبة الناعمة، وكأنها رقبة امرأة، في جيب القميص، لكي تلتطخ سترة الصيد. لم تكن آنثى تحضير اللوحة الحمراء التي كشفها الصبغ المقشر، بل شيئاً معتماً حبيبياً يسيل ببطء، كما لو انهم احدثوا ثقباً في اللوحة وادخلوا من الخلف شيئاً يشبه المربى الشخين الداكن، فصار يتحرك ويسيل سيلاناً بطيئاً على سطح اللوحة الاملس، بينما كانت الحدود وردية. ناهيك عن الدنتلا والقطائف. فيما كان

الوجه الجامد الذي لا يهاب شيئا ولا يهاب احدا وكأنه وجه احد الشهداء المرسمين في اللوحات القديمة ، كان يواصل نظره المستقيم الى امام ، وعليه امارات التفاهة والاستغراب وعدم الايمان والعذوبة ، وكأنه وجه اولئك القوم الذين سقطوا صرعى بعد قتلة شنيعة ، وكأنني بهم تلقوا في اللحظة الاخيرة ايحاء بشي لم يخطر ببالهم قط ، وهم بعد على قيد الحياة ، ان يفكروا فيه ، اعني بدون شك ، شيئا يخالف تماما ما بإمكان الفكر أن يدركه ، شيئا عجبا عجابا ، شيئا ...

لكنه لم يكن ينوي ان يتفلسف ولا ان يبذل جهدا لكي يحاول ان يفكر بما لم يكن الفكر قادرا على ادراكه او تعلمه ، ذلك لان المشكلة كانت تكن في مجرد محاولة تحرير ساقه مما كان فوقها . ثم انه قبل ان يطلب منه ما اذا كان يعرف الوقت بالضبط ، سأل نفسه عن الساعة قبل ان يياشر الرد عليه . ولكن ما جدوى معرفة الوقت . هذا ما قاله في نفسه ، معتقدا ان الوقت على اية حال ، لا يفيدهما بشي لانها لن يخرجنا من هذا القطار الا بعد ان يكون قد قطع مسافة معينة ، وان مسألة تنظيم سير القطار لم تكن مسألة وقت بالنسبة اليهما ، ولكن مسألة تنظيمية هي من اختصاص السكة الحديد لا اكثر ولا اقل من قيامه عند عودته بنقل صناديق فارغة او مواد تالفة ، أشياء تأتي في زمن الحرب بعد كل الاولويات .

وفيا كان يشرح لبوم ان الزمن ليس سوى معلومة بسيطة تتيح لك ان تتوجه تبعا لوضع ظلك وليس وسيلة تمكنتك لان تعرف هل حان الوقت لأن تأكل او لأن تنام لأنه بقدر تعلق الامر بالنوم ، فأنهم كانوا قادرين على ان يناموا . اذ لم يكن لهم شيء آخر يفعلونه . على ان اطرافا عديدة غريبة متداخلة ومتراكمة لم تكن في الماضي تسحق احد أطرافك أو في الاقل ما كانت تتعارف عليه الناس بأنه طرفك على الرغم من كونه اصبح عديم الحس او نوعا ما منفصلا عنك ، اما

موعدا تناول الطعام فكان سهلا تجديده او الاخرى تقريره ، ليس لانك تشعر
 بالجوع ، كما يجري عادة عند الظهر او في الساعة السابعة مساء ، ولكن عندما
 يحل الوقت الحرج الذي لا يستطيع بعده العقل (وليس الجسم لان قدرة الجسم
 على تحمل الجوع اكبر) ان يتحمل ، دقيقة اكثر ، فكرة - او عذاب - امتلاك
 شيء يمكن اكله : اخذ يتلمس في الظلام اذن ، حتى نجح في ان يخرج من تحت
 رأسه (مما يدل على ان فكرة كسرة الخبز كانت نوعا ما تلازم عقله دوما) المزودة
 الرخوة التي كان ممسكا بها بحرص شديد ، فأخرج منها ، وكأنها بها رزمة محشوة
 بعبوة ناسفة ، شيئا شخصته اصابعه وهي تجسه (كان شيئا خشنا وهشا او شكلا
 يضيوا تقريبا ومسطحا جدا) بأنه الغرض الذي كانوا يفتشون عنه ، غرض اخذ
 على عاتقه مهمة تقويمه (دائما بواسطة اللمس) اصوب تقويم وتعيين شكله
 وابعاده ، الى ان اعتقد انه حصل على المعرفة الكافية التي تمكنه من المباشرة في
 كسره كسرتين متساويتين محاولاً ، (دائما كما لو تعلق الامر بشيء من قبيل
 الديناميت) ان يلتقط منها تدريجيا الكسر الغبارية الحجم التي كان يتوقع سقوطها
 على راحة يده وكأنها تدغدغ يده برفق دغدغة لا يكاد يشعر بها فيما كان يوزعها في
 النهاية بين يديه على حصتين متساويتين ، ولكنه لم يكن قادرا ، بعد فراغه من
 التوزيع على ان يمضي ابعد من ذلك اعني ان يتدرع بالشجاعة وحرمان النفس
 وعزتها ، لكي يعطي بلوم الكسرة التي كان يتصورها الكبرى وانما فضل ان يمد
 اليه في جنح الظلام يديه كليهما فيما بسط صاحبه احدى يديه للبحث عن
 الكسر . وبعد ذلك حاول ان ينسى باسرع وقت (اعني ان ينسى معدته التي في
 اللحظة التي وقع فيها اختيار بلوم على حصته ، وقع فيها التواء وهيجان ، وتشكك
 من الالم حتى لكان غضبا وحشيا ونواحا اصابا معدته) انه عرف ان اختيار بلوم
 وقع على الحصة المثلى (اعني بها انها لم تكن تزن اكثر من حصته بخمسة غرامات)
 فحاول اذن الا يفكر لاول وهلة الا بالکسر الناعمة التي كان يلقيها فـه من

راحته » وبعد ذلك بالعجينة الصمغية التي كان يلوكلها ابطاً لوك ممكن ،
محاو لا ، ايضا ان يتصور ان فله ومعدته هما فم بلوم ومعدته ، وكان بَصَرَ على ان
يفهم الاخير . ان الذنب كان ذنب الشمس التي اختفت في ذلك الحين ، وكان
يرى انه حتى لو لم تختفِ الشمس ، لم يكن ليأمل ان تتكلل عمليتها بالتوفيق
«لأنني كنت اعلم علم اليقين ان ذلك مستحيل ، ولا وجود لمخرج اخر وفي نهاية
الامر سوف يقبضون علينا ولكن كل هذا لم يكن يؤدي الى نتيجة على اننا
حاولنا وحاولت وواصلت حتى النهاية متظاهرا بها بالاعتقاد بأن العملية ستنتج
مكابرة غير يائسة لكنها ان صح التعبير من قبيل المراءاة ، مخادعا نفسي كما لو انني
كنت امل ان اجعل الناس تصدق ان ما كنت اعتقده ممكن بينا كنت اعلم علم
اليقين انه مستحيل ، فلقد كنت اتخبط وكنت ادور في حلقة مفرغة من الدروب
المنتشرة عبر تلك الأسبجة المتشابهة كلها خلف السياج الذي لقي عنده موته ،
حيث كنت قد لمحت في لحظة معينة ، يربقا اسود لسلاح يلمع قبل سقوطه
وانياره كتمثال انفصل عن قاعدته فال ذات اليمين . حينئذ قفلنا راجعين ،
وانطلقنا نعدو خبيا ونحن شبه مستلقين على متني جوادينا لكي نضيع على العدو
فرصة التصويب نحونا ، فيما كان يطلق النار علينا ونحن نسمع صوت الرصاص
الوضيع المميت الذي لاجدوى منه ينتشر في الريف المشمس الواسع وكان
الاطلاق صادرا من مسدسات كاذبة كالتي يلهو بها الصبيان . فقال
ايجليزيا : «لقد اصابني» ولكن واصلنا عدونا

فقلت له : «هل أنت متأكد وفي اي مكان ؟» فاجابني : «واصابني الوغد في
فخذي»

فقلت له : «هل تستطيع الاستمرار في العدو ؟» حينئذ ضعف الرشق ثم
انقطع كليا

وبدون ان يتوقف عن العدو ، والى جانبه يعدو حصان يمسكه بيده لم يتركه

لحظة واحدة امرّ اصابعه على فخذه الى الوراء ثم نظر اليها ، وكنت انا ايضا انظر ، واذا هي ملطخة بالدم قليلا .

فسألته : «هل تشكو: ألياً؟» لكنه لم يرد عليّ بل إستمرّ يمرر اصابعه على فخذه التي لم اكن قادرا على ان أراها . واذا كنا ننظر الى حصتنا كنا نعجب للحس الخاص الذي تتمتع به حيث انني لا اتذكر اني رأيت هذا الطريق قبلا اللهم الا اذا كان هو الطريق الذي كنا نبحت عنه . وبينما كانت تواصل عدوها مالت الحصن الثلاثة ذات اليمين ، كلها معا في آن واحد فصرخ ايجليزيا . فتزلوا من مطاياهم ولم يعودوا يسمعون شيئا سوى تغريد الطيور وشهيق الحصن العالي فقلت : «ما الامر اذن ؟» ثم عاد فنظر الى يده فتأوّد على سرجه ولكني لم اكن اقدر على ان ارى لان اصابعه كانت في فخذه الايمن ، ثم اتخذ هيئة الراكب الاعتيادي على صهوة جواده فكان شكله مهموما ناعسا أو بالاحرى اخبل ومستاء . فد يده الى جيبه ليستل منه منديلا وسخا فاذا بدم في المنديل وعندما اخرجته كانت هيئته لاتزال اشبه ببيئة اخبل سيّ المزاج . فقلت له : «هل الاصابة بليغة ؟» لكنه لم يرد عليّ بل هز كتفيه وأعاد المنديل الى جيبه وكان مظهره مظهر الخائب والحائق لكونه لم يخرج جرحا حقيقيا ولان الرصاصة خدشته فقط .

كانت ظلالنا الفروسية تمشي من شمالنا متخذة شكل السياج المنحوت بالكوس وبما ان الموسم كان ربيعا فأنها لم تكن حيث طاللت كثيرا وكأني بالريف ، في تلك الفترة حديقة تغمرها المياه . مائلك الشجيرات او الادغال او بالاحرى الصنوبرات المخروطية ؟ اعتقد انها حقول مزروعة بالخضر أو هي حدائق مصممة تصميا هندسيا على الطريقة الفرنسية ترتسم فيها منحنيات رائعة متداخلة او هي روضات او ملتقيات غرام الماركيزة المتكرين بزي الرعاة او الرعايات يبحث احدهما عن الاخر بحثا عشوائيا ، يبحثان عن الحب عن الموت المتكرر هو ايضا بزي الراعي في متاهة الدروب والشعاب.» ربما كان بإمكاننا ان نلقاه ، أو ربما

كان شاخصا هناك ، عند منعطف الدروب متكئا على سياج هادئ امين. جامدا اميناً في زيه زي الصيد المتكون من قطيفة زرقاء ، مع شعره المعفر بالغبار وبندقيته حول رقبته ، هناك حول ثقب في وسط جبهته وصدغه كانت تسيل منها بدون انقطاع ، مادة أشبه بصور القديسين أو تماثيلهم ، تلك الصور التي تشرع العيون فيها بالبكاء والجروح بالسيلان دما ، مرة او مرتين كل قرن ، بمناسبة الكوارث العظمى كالزلازل وكأمطار النيران ، أعني بها ذلك المرعى الاحمر القاني ، كما لو أن الحرب ، كما ان العنف والقتل قد ايقضاه وبعثاه ، ان صح التعبير ، لكي يقتلاه مرة ثانية ، وكما لو أن رصاصة المسدس التي أطلقت قبل ذلك بقرن ونصف استغرق مسارها كل هذه المدة من السنين لكي تصيب هدفها الثاني ولكي تضع الحد النهائي لكارثة جديدة ... »

وفما كان مايزال شبه محتقن ، في تلك الظلمات الخائفة ، خيل اليه انه يراه فعلا مرتحلا وغريب الاطوار في ذلك الريف الاخضر الشبيه بالآثم التي يلتقيها المرء احيانا وهي تتقدم وسط الحقول كحفلة تنكرية ماجنة يخيم عليها النفاق - كأبة حفلة تنكرية - لواطية بعض الشيء ، ربما لأنها (كالسيدة المسنة الوحيدة التي باكتشافها الحذاء العسكري الذي يتجاوز التنورة والشعر القاسي الذي بات يغطي وجنتيها ، تفهم بغتة وهي مذعورة عندما يقدم لها الحساء الذي اعدته الخادمة العجوز القاسية الوجه قليلا والتي استخدمتها عند الصباح ، انها في الحقيقة رجل ، فتدرك حيثئذ ادراكا يتعذر تغييره انها سوف تلقي مصرعها في الليل) لانك كنت تلاحظ فوق الطيات الناصعة ، حذاءي الكاهن الضخمين ورجلي الشماس الصغير الوسختين الذي كان يمشي مرتلا بصوته القبيح ، بدون ان يلتفت الى أي اتجاه ، اذ اوزر نظره الى اجامات التوت ، كان صليب النحاس العالمي المغروز في بوق حمالة السيف الجلدي التي كانت تتدلى الى اعلى «الخشلة»*

*الخشلة : وهي اصلا البيضة الفارغة (المترجم)

(بحيث انه يبدو ممسكا يديه بحركة صيانية غامضة فظة رمزا بريابيا - وبرياب هو اله الباه عند الذكور - فيما كان يتأرجح فوق حقول الجنطة كصاري مركب غارق شكل المسيح النحاسي وتطريزات بدلة القداس القضية ، وهي تحدث بريقا معدنيا قاسيا ، في الهواء البخاري ، حيث يبقى بعد ذلك بوقت طويل عطر جناثري يحترق بالدياميس والقباب .

اذن كان الموت يتقدم عبر الحقول ببدلته الثقيلة المصممة للحفلات الكبرى تطرزا التخاريم محتذا جزمة القتلة . اما هو (أي ريكساك الاخر ، ريكساك الجذ) كان ماثلا هناك ، وكأنه احد المشاهد المسرحية او احد الاشخاص الذين ينتفضون من حفرة اصطيدوا فيها على اثر ضربة عصا يقوم بها احد المهرجين خلف شاشة بطلقة مسدس مخصص لاحداث الدخان وكان انفجار قبلة او قذيفة ضائعة قد أخرجه من الارض التي كان مطمورا فيها ، او رمت به من ابعاد الماضي الغامض وسط غمامة قاتلة ننته ، ليست من الغبار في شيء وانما من البخور الذي ربما يميظ عنه اللثام بانتشاره لكي يظهر لابسا حلة لا تتفق مع التاريخ (بدلا من القبة المظلية الغبراء التي تكون على رأس الجنود القتلى) حلة ارستقراطية مهندمة ، حلة صياد القطا ، كان وقف وقفة من يستعد للتصوير ، حيث الزمن - الانحطاط - كان قد اصلح في وقت لاحق (وكانه مصلح دعوب أو بالأحرى حريص) مانسيه او الاخرى مالم يحسب الرسام حسابه اذ وضع (وبالطريقة نفسها التي أخذت بها الرصاصة ، اي بأزالة قطعة من الجبين بحيث انه لم يكن تصحيحا بالاضافة ، كما يحدثه رسام ثان كلف فيما بعد امر التصحيح ، ولكن ايضا باحداث ثقب في الوجه - او الطبقة اللونية التي كانت تحاكي ذلك الوجه - لكي يترأى واضحا ما كان تحتها) هناك بقعة حمراء دموية كطخعة كانت تبدو تكديبا مأساويا للاجزاء الاخرى من الصورة : او عذوبة - لابل وهنا - ، عيون الغزالة وهذه الملابس الرعوية المهمة المألوفة

وتلك البندقية التي هي ايضا كانت تشبه احد لوازم الرقص أو الدبك لأنه ، ربما لم تكن عدة الصياد الذكرية هذه - السلاح وحزام الجلد الاحمر الذي كان ينتظر الحيوانات الميتة وخليط من الفراء والريش المبقع شبيه برسوم الطبيعة الميتة التي تكسدها فيها الارانب والدراج والحجل - لم تكن هذه العدة هناك الا لكي تهيم له وقفة للتصوير على غرار الناس الذين يقفون لكي يتصوروا في ايامنا وسط المعارض فيدخلون رؤوسهم عبر الثقوب البيضوية التي تحل محل وجوه بعض الاشخاص كالطيارين الوهميين والمهرجين والراقصات وجوه رسمت على قماش بسيط . فنظر جورج مبهورا بعض الشيء الى اليد السمينة قليلا الانثوية والمرتبطة ، اليد التي كانت ابهامها قد ضغطت وهي في حيرة ليلة بعيدة ، على استراحة السلاح المسدد ضده (هي ايضا كان قد رآها وهي مصابة بالرصاص : احد المسدسين منقوشي الاسطوانة الراقدين رأسا لقدم في وسط عدة تسودها البلبلة فيها الاصباغ وعلب الرصاص واوعية البارود واللوازم الاخرى الموضوعة حسب اصنافها ، كل في مكانه شبيه بحفرة في شرشف اخضر ، كسطح البليارد اكله العث داخل علبة خشبية حمراء موضوعة فوق خزانة الصالون المفتوحة ابوابها على مصراعها ، أيام استقبال الضيوف والمغلقة في الايام الاخرى ، خشية الغبار ، واذا كانت يده تمسك السلاح الذي كان ثقيلًا على يديه الصغيرتين رفع ديك البندقية (ولكي يقوم بهذه الحركات ، كان عليه ان يستخدم كلاً من الاخمص المنحني المحصور بين ركبتيه وابهاميه مجتمعين ، للتغلب على المقاومة التي كان يلاقها من الصدا ومن النابض) واذا وضع اسطوانة البندقية الى جانب صدغه واذا ضغط ، كانت اصبعه المتشنجة قد ابيضت من كثرة الجهد المصروف ، حتى حدث الصوت اليابس الذي لا يحمل معنى (كانوا قد استعاضوا عن الصوت بقطعة خشبية مكسوة باللباد) الصوت الميت الصادر من ديك البندقية الذي مزق صمت الغرفة ، تلك الغرفة نفسها التي اصبح يسكن فيها

والداه - التي لم يطرأ عليها أي تغيير ماخلا - ربما ورق الجدران او ثلاثة او اربعة اشياء - آنية وأطر الصور الفوتغرافية الصباح الكهربائي - وضعت والأخرى اقحمت هناك ، بغية الاستفادة منها جديدة جدا كأنها خدم اضافيون يزهون بزيهم ويتألقون ولا يطيقهم احد حرس استخدمهم عن طريق مكتب الاستخدام ليؤدوا الخدمة لدى جمعية للشباح : فالاثاث اللامع نفسه كان هناك ، والرسوم الجدارية نفسها المدخنة نفسها المبنية بالرخام الابيض العروق التي اتكأ عليها ريكسك قبل ان يتطير عنه (على مايروم اي على ماترويه سابين كان القيل والقال من اختراع الناس . او انه القصة من تزويفها لكي تجعل المشهد اخاذا - كلما كانت تروى القصة) تلك المدخنة التي تصور جورج دي ريكسك غالبا جالسا عندها ورجلاه محتذيتان جزمة ملطخة بالطين ، يتعالى منها الدخان لجلوسه قرب النار وهو يعرضها امام الموقد مشكلا زاوية قائمة وكان احد كلابه عند قدميه ، ويده الصغيرة السمينة المدللة تبرز من كم احد قصانه المطرزة كبيرة الطيات تحمل هذه المرة شيئا ليس مسدسا ولكن (هو الذي لم يتلقَ تربية ولم يتعلم شيئا اخر سوى سياسة الخيل والاسلحة البريثة) ولكنه شيء خطر ايضا وقابل للانفجار (بمعنى انه طلقة المسدس لم تكن سوى النتيجة الحتمية لما كان ينوي فعله) :

كتبا ، ربما واحدا في المجلدات الثلاثة والعشرين التي كانت تشكل المؤلفات الكاملة تروسو ، حيث كان التوقيع (بالاحرف الاولى) نفسه على كل صفحة واقية ، توقيع يشبه الخط الكارولنجي المتسم بالكبرياء والاستثثار ، وهو يكتب بريشة اوز كان يتصور انه يسمع صريرها على الورق المحبب المصفر عبارة لاتتغير هي : هذا الكتاب - كان حرف الهاء مشوها ضخما كأنه ودعة عملاقة وتحت هذه العبارة عبارة اخرى هي : يعود اليّ غير مفرقة ، ثم تعقبها احرف تصغر شيئا فشيئا لتكوّن اسم هنري الملقوظ على الطريقة اللاتينية ثم تاريخ الاستنساخ :

واذا كان يتخيله ويراه وهو منكب من تلقاء نفسه على قراءة المجلدات الثرية الثلاثة والعشرين واحدا بعد آخر ، مع ما فيها من المبكي والعذري والغامض وهو يلتهم دروس الموسيقى الخفيفة المهمة ، دروس النغم والتربية والتفاهة وتدقق العبقرية ، تلك الثروة المحرقة التي كانت ديدن ذلك المتسول الذي يتدخل في كل شيء . ذلك الموسيقار الاستعراضي الكثير البكاء الذي قد يهمس في النهاية كلامه المشؤوم الجاف في اذن هذا الـ ... (واذا بصوت بلوم يعلو قائلا : حسن ! قد وجد اذن او الاصح انه وجد وسيلة عثر بها على ما يسمى بموت مشرف ، كان يردد ويفعل كما تقول انت طبقا للتقليد الجاري في عائلته ما كان قد فعله قبل خمسين عاما دي ريكساك اخر كانوا يسمونه حسب اعتقادي ريكساك فقط لانه كان قد اسقط حرف الجر دي بغية الحصول على المزيد من النيل والاقامة والظرافة ، هذا الحرف الذي ذهب احفاده بعده يبعثون عنه ويلصقونه باسم العائلة بعد ان اصفوا عليه لمعانا بواسطة جيش من الخدم والمرافقين يرتدون الزي الموحد ما كان قد فعله ريكساك آخر عندما انتحر باطلاق رصاصة على رأسه (اللهم الا اذا جاءته الطلقة عمياء وهو ينظف مسدسه ، وهذا أمر شائع الحدوث ، ولكن في حالة كهذه ، لا تبرز مشكلة او بالاقل لا تحدث مشكلة مثيرة بما فيه الكفاية لكي تطرق امك اذائك بها وآذان المدعويين ، فلنسلم اذن بأن المسألة كانت مسألة انتحار لانه ان صح القول ، كان قد جعل من نفسه زوجا مخدوعا : لأقصد هنا مخدوعا من كائن انثوي خبيث مثل حفيده البعيدة ولكنه ان صح القول مخدوعا من دماغه نفسه ، من افكاره - وان لم تكن له افكار فن افكار الآخرين - التي اوقعته في تلك المكيدة القذرة كما لو عند ، انعدام المرأة (ولكنك الم تقل لي ايضا ان مع كل هذا كانت هناك امرأة ...) اذن بالاحرى كما لو انه بسبب عدم ارتياحه لان يتحمل امرأة ، اضطرب

واشتبكت في رأسه الافكار والصور ، مما شكل له بالطبع ، هورب مزرعة من تارن ، خطراً اكبر من الزواج .. فقال جورج : «بالطبع . بالطبع . بالطبع . ولكن كيف السبيل الى المعرفة ؟ ...» وان يفكر في الوقت نفسه بهذا التفصيل او بهذا الامر الغريب ، سي لم يكن يحكى في نطاق العائلة الا عن طريق الهمس (اما سابين فكانت تقول انها لاتصدق .

ولاصحة له وان جدتها كانت قد اكدت لها دائماً ان القصة مجرد حكاية نيمية نشرها الخدم الضالعون . ركاب الاعداء السياسيين - كانت جدته تقول ان غير المتسرلين اعني بهم . بار الفرنسيين ، نظرا لئسيانهم انه كان الى جانبهم ، اعني انه لو انتشرت النائم حوله بشأن ظروف وفاته عن طريق التمامين فان هؤلاء الطلاب لا يمكن ان يكونوا الا من انصار الملكية - وهذا من شأنه ان يؤكد تأكيداً جزئياً في الاقل صحة اقواله : اعني ان مصدر هذه الشائعات يرقى في اغلب الظن ، الى فريق الخدم ، وذلك بفعل القانون الذي يقضي بان يكون الناس المرتبطون بأناس اخرين بوشائج الخدمة اقوى الانصار - وذلك كتبرير لحالتهم - لمجتمع هرمي التكوين ، بحيث انه لو كان انصار العهد الملكي المباد - كما كان فعلاً شديد الاحتمال قد فتشوا عن حلفاء ضد ريكسكاف فقد وجدوا بدون شك افضلهم بين خدمه ، أي خدام ريكسكاف ذلك الظرف صحيحاً كان أو خاطئاً ، كان يضني على القصة مسحة غامضة هائكة لا يمكننا تصورها : او صبغة من قبيل الرسوم التي تحمل عناوين مثل «العشيق المفاجأ او البنت غير العذراء» التي كانت ماتزال تزين جدران الغرفة : هرع الفراش الى مصدر الطلق الناري مسرعاً وهو يرتدي ثياباً شيطانية وقبعه متدلي نصفه خارج سرواله الذي لبسه عندما قفز من سريره . وربما كانت وراءه قائمة ، خادمة عليها قلنسوة الليل ، شبه عارية ، احدى يديها امام فمها لكي تختق صبيحة والاخرى كانت تحاول بقلّة لباقة ان تمسك بالثوب الذي ينزل من كتفها وقد كشفت نهدها

(وربما انها لم ترفع يدها لكي تختق صيحة : الصحيح ان اصابعها المطوية كالصدفة كانت امام شعلة شمعة ثانية هذا ما يفسر ظهورها بتلك الهيئة مهما كان مكانها بعيدا لانها لم تكن قد اجتازت العتبة بعد وهي في ظل الممشى) تحاول جاهدة حمايته من تيار الهواء الذي يحدته فتح الباب (كان بصيص الشعلة يمر بين اصابعها حتى لكأنها تريد ان تظهر في وسط كل اصبع ظل العظام الخفيف الذي يغطيه لحمها الوردي الشفاف) : اذن فيما كانت تحمل بأحدى يديها الرداء الليلي الذي لا يكاد يكسو صدرها والشمعة التي تحملها بيدها الاخرى ، بحيث ان وجهها الفتي الحائر اصبح نيرا من الاسفل كمسرجة صف انوار المسرح ، انقلبت الظلال اي انها انتقلت من اسفل الاشكال الى اعلاها ، فأصبحت شفتها السفلى في الظل ، وكذلك حرف الالف واعلى الخدين والجفنين العلويين والجهة فوق الحاجبين فتقدم الخادم وكان يرى من ظهره .

كانت ساقه اليمنى مندفعة الى الامام نصف مثنية اما اليسرى فكانت منفرجة الى الوراء (اي ان ثقله كله كان يتركز على اليمين : لم تكن حالة مشي او سباق وانما كانت وضع راقص بعد قفزة قام بها) وضعا يُفسر افصح تفسير ما حدث قبل قليل : فقد تهافت الجسم والكتف الايمن الى امام مقابل لوح الباب ، والرجل اليمنى منطوية ومرفوعة من الأرض واذا قامت الرجل اليسرى بالاندفاع الاخير ثم - في المحاولة الثالثة او الرابعة - استسلم لوح الباب او قفله بالاخرى وسط جلبة انتراع المزلاج ، وتطاير الخشب المتكسر ، وفي تلك اللحظة اصبح الخادم وكأنه مقذوف بالمنجنيق فاقد التوازن ، ساقط على رجله اليمنى المنطوية فيما كان يبدو وكأنه سحب وراه رجله اليسرى المتمددة تماما التي كانت قدمها وربلتها على خط واحد وعقبها مرفوعة والرجل (حافية وذلك لأن الخادم لم يتمكن من ان يرتدي سوى ذلك السروال) لاتلامس الارض الا باطراف اصابع قدمه ، فيما كانت ذراعه اليمنى في تلك اللحظة ، ترفع عالية الشمعة التي

اصبحت تقريبا في مركز خلفية اللوحة ، حتى ان الخادم بات واقفا في مكان يعاكس الضياء ، وان الجزء الذي تمكن رؤيته من جسمه - اعني ظهره - كان تقريبا في الظل الذي رسم بالأزميل بواسطة خطوط متقاطعة متفككة نوعا ما وقد اتخذت شكل الاحجام ، بحيث ان هذه الاحجام والاشكال لو شوهدت عن كذب ولاسيما شكل مقدمة الذراع فالعضلة تبدو وكأنها مكسوة بشبكة اشبه ماتكون بالزردات التي تتراس حيث يكون الظل اكثف) فقد كان الضوء كله مركزا ان صح التعبير على الجسم الضخم المستلقي تحت المدخنة وكأنه يمتص الضوء راسا قوسا خفيفا كايا عاريا لان الحقيقة هي هذه (او الاسطورة او على ماترويا سابين او القيمة التي اخترعها اعداؤه) : انه وجد متزوع الثياب تماما . فقد خلع ثيابه في اول الامر ، قبل ان يطلق الرصاصة على رأسه بالقرب من هذه المدخنة التي كان جورج وهو طفل او يافع فيها بعد قد امضى امسيات كثيرة ، وهو يبحث غريزيا وهو واقف عند زاوية المدخنة في الحائط وفي السقف (ولو انه ادرك ان الغرفة اعيد صبغها مرارا والصق عليها الورق الجداري مرارا بعد الحادثة) عن اثر الرصاصة في الجص متصورا مستذكرا الحدث ، معتقدا إنه يشاهد وقوعه في تلك البلبلة الليلية الشهية لذلك المشهد الظريف : ربما كان ثمة مقعد او منصدة مقلوبان والملابس كأنها ملابس عشيق لاصبر له وملقاة ومبعثرة هنا وهناك ، بسرعة البرق الخاطف فيما كان جسم الرجل المرهف التقاطيع القريب الشبه الى النساء مدداً ضخما غريبا ، وكان ضوء الشمعة يداعب بشرته البيضاء الشفافة وكأنها من العاج او بالاحرى هي ماثلة الى الزرقة وفي منتصفها ذلك الدغل او تلك الباقية ، تلك البقعة الداكنة القطرانية التي لم تكن تبدو واضحة وقد كانت اللوحة مشوبة بالاضطراب والغموض والرطوبة والحماة والفننة والنفور التي تصعب معرفة مداها ..

وكننت اسائل نفسي هل كان يبدو في تلك اللحظة وهو ايضا متعجبا مترعجا

قليلًا اعني به وجهه والى الغبي ، عندما انتزع من على حصانه واردي قتيلا ، ورأسه مائل الى الاسفل يحدجني بعينه المفتوحتين وفيه المغفور فوق ذلك المنحدر .

ولكن رأسه على اية حال كان يشبه دائما رأس غبي . وبالطبع فأن الموت لم يرتب له الامور من هذه الناحية وانما بالعكس زاد في الطين بلة . لان تلك التقاسيم الحائرة المصعوقة بشخص فكرة الموت المفاجي ، افقدت الوجه كل حركة ، تلك الفكرة التي ماعاد يعرفها كمفهوم تعودنا العيش ، بموجبه ولكن كمفهوم صاعق في حقيقته الطبيعية بعنفه وعدوانيته ، اطلاقه رصاص وحشية همجية لا يغامر الخوف فاعلمها غير متمزة ظالمة مجحفة ، والغضب الاحمق المذهل للامور التي لا تحتاج الى اسباب لكي تذهل احدا كحالة ذلك الذي يضرب برأسه على عمود الكهرباء وهو لا يدري ، فيما هو غارق كما يقال في الافكار ، عندما يطلع على خبث الحديد مع ما فيه من الحماقة والتمرد والهمجية فالرصاصه اطاحت بنصف الرأس ، ولربما كان وجهه يعبر في تلك اللحظة عن الدهشة وعن الشجب ، وأقول هنا وجهه فقط لان روحه على ما اعتقد كانت قد اجتازت ، منذ وقت طويل ، العتبة التي لم يعد شيء يدهشه بعد اجتيازها او تحجب اماله بعد فقدانه آخر اوهامه اثر محاولة الفرار من الكارثة . اذن كان قد تهاوى في العدم حيث لم تفعل الرصاصه شيئا سوى انها ارسلت جثته لكي تلحق بروحه : ومنذ وقت غير يسير لم أعد أرى سوى ظهره . لذا فقد تعذر علي ان اعرف ما اذا لم تكن قد فارقت كل قدرة على التعجب والألم بل التكفير او بالاحرى تركته حرا طليقا بحيث ان ما كان يتحكم بالحركة المحالة او التافهة التي أستل بها سلاحه ذلك ولوح به ، لم تكن روحه لأنها بدون شك كانت قد فارقت الحياة في تلك اللحظة . اذا كان الشخص قد صوب عليه من خلف السياج وعلى أعلى منطقة من جسمه . يحتاج المرء الى وقت اقصر لكي يرشقك بعشر رصاصات من رشاشه

في جسمك من ان يقوم بسلسلة من العمليات التي تبدأ بتناول السلاح باليد اليمنى ، قدام الفخذ الايسر ثم بامتشاقه ورفع شفرته . ولكن بعضهم يقول ان الجثث قادرة احيانا على اداء افعال أنعكاسية كالتقلصات العضلية العنيفة جدا والمنسقة تنسيقا كافيا كتحريكها مثل البطة التي يقطع رأسها ومع ذلك تستمر في المشي محاولة الهروب ، قاطعة بشكل همجي مسافة عدة امتار قبل ان تسقط السقطة المحتومة : ان هي الا قصة اعناق مقطوعة بما ان الرواية أو الاسطورة العائلية التملقية حسبها يمليه التقليد ، جاءت تخلصا من المقصلة وان القتل الذي حدث كان أضرارا . كان عليهم في ذلك الحين ان يغيروا شعارهم بان يستبدلوا اليمامات الثلاث ببطة لأرأس لها . انا اتصور انه قد يكون افضل رمز وأوضح ، على أية حال ، بما انه يمكن القول ان لا هذا ولا ذاك في كل الاحوال بقي محتفظا برأسه : مجرد بطة لا رأس لها مثلوحة بسلاحها رافعة اياه ، وهو يلمع تحت الضياء ، قبل ان تسقط على منكبيها ، والحصان والبطة كانا هناك خلف الشاحنة المحروقة وكأن احدا من الناس أجهز عليهما ، كما في الدعابات التي يسحب فيها احدهم السجادة فجأة من تحت احد الاشخاص ، كانت الاسيجة في تلك المنطقة تتكون من اشجار الزعرور او النيرية على ما اعتقد ، اوراق صغيرة منقوشة او بالاحرى انبوية الشكل كما يقال عند الحديث عن كي القماش (او ربما مغضنة) مثل ياقة صغيرة في كل جانب من ضلع الورقة ، كانت ظلالنا العالية تتصاعد فوقنا كدرج قائم الزوايا ، افقية وعمودية ثم ترجع وتصبح افقية بينما كانت خوذتي تنتقل على القسم المستوي من أعلى السياج ، والجياذ الثلاثة (كانت وقتئذ تنفس بجهد اقل ومنخرا الجواد الذي كان يمتطيه ايجليزيا كانا ممتددين يفتحان ويلتصقان مثل كشتبانين ضخمين مرتعشين ، تتخلل جذرائها الداخلية عروق صغيرة حمراء منتفخة تنفرع كتفرعات البرق) كانت تتوسط الطريق شاغلة عرضه بالكامل ، فأنخيت لكي اداعب عنق الحصان ، ولكنه كان مبللا كله في

المنطقة التي كان العنان يحتك به ، كما كان مغطى بلعاب رمادي من العرق ، وحاولت امرار يدي على فخذي فشخر وقال : «يا لك من نذل !» : فأجبت : «هل ذلك يؤلمك ؟» لكن لم يرد علي بينما كانت اسارير وجهه تنم عن مزاجه السيئ وكأني به يضمري السوء فقال اخيرا : «لا ، اعتقد ان الاصابة بسيطة» فقال : «باللوعده . هل رأيت ذلك ؟» ثم رأيت ظلينا هذه المرة امامنا . «يا للحاقة . مَنْ هؤلاء ويريدون منا ماذا ؟» كانوا واقفين في مفرق الطريق ، وكانوا ينظرون البنا ونحن نتقدم فيما هم ساكنون . كانوا في هيئة الذاهبين الى القداس او الخارجين منه ، وهم بأبهى حللهم ، وكأنهم حضروا او سيحضرون حفلة عيد . كانت النساء يرتدين حللا غامقة ومعتمرات قبعات ، بعضهن يحملن في ايديهن مظلات سوداء أو حقائبهن السود ايضا ، وكان بعض الرجال يحملون حقائب او سلاسل مستطيلة الشكل مصنوعة من السوحر ، واحدى قبضتي اليدين على غطاء السلة المثبت بعصية صغيرة ذات قفل تتزلق داخل ممر صغير . وعندما غدونا بالقرب منهم قال لنا احدهم : «غوروا من هنا» . كان وجههم بدون تعبير . فقلت لهم : «هل لحنتم مرور خيالة ؟» ولكن الصوت نفسه ردد قائلا : «ولوا من هنا . غوروا من هنا» . توقفت الجياد الثلاثة ، وكانت ظلال الخوذ تصل الى مداسهم الاسود تقريبا ، مداس يوم الاحد . فقلت : «نحن ظللنا الطريق ووقعنا اليوم في كمين . لقي النقيب مصرعه» . ونحن اذ كنا نبحث اذا بامرأة طفقت تصيح ثم تعالت الضوضاء : «انهم في كل مكان . روحوا من هنا . لئن وجدوكم معنا لقتلونا» . فردد مرة اخرى ايجليزيا قائلا : ياله من نذل !

ولكن بدون ان يرفع صوته ، بحيث اني كنت اسائل نفسي ان كان يقصدهم هم أم الشخص الذي اطلق الرصاص علينا ، ولكنني لم اكن استطيع ان اعرف هل كان يتكلم بصيغة الجمع ام المفرد . واتذكر انني ، في تلك اللحظة ، سمعت هدير الشلال الذي كانت تحدثه (الفرس) في الوقت الذي كانت تتحرك قليلا

لكي تفرج بين فخذيه . فأنحيت لكي أخفف الوطء عن ظهري ، وبقيت منبسطة الى امام انظر الى الارض وكان البول الاصفر يهر نظري ، وكان اقرب الرجال هناك قد ابتعد عنا ، ربما لكي لا تتوسخ ثيابه «العبيدية» وكان البول يتعرج على الطريق الترابية الحجرية ، وكأنه تنين تغطيه فقاعات والرأس متردد يتلمس ويتحسس طريقه ذات اليمن وذات الشمال ، فيما كانت هيئة البول تنتفخ . ولكن سرعان ما كانت الارض تمتصه . ولم يبق سوى بقعة داكنة رطبة متعددة الاطراف حيث كانت تنطفئ نقاط دقيقة لامعة كرووس الدبابيس الواحدة تلو الاخرى . حينئذ نهضت قائلاً : «هيا بنا نطلق ، لن نمكث هنا .» دفعتها قليلاً . ففتحوا جميعهم ، يفسحون لنا المجال لان نمر ، وعليهم مساحة من المهابة والصلابة والعداء في حلتهم الفاخرة . فقال انجليزيا : «هؤلاء الفلاحون اندال» . ثم سمعنا صراخا وراءنا ، فالتفت واذا هم لم يبرحوا مكانهم بعد . كانت امرأة تصيح . اما الآخرون فقد كانوا محتفظين بسحتهم العدائية العابسة نفسها . فقلت وانا احدها في تلك اللحظة ، بنبرة شاجبة لصياحها : «ماذا تقول ؟» كان انجليزيا ايضا قد التفت ، بينما كان قد اطبق يده على فخذه ، فكررت عدة مرات ، الحركة نفسها بذراعها . وقال : «لنتجه الى اليسار لان ذلك خير لنا من ان نذهب هناك ندخل في مائة» . فطفق جميعهم يتكلمون ويقومون بحركات تتوافق مع ما كانوا يقولون . وفي الوقت نفسه سمعت اصواتهم الغضبي المتناقضة . ثم وجدت ما كنت ابجته قبل لحظة ، منذ ان رأيتهم غربي الاطوار محتفلين ، بحللهم التي لم تكن حلل عيد وانما حلل الحداد . ولهذا خطرت ببالي فكرة مراسم الدفن التي نشاهدها سوداء متصنعة في طرق الريف الخضراء (كان يواصل التلويع بمظلته وكأني به يشير اليها ان انسحبوا وكأنه يواصل صياحه : اليكم عنا ، روحوا من هنا . اليكم عنا !) . قال انجليزيا : «قالت لنا توجهوا الى اليسار» ولكن ظللنا كانت تسبقنا . كنت أراها وهي تتقدمنا وكأنها مركبة على

عكاكيز بهلوان فقلت : «ولكن ، ان واصلنا في هذا الاتجاه فاننا سنرجع الى ... » فقال انجليزيا : « بما انها قالت اننا سوف نضل الطريق لورحنا في ذلك الاتجاه ، فذلك لانها ربما اعرف منا ومن غيرنا به » . غابت الشمس وتوارت الظلال . فنظرت مرة اخرى وراءنا فتواروا خلف السياج . وبغياب الشمس كان الريف يبدو اسير الموت ، مخذولا ، مرعبا يجموده الهادئ المألوف وهو يحثي الموت الهادئ المألوف المثير الشبيه بالغابات والاشجار والمروج المزهرة ...
ثم ادرك ان ما كان يشرحه لم يكن يشرحه بلوم (بلوم الذي كان قد لقي حتفه قبل ثلاث سنوات ، اعني انه كان يعرف عنه انه قد مات ، لان كل ما كان قد رآه كان ماييلي :

الوجه نفسه هذا الذي رآه في هذا الصباح المطير الرمادي في مستودع الحصيد ، ولكنه اصفر حجما واكثر انكماشاً واتمس يمتاز بأذنيه الضخمتين الواضحتين اللتين تبدوان وكأنهما كبرتاً بقدر ما كان الوجه قد اعتوره الضمور والتلاشي ، وب نظرة المحموم الصامت البراق نفسه الذي كان ينعكس فيه الضياء الاصفر الداكن المنبعث من المصابيح التي تنير ذلك الحصى ، انارة كافية لما كانوا يؤدونه من اعمال : فتح العيون والجلوس على مضاجعهم والبقاء على هذه الحالة مدة دقيقة تقريبا شبه اغبياء ، الى ان يتوصلوا ككل صباح الى معرفة المكان الذي كانوا فيه والحالة التي كانوا عليها معرفة صحيحة ، وبعد ذلك ينهضون ويقفون مجرد وقوف ، بدون ان يفعلوا شيئا سوى شد شريط احذيتهم (بما انهم لم يعودوا يعرفون في ذلك الوقت مامعنى خلع الثياب باستثناء يوم الاحد للبحث عن العمل والقصة) نفخ الغبار الذي سقط على التبن ليلا وارثداء معاطفهم لكي يصطفوا خارجا في الليل منتظرين الفجر ، حتى يتم تعدادهم فردا فردا تماما كالقطيع : اذن مايكفي من ضياء للقيام بتلك الاعمال ، ولكي يتمكن من رؤية المنديل الذي كان يمسك به بلوم امامه . هذا وان المنديل كان اسود ولكن

ليس من جراء الوسخ ، اعني انه لو كانت المصابيح اقوى لكان بإمكانه ان يرى انه كان اسود ولكنه كان في نصف شبه الظل اسود لأكثر ولأقل . كان بلوم ملازما الصمت باستمرار مع ملاحظة وجود شيء في عينيه يمزق الاكباد ، شيء يتلألأ يدعو الى اليأس والاستسلام . فزق جورج ستر الصمت قائلاً : «ولكنك لست سوى محظوظ بكل مالهذه الكلمة من معنى ! . بإمكانك ان تقول بأنك ابن دلال : التضميد من ناحية والشراشف ولسوف يعيدونك الى اهلك لانك غير ... يالك من محظوظ ! » ، اما بلوم فكان يحملق فيه بدون ان يرد عليه ، وعيناه تلمعان في شبه الظل سوداوين واسعتين شبيبتين بعيون الاطفال . فكرر جورج عليه القول : «يا لك من محظوظ ! . ماذا اعطي لكي اخشخش وابصق قليلا انا ايضا : بصقة بسيطة لاكثر من بصقة . آه لو كنت اقدر . ولكن حظا كهذا ليس من نصيب امثالي ...» اما بلوم فكان يحدجه دائماً بدون ان يرد عليه ولم يره بعد ذلك قط ، اذ ادرك اذن ان الشرح الذي كان يحاول تقديمه لم يكن لبلوم ، فيما كان يفعل كل هذا ، وهو يبصق في الظلام ولا للشاحنة ايضا ، فالكوّة الضيقة التي كانت تحجبها الرؤوس او بالاحرى البقع المتدافعة الصارخة ، ولكن الان كان يستطيع ان يلمس رأساً واحداً فقط بمجرد رفعه يده كأعمى يشخص الاشياء ، بل حتى انه لا يحتاج الى تقريب يده لكي يتعرف في الظلام على الهواء فهو كان يشعر بفتور الجو والنفس وهو يستنشق ، النفس المنبعث من وردة الشفاه السوداء والوجه بأكملة وكأنه وردة سوداء مائلة الى وجهه وكأنها تنوخي ان تقرأ فيه وتتكهن ... ولكنه امسك بمعصمها قبل ان تمسك هي بمعصمه ، وقبض كالطير على اليد الاخرى ، فيما كان نهداها يدوران على صدرها : تصارعاً لحظة . ففكر جورج حتى بدون ان يهم بالضحك . العادة هي انهن هن اللواتي لا يردن ان يشعل الضوء . ولكن الضوء كان وافرأ في الليل . فانحنّت على منكبا وخرج رأسها من النافذة التي كانت تميظ اللثام عن النجوم ،

وتمكن من تلمس البصيص البارد الذي كان يلتصق كالحليب على صفيحة وجهه ففكر في نفسه : «حسن جدا . انظري» . فشعر بثقلها ، ثقل كل لحم هذه المرأة ووركها يسحق رجلها بثقله ، وركها المتألق كالفسفور في الظلام . كان يراها شفافة ايضا في المرأة مع الصنوبرتين المنتصبين الى جانبي جبهة الخزانة . فقالت له : «ايه واصل حديثك معه» . فأجاب : «مع من» ؟ فقالت : «ايه - تكلم ولكن على اية حال لا معي» فأجابها : «اذن مع من؟» فقالت : «ولكن حتى لو لم اكن سوى مومس عجوز ، أفهل تفقد نصارتك؟» فأجاب : «ماذا تقولين؟» فقالت : «لان التي كنت تبحث عنها ليست انا أليس كذلك ، انها ...» فأجابها : «بالله ، لم افعل شيئا سوى اني كنت احلم بك مدة خمس سنوات» فقالت : «انا ؟» . فأجابها : «اذن والحالة هذه بمن كنت احلم قولي لي ؟» فقالت : «لا اقول بمن ولكن من الافضل ان تقول لي بماذا . يبدو لي ان ذلك ليس امرا تصعب معرفته . يبدو لي انه ليس من الصعب جدا ان يتخيل الانسان بماذا يستطيع ان يفكر مدة خمس سنوات ربوات من الرجال المحرومين من النساء . بإمكانهم ان يفكروا تقريبا بما يمكننا ان نراه مرسوما داخل كابينات التلفونات او داخل المغاسل والمقاهي . ارى ان ذلك امر طبيعي . وأرى ايضا انه امر طبيعي للغاية . ولكن في رسوم كهذه لا يَصُور الرسام ، الوجه وانما يتوقف عموما عند وصوله الرقبة ، هذا اذا فكر في الوصول الى الرقبة ، عندما الشخص الذي استعان بالقلم او بالمسار لكي يحك الجص اجهد نفسه في رسم شيء آخر او ان يصعد الى ما هو أعلى منه .» فأجابها قائلاً : «سبحان الله ، يافتاح بارزاق . اول امرأة نفاجا بها !» فقالت له : ولكن هناك كنت تحت قبضة يديك (فأطلقت في الظلام ما يشبه ضحكة او صوتا جعلها تهتز قليلا ، بل يهتز كلاهما) ويهتز صدرهما الملتحمان والهندان ، بحيث انه كاد ينجل اليه انه يسمع صدرها يرن داخل صدره ، وانه هو ايضا يضحك ليس في الحقيقة ضحكا ، بمعنى انه لا يعبر

عن أي فرح : ولكن مجرد حركة لا ارادية قوية كالسعال مثلا ترن في داخلها كليهما في آن واحد ثم تتوقف ثانية :) على الاصح انت ، لانكم كنتم ثلاثة ، ايلييزيا وانت والذي يسمى ، يسمى .. فقال جورج : « بلوم » فأجابته : ... هذا القزم الذي كان معكم وكنتم قد وجدتموه ...

ثم ان جورج لم يعد ينصت اليها ولم يعد يسمعها . فقد عاد الظلام فأحتواه في احشائه يخنقه ، وعلى صدره ثقل غير ثقل لحم المرأة الدافئ ، ولكن مجرد هواء ، وكأنني بالهواء راقد هناك لاحياة فيه او ان قوة الجاذبية هناك اصبحت مضروبة في عشرة اضعاف او مئة ضعف ، او جثة الهواء الهامدة الثقيلة الفاسدة ، جثة الهواء الاسود المتمدد بكل وزنه عليه وفيه مطبق على فيه . ولكنه حاول يائساً ايلاج النفس الذي يشبه طعمه طعم الموت والفساد في رئتيه ، واذا بالنفس بالهواء يدخل : كانوا قد فتحوا الباب ثانية فدخلت الاصوات والاورامر الغرفة مع دخول الهواء . وكان جورج في تلك اللحظة يقظان ويفكر : « ولكن هذا مستحيل . يستحيل ان يواصلوا تحميل افراد آخرين . لسوف ... » واذا بحركة عنيفة ، بصدمات وتدافع وشتائم في الظل ، ثم انزلق الباب ثانية فأرتدت نضبتة الى الورا ، فأطبق الظلام ثانية ، لاتشعر فيه بسوى التنفس وبالأفراد الذين كانوا قد صعدوا ربما يسائلون انفسهم مستعجلين عن الوقت الذي قد بقضونه داخل الشاحنة بدون ان يغمى عليهم ، او ربما كانوا ينتظرون مجرد انتظار (ربما كانوا يتصورون انهم لن يمكثوا هناك الا بضعة دقائق ، فقد كانوا مرتاحين) انتظار الوقت الذي سيفقدون فيه وعيهم ، فقد كانت الانفاس تحدث في الظلام ضجيجاً مستمراً كصوت الصفعات ، ثم ان احدهم (بعد ان اعياء انتظار حدوث ذلك) اعني به ذلك الذي صعد وهو يتكلم ويقول (ولكن بدون غضب وانما بنبرة مترعجة) : « بأماكنكم في الاقل ان تفسحوا لنا المجال لنجلس ، أليس كذلك ؟ » فأجابه جورج : « من الذي تكلم ؟ » فرد عليه الصوت : « جورج ؟ »

فأجابه جورج : «أجل، من هنا ، من ... يا الله : اذن استطاعوا ان يأخذوك ! اذن والحالة هذه ...» واصل حديثه فيما كان يحاول ان يتقدم حاييا في اتجاه الباب ، رغم الشتائم بل حتى بدون ان يشعر بالضربات التي كانوا يلقمونه اياها . ثم ان الوقت الذي كان يتلقى فيه صوت بلوم الذي بات قريبا منه وهو يقول له : «ابق مكانك . لن تمرا» فرد عليه جورج : «ولكن ياناس . هذا صديقي ...» فأجابه ابن مارسيليا (لان اصل صاحب الصوت من مارسيليا) : «الك عنا من هنا» .

فطفق جورج يكابر محاولا ان يقف على رجليه . ثم انه بعد ان اصبح نصف واقف ، أحس بثقل يضاهي طنا من الحديد اعترض صدره ، وكأنه البرق الخاطف : «سبحان الله ، مستحيل . اتراهم ادخلوا الحصن ايضا . يا لهم من ... » واذا به يسمع بصفيحة الحديد ترن عندما ناطحت رأسه (او عندما ناطحتها رأسه - اللهم الا اذا لم تكن هناك صفيحة حديدية او أن رأسه رن وحده) وكان صوت بلوم الذي اصبح قريبا منه يقول خافتا : «ياهم من اوغاد» كان بإمكان جورج ان يسمعه يوزع في الظلام بصبر ، ولو انه كان يفعل ذلك بسرعة ، اكبر عدد ممكن من الركلات واللكمات . كان جورج ايضا يحاول ان يضرب ، ولكن لم يكن يجيد الضرب ، لان ذراعه وقدمه كانتا تجاهبان للتو شيئا ، بحيث انهما لم تكونا تضربان بقوة كان هناك دون شك قليل من الهواء ليكنهما من مواصلة العراك . لانه فجأة ، وكأن اتفاقاً ضمنياً حصل بينهما وبين خصومهما (اي بينهما وبين هذا الظلام الدامس الذي كانا يحاولان فيه ان يكيلا او ان يتلقيا الضربات) فتوقف العراك فقال ابن مارسيليا ، أنهم سوف يتلاقون يوما فقال بلوم : «اجل سوف نتلاق» فرد عليه ابن مارسيليا : «هل صورك يوما ؟» فقال : «أجل لقد صورتني انت . فقال المرسيلى : «ابق خبيثا ماشئت ، انتظر ان تشرق الشمس ، انتظر ان تخرج من هنا» . فأجابه بلوم : «اجل صورني» .

لاشك انه لم يكن هناك هواء يكفيها لان يتبادلا الشتاء فقال بلوم : «هل
 الامور على مايرام ؟ » فتمس جورج مزودته فكانت قطعة الخبز ماتزال فيها مع
 القنية التي لم تنكسر وقال : «اجل ، الكل على مايرام . » ولكن شفته كانت
 اشبه بقطعة خشب . فشعر حينئذ بشيء ما يسيل من فمه ، فأخذ يحس شفته
 بأنامله فأستكشفه بحذر وفكر في نفسه : «حسن . كاد الامر ينتهي بي الى ان
 اسائل نفسي هل خضت غمار الحرب فعلا . ولكني على كل حال وفقني الله في
 اني اصبت بجرح وهرقت بضع قطرات من دمي الثمين ، بحيث سيكون لي
 مأرويه وما احكيه فيما بعد ، وسأتمكن من القول ان كل المبالغ التي انفقوها لكي
 يجعلوا مني جنديا لم تذهب عبثاً . رغم خشيتي ان انفاقها لم يجر حسب الاصول
 وعلى الوجه الصحيح ، اعني ان عدوا حصل عليها فسد صوبي وهو في هيئة
 الرامي ، راكم ومتعل حذاء مسمر الكعب ، ولو انه ليس مؤكداً ، ولو اني
 لست اكيدا من قدرتي على المفارقة والمباهاة فيما بعد بشيء يستحق الفخر ،
 كالاصابة بجرح من أحد اترابي . لانه كان من المفروض ان يكون الذي ادخل في
 الشاحنة شيئا كالحصان مثلا ، الا اذا كنا نحن الذين دخلناها خطأ لان مهمتها
 الاصلية كانت نقل الحيوانات ، او الا اذا لم تكن غلطة البتة او انهم ملاؤها ،
 وفقا للغرض الذي صممت من اجله ، بالحيوانات ، بحيث اننا كنا قد نصبح
 مايشبه الحيوانات بدون علم منا . يخيل الي اني قرأت يوما قصة من هذا القبيل ،
 قصة اشخاص تناسخوا على حين غرة واستحالوا من عيدان الى خنازير او اشجار
 او حصي ، وكل هذا بفضل بضعة ابيات شعر لاتيني » وما زلت اعتقد ان
 هذه الابيات ليست مخظة تماما . خلاصة القول ، ان الكلمات تنفع احيانا ،
 بحيث انه في كشكه يستطيع بدون شك ان يقنع نفسه انه لورثتها ونضدها بأوجه
 مختلفة ، لنتمكن احيانا لو ساعده الحظ في ان يصيب المرمى . علي ان اقول له
 ذلك . لانه سوف يروقه . سأقول له اني سبق ان قرأت باللاتينية ماحدث لي .

وهذا يقلل من استغرابي ودهشتي نوعاً ما ويزيد من طمأنيتي ، لاني اعرف ان ما كتبتة قد سبقني فيه غيري بحيث ان المبلغ الذي انفقته علي هو ايضا لكي يفهمني اياه لن يكون قد راح كله هباءً . أجل . لا بد ان مأسأ قوله له سوف يروقه سيكون هذا بالطبع ... له ثم انقطع عن الكلام . ربما كان ما يشرحه هامسا في الظلام لم يكن في اذن المرأة التي كانت مضطجعة الى جانبه ، لا يراها أحد ، كما لم يكن في اذن بلوم ، فقد قال في همسه انه لو لم تختف الشمس لكانوا عرفوا من اية جهة كانت تمشي ظلالهم : لانهم اصبحوا لا يتسابقون على الريف الاخضر او بالاحرى ان الطريق الريفية الخضراء كانت قد انتهت بغتة ، اما هما (هو وايجليزنا) فقد بقيا هناك ابلهين موقوفين متكئين على حصانيتها على قارعة الطريق ، بينما كان يفكر حائرا يائسا نافرا بعض الشيء (كالحكوم عليه بالاشغال الشاقة الذي أرخى له الحبل فتيسر له أمر اجتياز الساتر الاخير ، مستجمعا قواه متأهبا للقفز ، فأدرك في نهاية الامر انه وقع على رجلي سبحانه الذي كان ينتظره) : «ولكنني وجدت ذلك يوما في مكان ما . اعرفه . ولكن متى ؟ واين ؟ ... »

من تراه اعطى الله فكرة خلق الكائنات ذكورا واناثا وجمعها في اتحاد صميمي ؟ فالرجل ، هاقدا اعطاه المرأة . لديها ثديان في صدرها ومضيق صغير بين ساقها . فأذا لقحت بقطرة من زرع الرجل فسوف يولد منها كائن ضخم : هذه القطرة الصغيرة المسكينة ستصبح لحما ودما وعظما واعصابا وجلدا . لله در ايوب اذ يقول في الفصل العاشر من سفره : ألم تكن قد صبيتني كاللبن وخثرتني كالجين ؟ فله ، في اعماله هذه ، شيء غريب . ولو سألتني رأيي عن تكاثر بني البشر لنصحتة في الاكتفاء بمدرة التراب ، ولكنك اشير اليه بأن يثبت الشمس كمصباح في سمت السماء لتثير الارض ونحصل على نهار أبدي .

ملرتن لوتر

وبعد لحظة عرفة : فإنه لم يكن كومة طين بارزة العالم يابسة ولكن (فقد كانت القوائم عظيمة مربوطة على هيئة شخص يصلي . وكان الهيكل العظمي نصف مكسو بطبقة من صلصال - وكأني بالارض قد بدأت تعيده اليها ترابا - وتحت متنه القوي الهش كانت سحته وشكله شبيهين بالحشرات وبالقشريات في آن واحد) حصانا ، او على الاصح ماقد كان يوما حصانا (يسهل ويرعى في المروج الخضراء) ليعود الآن او أنه سبق ان عاد الى ارضه الاصلية ، بدون ان يكون ظاهريا بحاجة الى ان يحتاز مرحلة التفسخ الانتقالية أي مرحلة التحول او الاستحالة الجوهرية السريعة ، وكأن هامش الزمن الضروري عادة للانتقال من عالم الى آخر (من العالم الحيواني الى العالم المعدني :) . قد اجتيزت دفعة واحدة .

«ولكنه فكر في نفسه معتقدا ربما غدا او قبل ايام وايام قد انتقلنا هناك دون علمي . اما هو فيفوقني جهلا في هذا . لانه كيف يستطيع ان يقول المرء كم من الوقت مضى على وفاة رجل ، بما ان أمس والآن وغدا بالنسبة اليه أمر واحد لم يبق له وجود ، أي لم تعد تشغل باله البتة ... » ثم لمح الذباب . لم تكن لطخة الدم الكبيرة المحببة اللامعة التي كان قد رآها اول مرة ، وانما تجمهرا قائما . ففكر في نفسه : «لقد تجمع الذباب بهذه السرعة . ولكن من اين يخرج هذا الذباب كله ؟ » إلى ان ادرك ان عدده لم يكن بتلك الضخامة (التي تكسو اللطخة) وان الدم كان قد شرع في الجفاف ، بل اخذ يكمد ، حتى اصبح بنيا اكثر مما هو احمر (كان هذا التغيير الوحيد الذي طرأ منذ ان رآه لأول مرة ، بحيث ان الوقت الذي انصرم لم يكن سوى بضع ساعات على الارجح ، او ربما ساعة واحدة بل اقل من ساعة ، وفي تلك اللحظة عرف ان الظل الذي تلقيه زاوية الحائط المبني بالاجر الذي كان يحد الطريق كان يغطي الاطراف الخلفية للحصان التي باتت الان تحت ضوء الشمس الساطعة ، اذ كانت قطعة الظل التي يلقيها جزء الحائط الموازي للطريق تكبر تدريجيا . ففكر في نفسه : «ولكن ظلالنا كانت قبل قليل

تمتد الى يميننا . وهذا يعني ان الشمس قد اجتازت محور الطريق اذن ... » ثم كفف عن التفكير ، او بالاحرى عن محاولة الاحتساب ، واكتفى بالفكرة الثالثة : « ولكن كم يغير هذا من الامور ؟ ماترى ان يغير فيه هذا الآن ، حيث هو الآن ... » (كان ذباب الكلب الازرق الاسود يتسارع على حافة اللطخة او على ما كان ثقباً او حفرة قنبلة أخرى أكثر من كونه جرحاً ، حيث كان الجلد المحرز قد بدأ بالانكماش كالورق المقوى الذي يذكرك بلعب الاطفال التي قطع عنها رأسها او تمزقت . فأخذ يظهر كل مافي جوفها ، فاغرا مهتوكا دامسا لشيء لم يكن يوماسوى شكل بسيط يحيط بالفراغ . كما لو ان الذباب والدود قد انبها عملها ، اعني انها التهمت كل ماكان بالامكان التهامه بما في ذلك العظام والجلد ، بحيث لم يبق شيء) (كقوقعات الحيوانات المفرغة من لحمها من الداخل او كالايشاء التي قرصتها الارضة من داخلها) سوى غطاء هش رقيق من الطين اليابس ، لايزيد سمكه على سمك طبقة من الصبغ ، لاكثر ولاقل ، فارغ لاكثر ولاقل . هذه الفقاعات كانت تأتي لتنفجر على سطح الطين ، مولدة صوتاً ناشراً ، باعثة رائحة الفساد الضعيفة وكأنها تصعد من اعماق بعيدة لايسر لها غور .

ثم رأى ذلك الشخص بمعنى انه رآه من أعلى حصانه ، وظله المتحرك المداهم يطلع من بيت ، وهو يركض في اتجاههم على الطريق وكأنه سرطان : تذكر جورج انه تعجب في اول الامر من الظل لانه ، على ماقال ، مديد وارف مستو ، بينما كان هو وايجليزيا يريان الرجل من قة رأسه الى أخمص قدمه . بحيث انه كان لايزال ينظر الى الظل (وكان الظل بقعة حير تنقلت بسرعة على الطريق دون ان تترك اثرا او على قطعة قماش لماع او مادة براقه) وهو يحرك كلابتيه تحريكاً لايفهمه احد . بينما كان الصوت يوافيه من نقطة اخرى . فكان الصوت والحركات نوعاً ما منفصلة عن بعضها متفرقة . الى ان رفع رأسه واكتشف الوجه الذي كان مقبلاً اليها ، وعليه مسحة من التيه والخيلاء المبتله . فتوصل جورج

حينئذ فقط الى ان يفهم ماكان يقوله الصوت (اعني ماتلفظ به ، لانه أخذ بتلفظ بشي آخر. بحيث انه عندما رد على الصوت كان الرد مع فارق زمني ، وكان ماكان يصرخ به الاخر يمضي وقتا لكي يصل اليه ولكي يخترق جدران التعب) سمع صوته الذاتي يخرج (او الاخرى بندفع من صدره بجهد) مبجوحا ، خشنا اسمر صارخا هو ايضا . وكأني بهم جميعا مضطرون لان يزجروا حتى يسمع بعضهم بعضا ، ولو ان المسافة كانت بضعة امتار (وخلال لحظة او أقل) بين الواحد والاخر . ولو انه لم يكن هناك ضجيج اخر سوى رشقات مدفع (لان الشخص كان بدون شك قد شرع يصرخ منذ ان لمحها ، كان يصرخ وهو ينحدر مسرعا على درج مدخل البيت ، وهو لا يبرح يصرخ بدون ان يدرك ان الصراخ قد قلت ضرورته بمقدار ماكان يدنو منهم كانت تفسر حاجته الى الصراخ ، ربما لانه لم يكف قط عن الهولة ، حتى عندما وقف بلا حراك ، لحظة تحت قدمي جورج ، وهو ممتط حصانه ، وأشار باصبعه الى المكان الذي كان ينحني فيه الرامي ، ربما كان مايزال يركض في عقله ايضا ، ولم يشعر بانه قد توقف ، بحيث انه بات مستحيلا عليه ان يعبر عن نفسه بطريقة اخرى سوى الصراخ ، شأنه شأن انسان اسير لحركة معينة) فزجج جورج ايضا قائلا : «مضمدون ؟ ، لماذا ؟ هل نشبه المضمدين ؟ هل لنا سواعد المضمدين وكان الحوار الذي جرى بينهما صارخا عارما غاضبا ، وهما على الطريق المشمسة الفارغة (ماعدا تضاريس النفايات والفضلات الموزعة على حافتي الطريق ، وكأن فيضانا اوسبلا عرما صاعقا قد وقفا ثم نضبا على الفور ، في تلك المنطقة ، فتركنا على جانبي الطريق هذه الاكوام - اشياء ، حيوانات ، بشرا موتى - التي يتعذر تمييزها والوسخة ، الجامدة ، اكوام ترتعش ارتعاشا خفيفا في وجه طبقة الهواء الحار الذي كان يهب على سطح الارض تحت شمس ايار) من الاعلى الى الاسفل ومن الاسفل الى الاعلى ، بين الفارس وهو على صهوة جواده والرجل المهول الذي عاد يصرخ :

«ضامات ... نحتاج الى ... هناك اشخاص انزلوا من مطاياهم . اليس لكم ؟
ألسم ... » فأجاب جورج : «ضامات ؟ يا لله . من اين نـ ... » ثم طفق
الشخص يعدل اتجاهه لكي يرجع الى داره . وما ان تباطأ قليلا حتى صرخ ثانية
وكانه فريسة لغضب يائس : اذن مالي اراكما هنا شاخصين كالمغفلين على
فريسيكما وسط هذا الطريق .

الا تعلمان انهم يطلقون الرصاص على كل عابر سبيل ؟ » فهز ذراعه ثانية والتفت
وهو مايزال يركض مشيرا الى نقطة في مكان ما وهو يصيح : «هناك شخص
مختبئ وراء زاوية الكوخ» . فأجابه جورج : «اين ؟» وصل الشخص في تلك
اللحظة الى نهاية المنعطف الحاد الذي رسمه بركضه قبل ان يرجع الى داره فوقف
قريبا منها - ولكن صدره كان يعلو ويهبط بالتأكيد ، دون شعور منه ،
وبسرعة ، لاهثا مبادرا الى الصراخ بين صرخة وصرخة : «تماما وراء زاوية هذا
الكوخ المبني بالطابوق هناك» : فنظر بنفسه صوب اتجاه اصبعه وزجر بحنقه
الذي سار عليه ويأسه وبرضاه : «انظر ! فقد خرج قبل لحظة وعاد فاختبأ ، اما
رأيت ؟ » فأجابه جورج : «اين ؟ » ثم تحرك الشخص وانطلق ثانية والتفت
وصرخ مغتاضا : «يا لك من ... بيت الآجر هناك : فأجابه جورج : «ولكن
البيوت كلها من آجر» . فقال الشخص : «يا لك من مغفل ! » فأجابه جورج :
«ولكنه لم يطلق رصاصة» فصرخ الشخص (عندما اخذ يبتعد هاربا ووجهه متجه
نحوهما لكي يرد عليهما ، بحيث ان كل جسمه التوى كمتفتح سدادات القناني
ورأسه ينظر في الاتجاه المعاكس وجذعه - اعني سطح صدره - منتصب على
محور الدرب ووركاه (سطح الوركين) مائلان ، لو قورنا بالصدر ، مما جعله
يركض في خط ملتو كالسرطان ثانية ، ويبدو وكأنه يجر كالاخرق رجله وراءه
وساقيه ، وهو يوشك باستمرار ان يتعرقل ، بينما كانت ذراعه منفرجتين
تواصلان الاكثار من الحركات وقال : «يا لك من غبي لن يطلقوا عليك

الرصاص من هناك . فهو ينتظرك حتى تقترب لكي يرميك ! » فأجابه جورج : « ولكن اين ! » فرد عليه الشخص وهو مخف رأسه تحت ابطه : « بالك من مغفل ! » فأجابه جورج صارخا بأعلى صوته : « ولكن يالله اين الجبهة اين هي ... » فتوقف الشخص حينئذ لحظة مشدوها متذمرا منتصبا هناك ، ووجهه متجه صوبها وقد كتف ذراعيه ويصرخ كالمهووس : « الجبهة ؟ ياالغبي ! الجبهة ؟ لم تعد هناك جبهة ايها الغبي ، لم يبق شيء ! » فكشف ذراعيه المدودتين ، ثم انفرجتا ثانية لتحتضنا كل شيء : « لم يبق شيء ، أما تسمع ؟ لم يبق شيء ! » وبعد ان استنشق جورج الهواء ملء رئتيه (عندما ادار الشخص الاخر ظهره واستأنف ركضه ، حتى كاد يصل الى درج مدخل البيت ، حيث كان قبل ان يخرج وحيث سيكون بعد قليل) قال : ولكن وبعد كل هذا مالذي ينبغي عمله ؟ اين يمكننا ان ... فأجابه الشخص : « افعلوا مثلي ! » وانزل ذراعيه المرفوعتين ووجهه معصيه الى الداخل ، بحيث ان اصابعه الموجهة اليه تبدو وكأنها تدعو الفارسين لان يفحصا بدلته التي كانت تشير اليها يداه من الاعلى الى الاسفل فزجر قائلا : « اليكما عنا من هذا المكان . أهربا بالزري المدني . ابجثا عن ملابس في احد البيوت واختبئوا ! » ثم عاد فرفع ذراعيه وانزلها بعنف باتجاهها وكأنني به يدفعها ليدخلها في البيت . لكن جورج وايجليزيا بقيا على صهوتي حصانيتها في وسط الطريق المشمسة ، تحيط بها من حافتيها منازل متفرقة ، طريق مهجورة تماما ماخلا الحيوانات الميتة والموتى والاكوام المجهولة هويتها الجامدة المتباعدة في الافق القصي التي كانت هناك ، والتي اخذت تنفسخ تنفسها بطيئا تحت الشمس . فنظر جورج الى زاوية بيت الآخر ثم البيت الآخر الذي توارى فيه الشخص ثم عاد ، فنظر الى زاوية البيت الملأى بالخنايا . ولكنه سمع وراه وقع حوافر الجياد . فالتفت واذا ايجليزيا يمشي خبيبا ، الى جانبه حصانه يمشي خبيبا » وقد اتخذ الجوادان طريقا عرضية مختصرة من جانب اليسار

هذه المرة فامتطى جورج جواده هو ايضا ، وهو يركض لاحقا بايجليزيا فسأله : « اين انت ذاهب ؟ » فشخر ايجليزيا بدون ان ينظر اليه وعلى وجهه امارات العبوس والفظاظة : « أنا ذاهب لافعل ماقاله لنا . سأبحث عن اطهار بالية وسأحتسئ » فقال له جورج : « اين ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟ » فلم يرد عليه ايجليزيا . وبعد لحظة كان الحصانان مربوطين في اصطبل فارغ . فضرب ايجليزيا الباب - مغتاضا - بأخمص بندقيته ، الى ان ادار جورج مقبض القفل بسهولة فانفتح الباب واذا حولهم الجدران وشبه الظل ، اعني بذلك فسحة مغلقة منتبهة (لا يعني انها لم يتعلما خلال فترة اسبوع مايكفيهما لكي يعرفا قيمة الجدران وصلادتها والثقة التي بامكانها ان يوليهاها اعني تقريبا الثقة التي بامكان المرء ان يوليها فقاعة صابون - مع فارق انه عندما تنفجر فقاعة الصابون ، لايبقى منها اثر سوى قطرات ناعمة تصعب رؤيتها ، بدلا من كدس الأجر والعوارض الذي لايمكن فك رموزه ، كدس رمادي قاتل يعلوه الغبار : ولكن ذلك قلما كان يهم . المهم لم يكن هذا ولكن همها كان عدم امكانها البقاء خارجا ، وانها كانا محصورين بين اربعة جدران وسقف فوق رأسيهما) ومايلي : اربعة عصينات خشبية صفراء بلون البول منحوتة على شكل الخيزران وكانت اطرافها مشدودة تتجاوز زوايا المرأة التي كانت جوانها الاربعة تؤطر وجهها لم يره قط ، ضعيفا هزيل التقاطع عيناه محمرتان وخدهاه تكسوهما لحية لم تحلق منذ ثمانية ايام . ثم فكر في نفسه : « ولكن هذا انا » ولم يزل ينظر الى وجه المجهول ذاك مسمرا في مكانه ، ليس من فرط دهشته او اهتمامه ، وانما من شدة تعب ليس غير . فقد كان ، ان صح التعبير ، متوكتا على صورته الشخصية واقفا هناك متصلبا داخل ثيابه ، (وهو يفكر في هذه العبارة الفظة المهينة التي كان قد سمعها يوما : « انت تقف لان لك سراويل مصمغة ») فأمسك ببندقيته الصغيرة من سبطانها واخمسها يلامس الارض وبذراعه متدليلة قليلا الى ورائه ، وكأني به يمسك بشئ بسحبه وراءه

كسلسلة في رقبة كلب ، حل بعض الماجنين الكلب ، فيما هو يمشي ، او كسكير يحمل قنينة فارغة بينما يتكئ بجبينه على زجاج نافذة باحثا عن النسيم العليل . فسمع ايجليزيا وراءه ، وهو يفتح الخزانة ويفتشها ، ملقيا على الارضية دون هدف ملابس نسائية ورجالية . ثم توارى وجهه كما توارت المرأة وبقي المستطيل الذي كان ماثلا امامه إطاراً للباب الذي كان واقفا فيه شخص ضامر الهيئة رأسه كراس الجثة ، اصفر مزود بعدسة مكبرة لايزيد حجمها على حجم حبة حمص ملتصقة على خده الايمن عند منطقة الشدقين .

لا بد انه تذكر ذلك جيدا فيما بعد : تلك البشرة الصفراء والعدسة المكبرة التي كان يستعملها باستمرار والأرومات الصفرة المغروسة هي ايضا بغير انتظام ملتوية في الفم ، تلك الارومات التي رآها عندما افتتح الفم ، تلك الجثة فقال : «مكانك يا ! ...» ثم قرب يده مبعدا سبطانة البندقية الصغيرة المسددة صوب بطنه ، فاخذ جورج يلاحق بعينه اليد الهزيلة وهو ينظر الى مقود بندقيته الذي كان بشكل نصف دائرة ، بمعنى انه كان يحفض عينيه في الوقت نفسه الذي كان يشعر من ذراعيه بضغط السلاح على جسمه . فلمح هذا السلاح بالدهشة نفسها والمباغثة المعهودة نفسها التي شعر بها ، باكتشافه قبل لحظة ، وجهه المجهول في المرأة .

وحاول دون جدوى ان يتذكر كيف قفل راجعا ونظم مؤخرة بندقيته وصوبها ، بينما طففت عضلاته تنقلص وتحاول ان تقاوم الصولة وان توجه السبطانة مجددا صوب الرجل . ثم كف عن المقاومة فجأة معيداً البندقية الى كتفه . فاستدار نصف استدارة وبحث بعينه عن الكرسي الذي كان يعرف انه قد رآه قبل ذلك بلحظة . فجلس وكان اخمص بندقيته الصغيرة مرتكزا على الارض ، ملتصقا بلفافات ساقه ، ويده اليمنى تحملها ثانية من سبطانتها ، لم

يكن يحملها في طرفها تماما ، بالطريقة التي يحمل بها الشيخ الجالس عصا او عكازا ، بمعنى ان البندقية كانت بمثابة مسند او مرتكز للذراع ، ومقدمة الذراع واليد اليسرى مستويتان في وضعها على الفخذ الايسر تماما كالرجل الشيخ ، حتى انه لم يشته الضحك بينما كان يفكر في نفسه : « فليقولوا ان هذا ربما يكون اول قتيل على يدي . ربما كانت هذه اول اطلاقه بندقية تخرج من يدي في هذه الحرب » ، لا تزال هذا الـ ... » ثم شعر بالتعب عندما هم بالوصول الى النهاية ، فسمع في حلم نهاري ، الجنة وفارس السباق وهما يتعاركان . فقد كان الرجل يصرخ امام الخزانة المفتوحة والثياب مرمية متناثرة على الأرض ويقول : « ثم وقبل كل شيء من الذي سمح لك بالدخول من ... » فأجاب الصوت المسالم الرنان العذب الهادئ اللacedواني الذي لم تكن فيه ذرة من التسرع وانما كان مليئا بالقدرة الزاخرة الصبور على التعجب ، القدرة التي كان يبدو انجليزيا ممتلكا اياها : « انها الحرب يا بابا . ألا تقرأ الصحف ؟ » .

لم يظهر الرجل (الجنة) وكأنه يسمع ، بينما كان يجمع الثياب ويفحصها واحدا واحدا ، كما يفعل بائع الالبسة المستعملة ، قبل ان يقدر لها سعرا اجاليا تخمينيا ، قبل ان يلقي بها الواحد بعد الاخر على السرير ، وهو يكيل لهم الشتائم ، ناعتا اياهم بالنهايين . حتى سمع جورج (ربما الجنة ايضا ، لانه توقف بغتة عن العريضة ، وجمد في مكانه ، وهو نصف منحني ويده ثوب امرأة او في الاقل شيء رخو لاشكل له رآه على خلاف الملابس الرجالية ، لم يكن ليتمكن من أن يتخذ معنى او أن يشبه شيئا الا اذا كان على جسم امرأة ، حتى لو كان هذا الجسم نفسه لدنا وعديم الشكل) الضجيج والوقعة المزدوجة القصيرة لحركة مؤخرة البندقية وهي في رواح ومجي . كان انجليزيا في تلك اللحظة ، هو ايضا يحمل بندقية الصغيرة المسددة على صدر الرجل وهو يقول بصوته الشاكي : (بل المنتحب المترعج اكثر من كونه مجرد متأثر المستسلم اكثر من كونه متهددا) : « واذا

أنزلتك ؟ هل تستقدم الشرطة ؟ بأمكناني ان انزلك بدون ان يثير هذا اية مشكلة . ماعلي الا ان اضغط على هذا الزناد ، لكي تضاف جثة اخرى الى عدد الجثث الاخرى التي بدأ الانحلال ينخر فيها على هذه الطريقة . ان جثة اخرى اكثر أو أقل ، فذلك لن يغير شيئاً البتة في الحساب . احترز الرجل من القيام بأية حركة ، بينما كان يمسك بيده قطعة القماش اللدنة التي لا يلقبها أبداً وقال : « هيا يا صاح . هيا . تعال . فلن ن... » كان جورج مايزال جالساً على كرسيه ، وهو بهيئة الرجل العجوز يعرض جسمه امام الشمس على مقعد ، داخل احد الملاجئ ، بينما كان يفكر : « انه لقادر على ان يفعل ذلك » . ولكنه كان دائماً بلا حراك . حتى انه كان يفتقر الى القوة على فتح فمه ، ماعدا القوة على التفكير بتأقل . « ان هذا ليحدث ضجة مرعبة لانطاق » . واذ كان يتأهب ويستجمع جسمه منتظرا اطلاق النار والانفجار ، سمع صوت ايجليزيا وهو يتشكى قائلاً : « اذن كف عن النحيب . فانا لم نكسر لك شيئاً ، وكل ما نطلبه هو ملابس لكي نتخفى فيها » ..

ثم خرجوا (ثلاثتهم ومن بينهم الرجل الهزيل وايجليزيا وجورج - وكانوا يرتدون زي عمال المزرعة . أعني أنهم لم يكونوا يشعرون بأية منغصات . وانما كانوا مستبشرين ، وكأنني بهم ، وهم يخرجون من قوقعتهم الثقيلة التي كان يشكلها الشرشف والجلد والاحزمة . يشعرون بأنفسهم عراة تقريباً عديمي الوزن في الهواء الخفيف) يطفون في ذلك المتسع ، في ذلك الفراغ والخلاء القطني ، وهم محاطون من كل الجهات بالضجيج او بالاحرى بالحسيس الهادئ ، ان صح القول ، الذي تخلقه المعركة . وفجأة طلعت ثلاث طائرات رمادية ، تلتقي على ارتفاع منخفض طيرانا غير سريع ، تشبه السمكات تطير متوازية طيرانا افقيا ، مع تفاوت طفيف في الارتفاع كان يجعلها تتأرجح وتصعد وتهبط صعودا وهبوطا لا يكاد المرء يشعر بها الواحدة تلو الاخرى ، تماما كالسمكات المتوجة في

التيار وهي تقصف الطريق هناك (كان انجليزيا وجورج والانسان الشبيه بالجنة واقفين لا يبرحون مكانهم ولكنهم لم يكونوا يفتشون عن مخبأ ، واقفين في الطريق الفارغ وكان السياج يحجبهم حتى منتصف صدورهم وهو ينتظرون . ففكر جورج : «لم يبق هناك سوى الموقى . بالغائبهم . انهم يطلقون النار على لا يمكنهم على اية حال ان يأملوا بقتلهم مرتين» . كانت الرشاشات تحدث طبطبة مكانن الخياطة ، طبطبة مضحكة لا يقتنع بها احد ، بطيئة جدا لا يكاد صوتها يشبه صوت محرك ابطأ المضحكات كهذا : طب .. طب ... طب ... ضائعا ، مخنوقا ، غريقا في الريف الواسع الجامد (لم يكن المرء من حيث كانوا يبصر شيئا يتحرك على الطريق) تحت السماء الواسعة الراكدة .

وبغثة هدا كل شيء : البيوت والبساتين والمروج المشمسة والاسيجة والغابات التي كانت تحجب الافق من ناحية الجنوب ، وصوت المدفع الهادئ يسمع ذات اليسار ، يحمله الهواء الحار الهادئ العليل المسالم هناك صبوراً كعمال عكفوا على هدم دار غير متسرعين لأكثر ولأقل .

وبعد ذلك بقليل ، اذا بجدران اخرى تحيط بهم او انها لم تكن جدراننا ، كانت شيئا فشيئا مغلقا على كل حال . فجلس جورج طوعا ، فيما حاول فه ولسانه وشفته ان تقول : «أفضل ان آكل شيئا . فاذا كان لديكم شيء يؤكل فأني ... لكن طلبه لم يسعف . فنظر يئاسا عاجزا الى الرجل الذي يشبه وجهه وجه الجنة وهو يتحدث مع المرأة الواقفة بجانب المائدة . ثم راحت المرأة وعادت فوضعت امامه القدح فأترعته (كان مخروطيا ناعم الحجم مقلوبا واسع الفوهة رفيع القاعدة) بشيء شفاف عديم اللون كالماء .

ولكنه هم بنفته حالما وصل الى فمه ، لشدة حموضته وحرافته . غير انه لم ينبذه وانما ابتلعه وعندما ارتشف طوعا محتوى القدح الثاني العديم اللون الشفاف الحريف المحرق بعد ان اترعته ، حاول مجددا (او على الاصح حاول ان يحاول)

ان يقول انه يفضل اكل شيء من الطعام ولكنه ، واليأس القاتل نفسه مستحوذ عليه ، اقتصر على ملاحظة ان الامر (اي طلب الطعام) يتعدى تماما قدراته . لذا فقد اكتفى بالانصات (او بمحاولة الانصات) لما كانا يقولانه . كما اكتفى بافراغ ما في المخروط الصغير المملوء سائلا عديم اللون محرقا .

وساءل نفسه هل سبق ان شرع الذباب يطن فوقه طينيه على الحصان الميت ، وفكر في الطائرات ثم عاد ففكر : «ولكنهم لم يستطيعوا قتله مرتين ؟ » حتى فهم انه اصبح سكران وقال : «لقد التبس علي الأمر بمعنى اني لم اعد اعرف جيدا اين كنت ولا ماذا كان يجري او هل كنت افكر فيه (هو الذي اخذ يتفسخ تحت اشعة الشمس وكنت اسائل نفسي عن موعد تغلغل التثانة فيه ، وهو لا يكف عن التلويح بسلاحه في معمة طنين الذباب السوداء) .

ام في واك ، ورأسه منحني على السطح المنحدر يحدجني بشكله المغفل وفيه المغفور على مصراعيه فبه الذي كان الذباب ساعثد جاثما عليه ، ناعم البال : لان مقاومته كانت قد انتهت بدون شك حيث انه كان قد فارق الحياة منذ الصباح عندما اردى الشخص المسلح الاخر احدا قتيلا في ذلك الكمين . وفكر : ياللاغيباء ، بالكم من اغيباء ، يالهم من اغيباء ، معتقدا ان الغباء او العقل ، في نهاية الامر ، لم يكن لهما دخل في كل هذا ، أود ان اقول ، فيما نتصوره أنه نحن اي تلك القدرة التي تجعلنا نتصرف ونكره ونحب ، بما ان جسمنا ووجهنا يستمران في التعبير عما كنا نتصوره خاصا بعقلنا . فسواء كنا عشاقا او بسلاء او جبناء او قتلة فهل ياترى توجد السجاياء والاهواء خارجا عنا ثم تأتي لتأوى بم عزل عنا تطلب رأينا داخل هذا الهيكل العظمي القظ الذي تمتلكه هي . لانه حتى الغباء نفسه كانت عليه مسحة من النعومة والدقة ، وان صح التعبير ، من الذكاء المفرط لاتسمح له بأن يكون صفة لواءك ، ربما اذن لم يوجد واك الا لكي يكون واك الغبي . على كل حال لم يعد بمقدوره الان ان يدرك ذلك . واك

ياله من ابله مسكين ! : تذكرت اليوم ذلك العصر الممطر الذي كنا فيه نستمتع باستفازاه ونحن نتشاجر بغية قضاء الوقت حول ذلك الحصان المريض .
لم تكن الشمس والحرارة كالان . واني اتصور لو انها كانت قد ماتت لكانت قد تحللت وذابت وتفسخت كالجثث التتنة . كان المطر يهطل بدون انقطاع .
فشرعت أفكر آتئذ باننا كنا كالعذارى او كالجراء الصغيرة رغم الشتا ثم والنداءات التي كانت تخرج من افواهنا ، عذارى لان الحرب والموت وأود ان اقول كل هذا ... » (كان ذراع جورج يرسم نصف دائرة ، ويده تتنحى عن صدره كاشفة تحتم داخل السقيفة المضطرب ومن الجهة الاخرى ، زجاج نوافذ وسخا والقاطع الخشبي المزفت لسقيفة اخرى مماثلة كائنة خلفهم - لم يكونوا يستطيعون رؤيتها ولكنهم كانوا يعرفون انها هناك - وكانت هذه السقائف المتشابهة قائمة هناك كل عشرة امتار تقريبا ، فوق السهل العاري في خط مستقيم واحد ، متشابهة كلها ، متوازية على جانبي ماكانت تظن الناس انه شارع او شوارع تتقاطع في زوايا قائمة ، مشكلة تخطيطا شبيها بلعبة الدامة .

كانت كل السقائف في اتجاه واحد ، منخفضة معتمة مستطيلة تفوح منها رائحة البطاطة التتنة الفاسدة ورائحة الفضلات البشرية الطافية عبر الهواء باستمرار مشكلة ، بدون شك - في رأي جورج - فوق المربع الواسع الذي كانت تفوح منه ، غطاء محكما غائطيا عنيدا شائنا ، حتى لكأنهم ، على حد قوله ، سجناء للمرة الثانية : اولاً لانحباسهم داخل هذا السياج المعدن الاسلاك الشائكة والممتد على اعمدة الصنوبر غير المقشر . وثانياً لأنهم سجناء قدراتهم (وسفالتهم : سفالة الجيوش المدحورة والمحاربين المهزومين) . كان جورج وبلوم كلاهما جالسان وارجلهما متدلية على حافة مضجعهما ، وهما يحاولان ان يتصورا أنهما ليسا جاثمين (لقد كان هذا مايزال سهلا جدا لانه يسهل على الانسان ان يتوصل الى اقناع نفسه بأي شيء كان عندما يناسب هذا الاعتقاد امنياته : ولكنه

يكون من الصعوبة بمكان بل مستحيلا ان يقنع به الجرذ الذي كان لا يني يلهم
بطنيهما (بحيث ان بلوم قال ان للانسان في زمن الحرب خيارا واحدا بين حلين :
ان يموت وتأكله الديدان او ان يعيش ويأكله جرذ جائع) . فكشطا قعر جيبيهما
أملين ان يحدا فيهما بقايا منسوبة من التبغ . فجمعا خليطا هائلا من كسر الخبز
وبقايا حشوات القماش المترسبة في زردات الخياطة ، حتى لتسائل نفسك
أبالامكان تدخين ذلك أم أكله : اعني انها كانا يتناقشان (اي جورج وبلوم)
حول مدى موافقة الجرذ على ابتلاع تلك الاشياء . ثم خرجا اخيرا : بالنفي وقررا
ان يحاولا التدخين : وكان حولهما ضجيج مستمر وضوضاء موحلة
مبهمة - احاديث ومساومات وخصومات ورهانات وبذاءات ومفاخرات
وتبادل الشتائم - كالتنفس (لم يكن هذا الضجيج ينقطع قط حتى اثناء الليل ،
ولكنه كان يصم نفسه بنفسه احيانا ، وكأنك تحت الرقاد نفسه تستطيع
الاستمرار في رؤية هذا الانزعاج الدائم والتحريك العقيم الذي لاجدوى منه
لحيوانات في قصص) الذي كان يملأ السقيفة .

كما كانت ثمة موسيقى واوركسترا وكان ردي ونفحات مستطردة تنبعث من
داخلها ، واوتار موزونة على آلات تتكون من بيدونات فارغة وقطع الالواح
الخشبية واسلاك حديدية مقطعة (لابل بانجوات اي قيثارات جلبوها وحفظوها
هناك الله اعلم كيف) تتعالى مقطعة من اعلى الضوضاء (ثم تنغمر محتنقة منصهرة
متوارية بين الضججات الاخرى- او ربما كان المرء هناك ينساها ، او مجرد انه
لا يعود يشعر بها) وكان النغم نفسه والرنين المتكرر والردة نفسها تتصاعد وتتردد
رتيبة متشكية بكلامها اللامعقول ورتابتها المستطردة المرحلة الملائى بالحنين :

ياجدنا : ياجدنا :

نسيت حـ : صا : ن : ك :

وعقب هذا للتو بنبرة اعلى :

ياجدنا : ياجدنا :

وكانه ابتهاج وتوسل وتضرع أو ملامة تهكمية هجائية أو تذكير أو تحذير أو شيء
لاعلم لنا به، لاشيء، دون شك، سوى كلام لا يحمل معنى. فالنوطات
الاستطردادية الخفيفة اللامبالية كانت في غمرة تردد لا يكل ولا يمل، وكأنني
بالوقت هو أيضاً لا يبرح مكانه، كوحل أو حمأ راكد. وكأنه محبوس تحت ثقل
غطاء الثتانة الخنثاق التي تفوح رائحتها من الاف والاف الرجال العفنين داخل
مهااتهم المنقطعين عن عالم الاحياء، ولكنهم مع كل هذا لم يدخلوا عالم الاموات
بعد: فأن صح التعبير، بين بين، وهم يسحبون كالجراحات المنهكة بقايا بدلاتهم
المضحكة التي كانت تخلع عليهم شكل قوم الاشباح، او الانفس المحجورة أعني
بها المنسية او المنبوذة او المشجوبة او الملفوظة من الموت والحياة معاً. وكأن لاهذه
ولاذك له تعلق بهم. حتى لكأنهم باتوا يتحركون ليس في اطار الزمن وإنما في اطار
(فرمول) اي مطهر قوي رمادي لا بعد له، أو في اطار العدم او المدة المجهولة التي
تخترقها بين الفنية والفينة تلك الردة الحينية، تردد هذه الكلمات الخالية من معنى
المستطردة الاكثائية :

ياجدنا : ياجدنا :

نيست ح: صا: ز: ك:

ياجدنا : ياجدنا :

وأنتهى الامر بجورج وبلوم الى ادخال قطعة ورق رقيقة مسطحة عديمة
الشكل بين شفاهها كانت بمثابة غلاف لحشوة قماش او نفايات اكثر من كونها
غلافا لتبغ، كانت ارق ومسطحة اكثر من عود تنظيف الاسنان. وفيما كانا
يستنشقان الدخان الحريق الذي يركم الانوف قال جورج:

(...كل هذه القذارة لم تكن قد قطعت وحطمت فينا بعد ماهو بمثابة غشاء
البكارة لدى الفتيات عندما يفتح الجرح، غشاء لن نجده بعد الى الابد، تلك

البكارة وهذه الرغبات البتولية الطازجة التي ترقب الفتاة التي لمحناها، الانتذكر عندما كنا نرصدها رافعين رأسينا دون انقطاع باتجاه تلك النافذة، ذلك الستار المشبك، عندما تصورنا أنها تحركت قلت لك هل رأيته. هاقد نظرت وأرتنا نفسها ثم اختفت ثانية. وانت اين رأيته؟ اما انا فقد رأيته، تالله، خلال تلك النافذة. وانت اين رأيته؟ أنا رأيته اخيراً هناك عند البيت الميني بالآجر فقلت لي انت: «أنا لأرى شيئاً» فقلت لك: «ما يزال الطاووس يحرك ذيله. كان هناك طاووس منسوج في الستار المشبك بذيله الطويل المزدان بعيون كثيرة كنا نستهلك عيوننا من فرط الرصد ونحن نواصل المضايقة لأمور تافهة. حاول واك ان يتصور ويتساءل لمعرفة جيشان الاهواء الخفي: لم نكن في وحل الخريف. لم نكن في أي مكان. كنا قد انتقلنا الى فترة ما قبل الالف سنة او الالفين او بعدهما، في عز الجنون عندما كان ملوك الاتريد اليونان يتسابقون عبر الزمن، والليل الغارق بالمطر يخيم على مطايانا الملهية خوافرها، بغية الوصول الى مخدعها ومباشرتها لكي نجدها دافئة نصف عارية بيضاء كالحليب، في ذلك الاصطبل، وتحت ضوء ذلك المصباح: اتذكر أنها حملته لأول وهلة ورفعته الى طرف ذراعها. ثم وفيما شرعنا نحن نخل السروج، خفضته رويداً، رويداً ربما لأنها كانت تعب، بحيث ان الظلال كانت تدور تدريجياً على محياها ثم تختفي متوارية، وكأنها لم تنتظرنا هناك الا لكي تتوارى عنا فوراً بعد ذلك، ونحن في بدلتنا العسكرية التنكرية المبللة كالحساء نصمت في الصباح الرمادي الاسفنجي للصيحات والاصوات والغضب الغامض وهؤلاء التراجيديين المرتدين بدلات العمل الزرق التي تغطيها مظلات، وهم يتخبطون في زهم واحذيتهم المطاطية السوداء المرصعة برقع حمراء فيما كان الاعرج المغضوب عليه يحمل بندقة الصيد التي كنت اتصور دائماً انه قتل نفسه بها، أثر حادثه، خرجت الرصاصة منها تلقائياً فصرخته بدمائه واخذ الدم ينساب الى صدغه (كانت فترة تنطلق فيها الرصاصة تلقائياً وتفرق في وجهك بدون ان

تعرف لماذا) ولكنه ربما كان يريد مجرد أن يطلق رصاصته، شأنه في ذلك شأن الجميع. فقال واك: «تحسب انك ذكي. اما انا فلست سوى فلاح مسكين- لست سوى يهودي انا ولكن» فقلت له: يالك من غبي، يالك من ابله، يالك من مغفل «فأجابني: ولكن كوفي من الريف او يهودي المدينة لا يبيع لك ان...» فقلت: الله!. يالك من غبي، يالك من ابله. اما واك فقال: انك لا تخيفني، هل تدري. فأجبت: «بالله». وبعد ذلك صعدنا الى ذلك المقهى الواقع عند محيط القرية اعني عند مستطيل الوخل الاسود حول المسقى الذي داسته الجياد والبهائم، المسقى الذي كان بمثابة ساحة. جلسنا ثم عادت فلاءت الاقداح ووضعها امامنا. فقلت انا: «لا، لأشتهي شكراً. لان رأسي كان يدور. اذكر انها كانت صالة واسعة، سقفها المنخفض مبلط، وجدرانها مصبوعة باللون الازرق الذي نخره ملح البارود. كان فيها قرابة عشر مناخذ وبيانو آلي وخزانة غرفة طعام منخفضة طويلة. وعلى الحائط كنت تقرأ قانون منع السكر العلني، وقد اصفرت الورقة التي كان مدوناً عليها ذلك القانون واكست بذرق الذباب وبأعلانات المشروبات الروحية والبيرة مع الغيد الحسان المحمرة شفاههن فيما يتكلفن الحركات او مناظر مصانع البيرة المصورة بالطائرة من أعالي الجو، يتصاعد الدخان من مداخلها، حيث تظهر سطوحها الحمراء او لوحتين مطبوعتين بالحجر الملون تمثل احدهما مركيزات يرتدين ثياباً زاهية الالوان في حديقة متلاشية المعالم، والاخرى تمثل جمهرة من الاشخاص يرتدون زي عصر الامبراطورية الفرنسية في صالون اخضر ذهبي، ترى فيها الرجال منحنين على اكتاف النساء المستندات على متكآت مقاعدهن، وهم دون شك يغازلونهن كما كنت ترى ايضاً احد ملفات الصحف المجدول من السلك الحديدي المتصدي. وعلى الخزانة الالفة الذكر وعاء تحيط بعنقه ياقة صغيرة مكشكشة ومثلومة. ولكننا لم نذهب هناك طلباً للشرب وانما لمشاهدة الفتاة وتلك القوضى وتلك الصرخات وذاك الصخب

الملتف حول ذلك اللحم الذي لمحوه مجرد لحظة واحدة وتلك القصة الغامضة التي ظنوا ان امرها مشكوك فيه وانفلات العنف هذا الخائق القائم في عز انفعاله ، وذلك الاعرج والشخص الآخر اللذين كانا يحتذيان مداساً متشابهاً مرقعاً برقع تصطدم بالوحشية وعدم الاتزان هذا. كانا غريبين عنهما وعنا وغير مفهومين بالنسبة اليهما. والينا ، فيما كان ماجرى لهما قد تعداهما واجبرهما على ان يحذر كل صاحبه ، وهما يرميان بنفسيهما في التهلكة ، بمعنى ان احدهما كان مستعداً (او لاهثاً بالآخرى تحرقه الرغبة ، او الاخرى الحاجة او بالآخرى الضرورة) لارتكاب جريمة. والآخر كان هو ايضاً متأهباً لان يكون الضحية ، وذلك رغم جبنه والخوف المشهود الذي كان يجعله يستتر وراء ظهر شخص آخر ، بينما كان دي ريكسكاس حكماً بينهما او كان يبذل قصاره لتهدئتهما وهو مترم صبور غائب لا يمكن اقتحام اسراره وهو بينهما. هو الذي كان للالم او بالآخرى للمعاناة في نظره شكل يختلف عن اقرانه او اترابه ، شكل فارس سباق مع رأس مهرج. لم نسمعه قط يرفع صوته مرة ضده ، شكل كان يلزمه على مرافقته كظله ، مثلما كان يفعل الآشوريون القدماء ، حيث كان القوم يذبحون فوق جنازتهم حورية او حصاناً او عبداً عزيزاً لكيما لا ينقصهم شيء ابداً ، ولكي يكونوا مخدومين في العالم الآخر الذي يواصل فيه هو وايجليزيا بدون شك تبادل حديث صامت شحيح حول الموضوع الوحيد الذي ربما يستهويهما كليهما ، اعني بذلك موضوع وجبة شوفان او حدوث سخونة في العرقوب. وبهذا يكون قد نجح في النصف الاول من البرنامج اعني قتلها هو والحصان معاً. ولكن هيات ان ينجح في النصف الثاني الذي كان يعلق عليه الامل لكي يسترسل في النقاش الى ابد الابدتين بشأن التهاب رسغ الفرس او افضل النعال. ثم يدبر الرسن في اللحظة الاخيرة فيتركه فريسة للذباب ، تحت اشعة شمس آيار التي تعمي الابصار حيث تلاثاً حديث السيف المسلول. لحظة ، ثم اترعت لي مرة اخرى قذحي المخروطي الصغير بشراب

ثمر العرعر، وهي تقدمه لي بطريقة اصولية هادئة مشهودة، اعني انه يطفح قليلا كما هي العادة. بحيث ان سطح السائل ينتفخ مكوناً بفعل قاعدة الاواني المستطرفة - اعتقد ان هذا هو اسم الظاهرة - انتفاخاً خفيفاً كالعدسة على حافة القدح المرتجف، فيما كنت ارفعه بحذر شديد حتى شفتي، ويدي ترتجف، والضوء الفضي يتألق ويرتج مع السائل عديم اللون الذي كان يسيل على اصابعي ويحرقني اذ كان ينحدر في حلقي...»

فقال له بلوم: «مالذي تحكيه؟ هذه هي المرة الاولى التي اجد فيها شخصاً يمضي مشوار اسبوعين لكي يصحو من سكرته....»
توقف جورج فجأة، فيما كان يمشي. فحدجه وهو حيران لا يصدق خبره. فبقي كلاهما هناك وسط الضوضاء المستمرة بحيث انهما لم يعودا يسمعان حتى هدير البحر.

فقال بلوم: «لم يكن المشروب من ثمرة العرعر هذه المرة» كان قد اشتعل ورقها المشمع اعني انه تقلص الى انبوب لا يتجاوز قطره ستمترا ، انبوب مسطح فارغ ابيض او الاحمر رمادي ، في المكان الذي ضغطت عليه شفاهها ، ثم عاد فأصبح اصفر تدريجياً ، فبنياً ، فستناً ، ومزقاً ، واسود ، ورغم كونه يعرف انه لم يبق شيء يمكن الحصول عليه منه ، فأن جورج حاول تلقائياً ان يأخذ مصتين او ثلاثاً ، ولكن عبثاً ، فلم ينبعث سوى صوت مزعج من سداة .

ثم قرر اخيراً ان يأخذ من شفتيه عقب السيكاارة الهزيل المشوه ، ولكن بدون ان يهم برميهِ ، وانما بقي يتفرس فيه حيران ، متوقفاً فرصة مصه مصة او مصتين على حساب عود ثقاب ثمين وهو يقول : «ها ! ماذا؟» فأجابه بلوم : «لم يكن من ثمرة العرعر ، وانما من قبيل المشروبات الساخنة . لقد كنت قبيح الشكل فأتخذت من هذا ذريعة لكي تصعد الى مقهى القرية ، اعني انك لم تكن تكثرث

لقبح شكلي او لجماله ، وانما بالاحرى اعتقد انك تتصور من قبيل المجد الباطل محاولة جعل صاحب المقهى يعترف بمحجة البحث عن غرفة لصاحبك المسكين قبيح الشكل الذي كان يستحيل ابواؤه في مستودع للحصيد ، تكثرفيه التيارات الانثائية ، في الوقت الذي كان جل مايمه هو التقاط النائم المشاعة ضد هذه البنت وهذا الاعرج اما بشأن صديقك المسكين ...» قال جورج : «آه ، حسن ، حسن ، حسن ، حسن ...» ثم عاد فارتشف فنجان القهوة والظلام يضرب اطنابه ، و... اب البخار ينبعث من ثغريها عند كل كلمة ينبران بها ، لانكاد العين تراه ، في الضوء المعاكس ، عندما يمران عبر ضوء نافذة منيرة صفراء فقال بلوم : «لو كان حدسي صحيحا فأن هذا الاعرج رائد الرماية بالبندقية يعاني من الغرام» . فسكت جورج ، فيما كانت يدها في جيبه ، يحترز من السقوط في الوحل الذي لاتراه العين . فقال له بلوم : «ذلك المساعد بمظلمته وحذائه المرقع ! عاشق القرية !» .

من تراه كان يسدق هذا ؟ هو وقدح الحليب هذا ...» فبادره جورج قائلا : «انك تخلط الحابل بالنابل : ليس معها ولكن مع اختها» ، فأجابه بلوم : اخ... به . وبعد خنق شتيمة في فمه ، تدارك نفسه وهو يمسك بكتف جورج ، فترنحا هنيئة ، وكأنها ثملان ، ثم طفقا بمشيان وسط الظلام الجامد يتصببان عرقا ، والظلام يشتد حلكا ، كلما كانا يتبعدان عن المرأة وعن الابواب وعن النوافذ المنيرة ، حتى يبلغ بهما الامر الى ان لايرى احدهما الاخر ، والى ان لايعود شيء يمثلها سوى صوتهما ، فيتجاوبان في الظلام ويتبادلان عدم اكتراث كاذبا وانسراحا كاذبا ووقاحة الفتیان الكاذبة هذه :

- لم اعد افهم من الامر شيئا .
- أنت اذن اشد حماقة من واك . اني لأراهنك انه فهم منذ وقت طويل .
- أشد حماقة من واك . خير ، خير . ولكن كرر ذلك ، كان (اقصد هنا

المساعد ، ذلك الشخص الذي راح في ذلك الصباح ، وهو متدرع بمظلة وبالجبن الذي يمتاز به وبوقار الضابط ، يستهزئ ويتحدى قرينه الذي كان هو ايضا يحمل بندقية) ينام مع شقيقته التي كانت زوجة ذلك الاعرج - اليس صحيحا ؟

- أجل

- ولكنهم سكنة ريف ولايصح ان ؟

- أجل .

- أخواتهم والمعزى اليس صحيحا ؟ يبدو انهم اذا تعذر حضور شقيقاتهم ، يفعلون ذلك مع معزاهم . هذا ماتدعيه الناس على اية حال . لعلهم لايجدون في ذلك حرجا ولافرقا .

- لم يكن رجل المقهى يبدو شديد التمييز بين امرأته وكلبه .

- لعله كلب استحال امرأة .

- لعله .

- انهم يعرفون توجيه النصب السيئ الى غيرهم . ولكن لسوء الحظ هذه المعرفة تزول . لقد كانت ملائمة لهم .

- اذن فقد قلب عثرته الى بنت او شقيقته الى عترة . فقال فولكان : اعني ان هذا الاعرج تزوج فتاة معتزة الرجلين وكان الجدى يأتي يواقعها في بيتها ، اليس كذلك ؟

- هذا ما قاله .

- لقد كان اذن حليب عترة ؟

- من ؟

- تلك التي كانت في هذا الصباح في الاصطبل ، تلك التي تختبئ وراء ذلك الطاووس الخرافي ، تلك التي اغرقتك رؤيتها في ذلك الهذيان المبرم الشعاري

الباهض الثمن بما انه كان عليك ان تدفع ثمن نصفي لتر من البيرة عن سكير البار حتى تـ ...

يا الله ، انك بالتأكيد اشد غباء من واك . فقد قلنا لك الف مرة انها كانت زوجة اخيه .

(لايستطيعون رؤية المطر وانما سماعه فحسب وتصوره وهو يهطل ، صامتا صبرا ماكرا ، في وسط ليل الحرب الحالك ، مبتلا من كل جهة فوقها وعلى رأسها ، حولها وتحتها ، وكأني بالاشجار اللامرئية والوادي اللامرئي والتلال اللامرئية والعالم اللامرئي بأسره تذوب كلها شيئا فشيئا ، وتتفرق شذر مذر ، لتصبح ماء أولا شيئا او ظلاما دامسا جامدا . فأرتفع صوتهما المطمئنان طمأنينة كاذبة والساخران سخرية كاذبة وتغالبا وكأنهما يريدان التثبث الواحد بالآخر ، وان يطرد احدهما الشياطين بواسطة صاحبه ، وهو يطلق التعاويذ لابعاد الخراب الاعمى الصبور الذي لانهاية له . فأخذت الاصوات تصرخ وكأنها صوتا حبيبين متبجحين يحاولان استمداد الشجاعة :)

تبا لك ! أي أخ . تبا لك ! واخيرا ماهذه الحكاية ؟ اذن كلهم اشقاء وشقيقات اي انهم تيوس ومعزى . اذن تيس وعترته . وهذا الاعرج الشيطان الذي تزوج العترة التي كانت تتعاضل مع اخيها التيس الذي ..
- ولكنه بعد ان قضى منها وطرا طردها او بالاحرى طلقها .

- طله ... كيف تقول ذلك ؟

- طلقها .

- لانتزح . اذن الحال كما في المسرح .

- نعم .

- حسن جدا . اذن فقد دامهما (فولكان) وقبض عليهما كليهما مطبقا عليهما الشبكة و ...

- كلا فقد قال الشخص انها كانت ملأى

- ملء ...

- قال انها كانت ملأى كالبقرة . الا تفهم ، هل تريد ان ارسمها لك .

- لقد قلت ان الامر كان يتعلق بعثرة . ولم يكن يحتاج الى جداء تبعها في

المعرض ؟

- لعله كان يؤثر بيع عرجان صفار .

- لعله . وبعد ذلك كرر الاخر العملية .

- من ؟

- التيس .

- نعم ولكن هذه المرة مع امرأة ذلك الذي هو جندي .

- لعل معزى العائلة تعجبه .

- لعل . ولهذا السبب يحرسها الاخر ببندقية .

- ولهذا فأن هذه البندقية قد تتوق الى ان تتحرر منه وتنطلق تلقائياً . يا لله .

يا للظلام الدامس . هاقد وصلنا . هو ذا النور .

(واذ رأيا الآخرين جالسين لا يبرحون ، مكانهم حول الحصان المنازع ،

ينيرهم المصباح الموضوع على الارض ، التفتوا عندما دخل جورج وبلوم ،

فانقطعت اصواتهم وحملقوا في القادمين ، فادرك جورج حينئذ انهم كادوا

ينسون الحصان ، وهم يسهرون عليه سهر العجائز على الموق . كانت جلستهم

نصف دائرية ، على نقالات او سطول ، وهم يتندرون باصواتهم احادية الوتر

الشاكبة الخرقاء باقاصيصهم المألوفة التي تدور حول الحصاد الذي أتلفه سوء

الاحوال الجوية ، وحول اسعار الحنطة الشمندر وحول صفات توليد البقر ،

وحول المآثر الهرقلية التي كانت تقوم بتعداد اكداس التبن واكياس الحب المحمولة

والحقول المزروعة ، بينما كان رأس الحصان الراقد على منكبه يبدو متمددا ، تحت

بصيص نور الصباح المنخفض ، ويتخذ هيئة كوارث مرعبة ، ومنكباه المحلقان يرتفعان وينخفضان بسرعة يملآن الصمت بنفسه ، وعينه المخملية الضخمة تعكس دوما نصف دائرة الجنود ، وكأني به أصبح يجهلهم ، ويستشف خلاهم شيئا لا يستطيعون مشاهدته فقد كانوا كالأشباح الصغيرة المتقلصة التي كانت ترسم وتنطبع على عدسة عينه الصغيرة انطباعها وارتسامها على صفحة الكرات السمرء الذهبية التي تبدو وكأنها تقتنص وتنشق ، في منظور مشوه يدفع الى الدوار ، وتبتلع في داخلها ، العالم المرئي كله بأسره . وكأني بالحصان غاب من هناك ، رافضا تاركا مسرح هذا العالم لكي يجيل طرفه ويركزه على رؤية داخلية تدعو الى الراحة اكثر من جيشان الحياة المستمر ، وعلى حقيقة هي احق من الحقيقة . فقال بلوم : «ماخلا حقيقة الموت . هل هناك حقيقة اخرى أحق ؟» (اخترق جماعة الجالسين بدون ان يتكلم ، وراح صوب سلم الهري يتلمس في الظلام ، مبرطما في الشوفان لكي يعيد النظام الى الحافه) فقال جورج :

«حقيقة وجوب تناول الطعام . ألسنت تنتظر الحساء ؟» فاجابه بلوم وهولانيي يتمم بين اسنانه قائلا : «تصورني قبيحا مضطرب الهندام . فقد ساعدتك حالتي مساعدة كافية لجعل صاحب المقهى يعترف . وكل هذا في سبيل فتاة مزرعة لاوحثها مدة خمس دقائق تحت بصيص مصباح . يجيل الي اذن انك كنت تستطيع في الاقل ان تتذكرها ، أليس كذلك ؟» فقال له جورج : «اذا كان عليك ان تموت فمالك نفسك في الاقل بعض الوقت ، حتى يكون موتك مجزيا ،» فاجابه بلوم : «ما الأفضل : الموت يرذا ام الموت مطرزا بوسام ؟» فقال جورج : «امهلني أفكر . الموت عشقا ؟ فأجابه بلوم :

«لاوجود لمثل هذا الموت الا في الكتب . ولطالما قرأت انت كتباً» ثم باتا ثانية في الظلام الدامس وكان صوتاها يتجاوبان :

— لماذا ؟

- لانه يدري انه سوف يموت .
- لايعرف شيئا البتة .
- بلى انه يعرف بالفطرة
- كم من امور تعرفها بالسليقة ؟
- اعرف في الاقل واحدا الا وهو انك تزهقي .
- حسن . ماتراه اثنى في رأيك جلد حصان ام جلد انسان ؟
- انت تعرف ماهي البورصة . فالامر يتعلق بالظروف .
- على ان هناك اشارات .
- بخيل الم ان كيلو لحم الحصان اثنى في الوقت الحاضر من كيلو لحم الانسان .
- هذا ماكنت اتصوره انا ايضا .
- عليك ان تفكر بعقلية هؤلاء الفلاحين الذين يقيمون البضاعة بالوزن .
- هذا صحيح لأن كيلو واحدا من الرصاص يزن اكثر من كيلو ريش ! كل الناس تعرف هذا !
- كنت اتصور انك مريض
- لم تخطئ . دعني أتم واستسلم للراحة .
- ثم هبط جورج السلم ، وعاد فاقتحم رويدا رويدا برجليه ، نور المصباح المصفر الذي كان يصعد الى ساقيه وصدره ، وانتصب وسط النور ، وهو يغمز بعينيه غمزات خفيفة ، فيما كان يحس بالحاذق مسيطرة عليه (اذ لم يبق سوى اثنين : انجليزيا وواك) وبعد وقت يسير قال انجليزيا :
- «ماذا حل به ، هل هو مريض ؟» كانا مشرئين صوبه بعينيهما المتسائلة الواجمة ، ووجهاهما يسبحان في النور المسرحي الذي يطلقه المصباح الموضوع على الأرض ، وكأنه يذكّرنا بفزاعة الطيور . فقد كان وجه انجليزيا اشبه برجل

سرطان البحر . (أنفه وذقنه وبشرته الجافة قليلا) هذا اذا كانت لرجل السرطان عينان . وقد كانت تقاطع وجهه الابدي الاكفهرار والاكتئاب ، ابدي الاكفهرار والاكتئاب ، لاسيما انه لم يعرف قط ماهو الحزن وما هو الفرح . كان ثمة واك بوجهه المستطيل الغبي ، وبهيكله العظمي الجامد ، بهيئة القرد المقعي ويديه المضطربتي الابعاد المشققتين وقد تداخلها الطين وكأنهما خشب منجزع القشرة او ادوات مستهلكة وهما متدليتان لا حراك فيها بين ركبتيه . فhez جورج كتفيه . واخيرا قال واك بصوته ، صوت المغفل : «هذه الحرب» بدون ان يستطيع احد ان يعرف هل كان يفكر بيلوم المريض او بالحصاد والغلات المفقودة او بالاعرج المحتقر الذي يشهر بندقيته ، او بالحصان او بالبنت التي لازوج لها ، او لعله كان يفكر بهم هم الثلاثة الذين كانوا هناك وسط الليل ، حول ذلك المصباح ، او حول البهيمة التي كانت تحتضر وعيناها شاخصتان تروعان من ينظر اليها ، وتصبران صبرا مربعا ، ورقبتها كانت تبدو ممتدة وهي تسحب العضلات والرسغ ، وكأني بثقل الرأس الضخم كان يمرها خارج المحمل في الظلام ، حيث تهول الجياد الميتة وقطيع الافراس العجوزة البليدة السوداء المكلفة بمهمة عمياء ، تجاهد مسرعة للتسابق ، قاذفة برؤوسها الخاوية الى امام ، وسط عاصفة من طقطقة العظام وخيب الخوافر المتصادمة : اشبه بكوكبة افراس بليدة شاحبة يمتطيها فرسان شاحبو اللون هم ايضا موتى ، شظاياهم لا يكسوها سوى جلد ، يتأيلون باحذيتهم الضخمة وبمهاميزهم المتصدئة التي لاجدوى منها ، تاركين ورائهم خطا من الهياكل العظمية البيضاء التي يبدو ان انجليزيا يحدق فيها متأملا ، وقد دخل في صمته الازلي ، وعينه الكبيرة الشبيهة بعين السمكة تعلوها امارات الحيرة والصبر والاهانة ، وهي الامارات الوحيدة التي عنت له في تلك اللحظة ، او الوحيدة التي علمته الحياة اياها ، ولعله تعلمها ايام كان يتنقل من اجتماع الى اخر في الاقاليم ، راكبا هذا الحصان الشموس او ذاك

حصان السباق الرديء اللذين لا يمكن توقع خير منها ، على حلبات السباق التي غالبا ما كانت مجرد حلبات ليس غير مع رموز لمنابر خشبية نصف منخورة واحيانا لاجود للمناير اطلاقا ، وانما مجرد مرتفع أو سفح تل كانت الناس تتسلقه مع ثلاث سقائف من صفائح قريية الشبه باكوخ حمامات ، مع مكتب مقصوص بالمنشار لتسلم الرهانات ، ورهط من الشرطة مكلف بمنع باعة الحيوانات والقصابين الملائى جيوبهم بحزم من الاوراق النقدية والمزارعين الذين كانوا بمثابة جمهور ، يمنعونهم من محاكمة الفرسان الخاسرين محاكمة صورية . بينما كان يركض غالبا تحت المطر ، نازلا من جواده المبلل المتسخ من اخمص القدم الى قمة الرأس ، حاسبا نفسه راضيا تمام الرضى ، او استطاع الخروج فقط بسروره الوسخ ، لكنه غير ملوث يفصله بنفسه مساء في مغسلة غرفة فندقه . هذا ان لم يفعل ذلك في مسقى احد الاصطبلات التي ارادوا ان يمحزوا فيها مربطا لفرسه مع وسادة من تبن تكفيه مؤونة النوم في الفندق ، واحيانا مع مجرد صندوق من الشوفان . هذا لم يكن ايضا قد ديس معصمه اوشظية رجله او لم يتلق سوى الشتائم بدلا من الضربات . وقد كان يعود فيلبس في احدى الكابينات داخل ناقلة الافراس ، وقد لف معصمه بلفافة عتيقة سوداء سواد حائط مصنع تقريبا ، ومطاطة تقريبا ايضا ، مثل شبكة دم سائل ، دون ان يحذر ولو قليلا ، تماما مثليا لم يحذر (او ربما لم يشعر) بقبضة اليد التي اقلحت في المرور فوق اكتاف الشرطة او بينها ، حتى بدون ان يكثرث هو (ايجليزيا) اوهم (الشرطة) واحتمال عدم الاكتراث اقوى عند الشخص صاحب تلك القبضة بالاسباب او بالاحرى بصحة الاسباب التي قد تكون عند المعتدي ، على ان السبب الحقيقي والصحيح الوحيد كان ان ايجليزيا قد ركب حصانا خاسرا لا أكثر ولا أقل : وقال : « لأنهم كانوا قلما يعبأون بالباقي ، كل الباقي ... » (كان هو ايضا جالسا على حافة مضجعه ، وساقاه متدليتان ، ورأسه محني وقد غرق كل كيانه في احدى المسائل

الغامضة الدقيقة التي كانت تبدو في الظاهر ضرورية ليديه ضرورة الغذاء للمعدة ، كان يستثير هذه المسائل عند الحاجة ، عندما لم يكن له ان يدهن رسنا او يصقل ركابا (كان جورج يحاول دون جدوى ان يتذكر فرصة واحدة يراه فيها غير مشغول ، اعني انه لا يسحق او يحطم احدى عدد الرواحل او احدى الجزم او ماشئت من اشياء من هذا القبيل) اما الان فقد كان مايعالجه خيطا وابرة وزرا يخطه ، بحرص بالغ في سترته وسط ذلك القطيع السيئ الهدام الرث الثياب . حيث كان ألهم الوحيد لكل واحد وللجميع تعليق زر مفقود او خياطة منفرطة . فقال وهو مايزال منهمكا في عمله : « ... لم تشهد الناس قط شخصا راهن على السباق يعتقد انه خسر ماله او نقصته الشجاعة او لانه اختار حصانا رديئا بدلا من اعتقاده انهم سرقوه منه اثر المؤامرة ... » ادرك جورج حينئذ انه مازال يتأمل في عقب السيكارة ، او بالاحرى بالورقة المصفرة المدعوكة . فhez رأسه كمن استسلم للرقاد توا ، فيما امتلأت اذناه ثانية (وكأنني به رفع يديه اللتين كانتا مطبقتين عليهما) بالصخب الموحل المتناثر الدائر داخل السقيفة . ثم قرر اخيرا رمي ما لم يبق فيه اية علامة لعقب سيكارة . وقال : « من حسن حظك انت انها كانت تهوى ركوب الخيل . والآن أستطاع احد القصابين الصغار يوما ان يضرب بكل قوته ، أليس كذلك ؟ » فأدار ايجليزيا كل وجهه نحوه ، ولكن بدون ان يرفع رأسه ، فتفرس فيه ورقبته معوجة ونظرته شزراء ، وعليه امارات الحيرة والذهول التي تلازمه ابد الدهر (لم تكن امارات شك او عداء وأما مجرد الحيرة والاكفهران) . ثم كف عن النظر اليه . وتنفس الصعداء وهو يفحص الزر الذي اعاد خياطته ، فمسحبه ثم طفق يضرب سترته براحة يده ، فيما كان يطويها وهو يقول : « أجل . ذلك محتمل . ربما كاد الحظ يكون اوفر لو اكتفت بالنظر اليها وهي تهول ... » ثم بعد ان أكمل طي سترته اربع طيات ، لفها بأعتناء ، فتوسدها ثم نزع حذاءيه ، وضعها عند حافة سريره ، وارتكز على ردفه

واستلقى . وفيما كان يجتذب معطفه قال : لو اوقف هؤلاء الحمقى جلبتهم عسانا نستطيع ان ننام ! » ثم التفت الى جانبه ورفع ساقيه وأغمض عينيه ، فيما كان وجهه المبقع الاصفر المحروم من النظر عديم التعبير ، وكأنه قد قُذ من ورق مقوى ، من مادة غير حساسة ، مينة ، ربما بسبب القدرة التي كان يتمتع بها ، قدرة عدم التفكير (وعدم الكلام ايضا) اكثر مما هو ضروري فقط . وعندما قرر ان ينام (لاعتقاده ان افضل مايفعله المرء عندما يكون خالي البطن وقد انجز كل صغائر حاجاته من ازرار وترقيع وتنظيف هو أن ينام) لم يعد يفكر آلبته ، كان وجهه الشبيه بوجه المساييف قد اصبح محايدا تماما وغائبا شبيها بأحد اقنعة الموتى الازتيكيين او الانكاويين متربعا ، للاحراك فيه ، لا يخترقه لافكر ولا نظر ، خاليا على سطح الزمن ، اعني وسط ذلك الانزعاج والاكفهرار الذي لاحدود له والذي كانوا ينامون في ظله ويستيقظون وينبطحون وينعسون ثم يصحون بدون ان يطرأ اي تغيير على رتابة حياتهم . اذ لا يميزون بين الامس واليوم والغد ، ولا يشعرون بالوقت وانما بالمكان فقط (كصفحة لوحة زادها الملحم والوسخ وعمته يكشف عن اسرارها رسام لاحق محاولا ومجريا في هذه النقطة منها او تلك وعلى قطع صغيرة مختلف انواع المنظفات) ذلك المكان الذي كان جورج وبلوم يعيدان بناءه شيئا فشيئا ، قطعة قطعة ، كلمة صوتية فكلمة صوتية منتزعة الواحدة تلو الاخرى بالخييلة والحداد (فقد كان قوام التكتيك ، نوعا ما ، اجباره على النطق ، عن طريق طرح شتى اشكال المعاني الضمنية ، امامه والافتراضات الى ان ينتهي به الامر الى الاعراب عن صجره وعبسه وسليبيته واستسلامه) كل القصة منذ اليوم الذي كان يلبس فيه في احد المنازع الرديئة التي خلع فيها ملابسه وعينه محمرة وشفته مفطورة جريحة عندما اقترح عليه المدرب الذي كان ذي ريغسك قد استخدمه ، ان يركب الفرس بضع مرات (لانه ظاهريا لم يكن فارسا رديئا : لعل الحظ لم يسعده ، لحد ذلك الوقت وقد كان المدرب يعرف هذا) الى اليوم

الذي وجد فيه ان الشخص الذي استخدمه قد استبدل ، وقد جرى كل هذا الآن امرأة او بالاصح صبية قد قررت ذات صباح ، ان تقتني هي ايضا اصطبلًا لخيول السباق ربما خطرت الفكرة ببالها على اثر قراءة احد المجلات التي تبدو فيها النساء الورقيات الجامدات بشكل طيور طويلة الساق ، لسن متزينات وانما منهدمات فقدن انوثتهن وكأنهن قد استحلن بفعل الرجل الى مجرد خيوط حريرية :

شبح مقطع بارز المعالم ، وقد انتصبت اظافره وعقباه بحركات حادة ، له حوصلة تشبه تماماً حوصلة الطائر الطويل الساق كالنعامة ، تيسر له ليس الهضم فحسب ، ولكن ان يستأثر ايضا باختراعات مبتكر ازياء مشهور بكرهه للنساء ، وان يحولها ، نوعاً ما ، الى عكس ما كان يرمي اليه مبتكر الازياء : ليس شبحاً بالغ التعقد مسطحاً جامداً ، وانما هو تجانس الحرير والجلد والحلي واللحم الزغبي الطري بحيث ان الجلد والحرير البارد والحلي الصلبة تبدو وكأنها اصبحت هي ايضا شيئاً فاتراً طرياً حياً .. - كان قد قرأ ذات يوم ان الاناس الانيقين حقاً كانوا يفرضون على انفسهم وجوب اقتناء اصطبل سباق لانها من الواضح تماماً انها لم يسبق لها ان رأت حصاناً طول حياتها وقد روى انجليزيا عنها إنها اعتقدت العزم يوماً على ان تتعلم ركوب الخيل هي ايضا : كان دي ريكسكاف قد ابتاع لها متعمداً حصاناً اصيل . وكان انجليزيا قد رآها تأتي ، كل يوم صباحاً خمساً او ست مرات مكلفة وحدها ما يضاهي ثمن الحيوان الذي كانت تحاول ركوبه . اما هو الذي كان في الحقيقة بعمر والدها كان يبذل قصاره لكي يشرح لها ان الحصان ليس تماماً سيارة سباق مكشوفة السقف كان يشرح لها ذلك بهيئته التي لاتتأثر بشيء ، المطبوعة على الصبر والحياد كما ان الحصان ليس خادماً ولا يسلك سلوك الخدم ولا يطيع طاعتهم : أن هذه الحال لم تدم (ويقول انجليزيا لعل ذلك لأنه لم يرق لحيوان قط ان يركب ظهر حيوان اخر كما لم يرق له ايضا ان

يشتم رائحة حيوان اخر على ظهره اللهم الا في ملاعب السيرك ، لانه بعد ان أسقطها من على ظهره مرة او مرتين عدلت عن رغبتها تماما مثلما لم يدم تحمسها للسيارة الايطالية وعليه ومنذئذ ، بقي الجواد نصف الاصيل في الاصطبل ، مما اضاف رقما جديداً الى عدد الخيل التي تناس وتنتزه ، واذا ما عن لها ان تخرج يوما بسر او يلها الفروسية وجزمها التي كانت اغلى من الحصان الذي كان من المفروض انهن سمحن لها بركوبه فذلك لأنها كانت مدفوعة بدون شك بداعي لذة عرض نفسها وهي راكبة على الحصان نصف الاصيل الذي كان ينتظر ساعة او ساعتين (كان هذا عموما معدل الفترة بعد تسلم النداء التلفوني بوجوب تهيئته) قبل وصولها وهي تضعيع الوقت داخل الاصطبل ثم تنصرف (لاتنصرف غالبا في سيارة السباق التي لم تعد تلتذ بها كثيرا وانما داخل ما يشبه سيارة نقل الموق الكبيرة كالفرقة ، يقودها سائق ، وعلى مقعدها الخلفي كانت جالسة صغيرة الحجم كأنها برشانة القداس (اعني كأنها شيء غير واقعي ، ذائب ، لا يمكن تذوقه ولا تمكن معرفته ولا أقتناؤه الا بواسطة اللسان والفم والابتلاع) في قلب احد شعاعات عرض القربان الضخمة والثمينة) بعد ان كانت توزع قطعة او قطعتين من السكر. وطالبت برؤية الحصان يركض ، قبل موعد هروله يوم الاحد التالي. واذا كانت تطالب بذلك كانت تحمل بيدها مقياس زمن من الذهب الخالص الذي لم تكن ، لحسن الحظ تحسن استعماله .

وحكي انجليزيا انه عندما رآها للمرة الاولى حسبا طفلة أو صبية استخرجها دي ريكسك يوم الاحد من المدرسة ، وقد كانت مرتدية لضعف حال والدها ، ملابس امرأة بالغة (وقد كان هذا يفسر الشعور بالانزعاج الذي لا يوصف الذي يتتاب المرء لاول وهلة عندما يرى شيئا يبدو قبيحا مزعجا بشكل يتعذر وصفه ، كمثل هؤلاء الصبيان المتكررين المرتدين ملابس مستنسخة من ملابس الكبار والشبيهة بملابس تحاكي البالغين ملابس اجرامية بحق الطفولة والوضع البشري في

آن واحد) وقال ان ذلك اثار في نفسه الدهشة اكثر من أي شيء اعني به ذلك الشكل الطفولي البري الطري السابق للبتولية ان صح القول ، بحيث انه امضى وقتا لكي يدرك ويحصل عنده الاقتناع - وقد استحوذ عليه نوع من الحيرة وأحس بتصاعد الغيظ والتشكك والوحشية في دخليته - بأنها لم تكن امرأة فحسب ولكن امرأة من اطفى النساء انوثة رآها في حياته بل حتى في خياله : وقال « حتى في السينما لم أشهد لها مثيلة ! » (كان يتحدث عنها ليس كما يتحدث الرجل عن امرأة امتلكها واقتحمها وعانقها بين ذراعيه وهي تتهد مدعورة ، وانما كحديثه عن احدى المخلوقات الغريبة ولا أقصد غريبة عنه هو انجليزيا الذي رغم كونه استأثر بها وواقعها واعتلاها وانما هي التي استأثرت به وواقعته واعتلته بسبب وضعها المالي والاجتماعي) ولكن غريبة من الجنس البشري بأسره ومن ضمنه النساء الاخريات) مستخدما عند الحديث عنها ، الكلمات نفسها تقريبا والفواصل الكلامية نفسها التي تستخدم عند الكلام عن الاشياء التي كان يندرج بينها نجوم السينما (الذين يفتقدون كل واقع ماخللا الواقع الوهمي) والجياد او الجبال والسفن والطائرات التي ينسب اليها الانسان الذي يرى بواسطتها تجلي قوى الطبيعة التي يحاربها برودود فعل (كالغضب والحُبث والحيانة) : كائنات (كالحصن والالهات المرسومة على السليلويد والسيارات) هجينة الطبيعة غامضة ليست بشرية تماما ليست اشياء تماما ، توحى بالاحترام والاحتقار في آن واحد عندما تجتمع فيها عناصر تكوينية (حقيقية او افتراضية) متفرقة بشرية وغير بشرية - ولعله ، لهذا السبب كان يتكلم عنها بطريقة النخاسين عن حيواناتهم ومتسلقي جبال الالب عن رحلاتهم خشن الثبرة ولطيفها فجها ولذيذها . كان صوته عندما كان يذكر اسمها يعبر عن دهشة فيها وصمة من الشك يشوبها قدر من الاعجاب والشجب معا ، تماما كما حدث عندما جاء اذ وصلت الجياد الى احد الاشواط ليتفحص جواد بلوم بدون ان يفلح في اكتشاف وجود اورام على

ظهره ، اورام كان سببها طريقة تسريع بلوم للحصان وركوبه بعينه الكبيرتين
 الدائرتين الجاحظتين التأمليتين الحائرتين بعض الشيء وهما تحدقان في الفراغ .
 عندما كان يتكلم وهو ينظر ، مطلقا قرار الشجب نفسه الذي كان ينظر به الى متن
 الحصان ، ولكن بدون ان يكشف فيه الجراحات التي كان مفروضا وجودها في
 جسمه ، ذلك الشجب الذي يأتي على ذكره او بالاحرى الذي كان يستسهل
 انتزاع الناس ذكره وصورته منه اي ما قد يتمتع حياؤه الطبيعي امام بسطاء
 الناس المقترن بالاحترام (وليس بالخنوع ، بما انه لم يخطر بباله قط ان يلتفت الى
 المكان الذي يسقط فيه دي ريكسك ، ولكن الحياء المقترن بالخوف) الظاهر
 لرؤسائه لو كان قد اقتنع اقتناعا صريحا من الطبع اللانساني او الخارج عن النطاق
 الانساني الذي كانت تتصف به الكورين حيث قال : « كان يجب ان اشاهد
 ذلك ! واعجبا ! عند ذلك فقط فهمت لماذا كان يستخف بما كانت الناس
 تفكر أو لاتفكر به او تقول او لاتقول عنه انه ابوها ، وان يتركها تستمتع بتعذيب
 الجياد وقتلها لمجرد الاستمتاع بالضغط على مقياس الزمن وتحريك ردفها داخل
 سراويلها وبناطيلها الفروسية التي لم يكن يتمكن من دفع اثمانها الا نقدا ، في
 الوقت الذي كان يفضل التوصية بخياطتها عند الخياط بأسلاك الذهب لو كانت
 له امكانية صنع بناطيل من ذ... » فقال بلوم : « صحيح . واعتقد انه لو
 استطاع العثور على خياط قادر على ان يحفظ هذا لها ، داخل صندوق حصين مع
 قفل من أحد أقفال الأمان ، الاقفال الرقية التي يكون هو الوحيد الذي يعرف
 ترتيب ارقامها ، في الوقت الذي نرى ان اول القادمين واول الارقام التي تأتي
 امام أي شخص وأول مفتاح يحده بني بالغرض) فأجابه جورج :
 « أفلا تسكت » وقال لايجليزيا : « هل مشيت الامور على مايرام بعد حادثة
 المهرة ؟ اني لا اراهنك ان ذلك فعلا هو الذي جعلها تتخذ القرار وانها بعد
 ذلك ... » فأجابه ايجليزيا : « كلا ، قبل . فهي ... اعني نحن ... اعني انه من

أجل ذلك عقد العزم على ركوبها في السباق . لاني أظن انه ارتاب من شيء ما . لم نفعل ذلك إلا مرة واحدة . ولم يتمكن أحد من رؤيتنا قط . ولكني اعتقد انه أحس ان في الامر عوجا . او ربما انها دبرت امورها لكي تتكون عنده نصف الصورة ، حتى لو أنه طردني لاني أعتقد ان ذلك لم يكن ليغير فيه شيئا . او ربما انها لم تتمكن من ان تتألك نفسها من النطق بكلمة واحدة او بملاحظة واحدة ، اذن فقد اراد ان يركبها ... » وبدون استطراد طفق يحدّثهم عن المهرة والفرس ، مستخدما الكلمات نفسها التي استخدمها في حديثه عن المرأة وقال : « هذا النذل (ورغم انه أشار بهذه العبارة الى دي ريكسك ، فإنه لم يكن ثمة مايعني الشتيمة . وانما العكس) . فقد كانت تعني العبارة استنهاضا وترقية وتشريفا له ، لرفعه الى مرافق فارس سباق ، اعني الاعتراف له بسجاي الفارس . ومن ثم ، فإن ذلك ينسبه انه كان يوما سيده يستخدم عند الحديث معه ، كلمة بمعناها المألوف الاعتيادي وليس السيئ ، كلمة عليها مسحة خفيفة من الملامة الطفيفة ، مسحة يلجأ اليها عند كلامه عن أحد اقارنه ، اعني أحد انداده ، وهو يقول بصوت تشوية الشكوى والنواح تقريبا ونبرة الطفولة تقريبا ، صوت كان يضعه في الطرف المعاكس لوجهه القاسي الكاريكاتوري وجه السيف ، بأنفه الشبيه بشفرة سكين وبشرته او بالاحرى جلده الاصفر المصاب بحبيبات السفلس :) هذا النذل ، سبق ان رددت له مراراً ، انه لايجوز اكرامها وانما ايهاها ايهاماً متعمداً ، وان ماعليه الا ان يتركها على سليقتها ، مع حملها قدر الامكان على ان تنسى ان هناك شخصا على متنها ، وبذلك ستعدو تلقائياً . قلت انه : « ليس لك انت ان تعلم نفسك الركوب . انك تمسك بها ضاغطا عليها بشدة . ليست مجموعة فرسان السباق مهارة جياد : فالامور تجري تلقائيا ، عند اجتياز المواقع التي لايريد الفارس اجتيازها ابد الدهر بطريقة مغايرة . اذن لاجابة الى الامساك بها بهذه القوة . بالنسبة الى الاخريات ، ليس لهذا اهمية تذكر ، ولكنها

هي لاتطبق تحمله . فقد توارت عن وجهه عندما كان في التدريب ... »
وهذه المرة ، تمكن جورج من رؤيتهم تماما . كما لو كان حاضرا معهم ، هم
الثلاثة (في تلك الفترة كان قد مر ردح من الزمن على ذهاب المدرب المساعد
القديم ، بدون ان يعلم احد بالضبط عن طريق الكلمات اليسيرة التي استطاع
استحلابها من انجليزيا هل كان المدرب نفسه فعلا ، المدرب الذي ، نتيجة
لسوء معاملة كورين لافراسه ، كان قد رفض الاستمرار بسياستها أي الافراس ،
وهل كانت كورين التي فعلت كل شيء من اجل طرده لانه بعد ذهابه ، حسبما
قال انجليزيا وعندما تولى هو بنفسه التدريب كفت عن الهجي للاشراف على هرولة
الحصن هرولة لا انضباط فيها ولا انتظام بمجرد الاستمتاع بلذة الضغط على
مقياس الزمن وعندما رأهم ثلاثتهم على او أمام المقعد الخشبي مع الغلام الصغير
الذي يشبه رأسه رأس المصاب بالاستسقاء واطرافه اطراف دمية ووجهه
المتغضن قبل أوانه والمتنفخ مع جيوب تحت عينيه ونظرة الوسخ المتقيح الجاحظ
يتمرس وهو لما يبلغ الرابعة عشرة بخبرة ابن الستين او ما يقارب ذلك ولربما أسوء
من ذلك .

كان الغلام يبذل قصاره لكي يوقف الفرس فيما كان انجليزيا مقعيا ليشد
له سيور حذائه أما هي ودي ريكسك فكانا واقفين ينظران اليه وهو يواصل
الشد فقالت هي بدون ان تحاول تحريك شفيتها وهي لا تزال تحملق في
انجليزيا متحدثة بصوت لا يكاد احد يسمعه غاضبة : ما تزال انت
مصرا على هذه الحماقة هل تركبها فعلا ؟ فأجابها دي ريكسك :
«اجل» فانغمر جسمه بالعرق لاختوفا ولا تخوفا وانما مجرد ان الجرو
كان خناقا ثقيلًا في عصر احد ايام حزيران العاصفة التي كانت تجعل الفرس
ترقص في مكانها . كان العرق يتلألأ بقطراته اللامعة على جبهته وكان يجيب دون
ان يلتفت بدون ان يرفع صوته لم يكن لا وقحا ولا مثيراً ولا عنيدا عندما كان

يقول نعم فقط وهو يراقب حركات الإنجليزية الذي كان مقصبا تحته فقال له قولا ولكن بصوت عال : «لا تشدها شدا قويا» : فصفقت كورين مغتاضة برجلها على الارض وردت قائلة ما معنى كل هذا ؟ وما الذي تنويه ؟ فأجابها : «لا يعني شيئا ولست انوي سوى ان اركبها» . فقالت له : «الآنسمعي وتتركة يركبها . لماذا ؟» فأجابت : «ماذا تعني وتنوي .» فقال : «لماذا ؟» فأجابت : «للاشيء» ، لان مهنته هي انه فارس سباق على ما اعتقد ، أليس كذلك ؟ أليست تدفع له مرتبا من اجل هذا الغرض ؟ فأجابها : «ولكن ليست المسألة مسألة نفود» فقالت : «ولكنها مهنته ، أليس كذلك» فأجابها بصوت عال : «لو جعلتها تبرد قليلا !» فنهض الإنجليزية ثانية وقال : «ستنطلق تلقائيا ياسيدي . افعل ما قلته لك وستجري الامور على ما يرام» اما هي فطفقت تتحدث مع الإنجليزية ولكن بعينها اكثر من فيها . فقد كان نظرها قاسيا غاضبا مركزا على نظر الإنجليزية نفسه ، او على الاصح منفرزا فيه كمسمار ، بينما كانت شفتها تتحركان من تحت بدون أن يحتاج اي منهما الى ان يسمع ما كانا تبيسان به : «ألا تحسبن أنها بهذه العاصفة الوشيكة سوف وانه من الافضل ألا يهملك شيء ؟» فقال دي ريكسك : «هنا اعصر الاسفنجة عليها ، هنا اجل هكذا اي نعم هنا تماما» فردت عليه هي : «اف !» فقال الإنجليزية «لا تنهما فالامر سيجري تلقائيا . مالكما سوى ان تتركاها وشأنها لكي تنطلق . فهي لا تنتظر منا سوى . . .» ففتحت كورين حقيبتها فجأة (بحركة مباغتة غير متوقعة بسرعة حركات الحيوانات الصاعقة وان التنفيذ لم يعقب وانما سبقه أو إن صح التعبير ، سبق الفكر ، وفتشتها كالمهوسة ، واخرجت منها يدها على الفور بحيث لم يستطع الرجلان سوى سماع قرقة القفل الجافة ، عندما عاد الى مكانه بسرعة كانت اشبه بسرعة البريق الساطع الذي يتطاير من سوار حسناء) ويدها ذات الاظافر المصقولة ، ذات الانامل الخزفية الهشة كانت ممسكة بشدة من الاوراق النقدية المبعثرة

المدعوكه « وتقدمها وتضعها تحت انف ايجليزيا » وهي تقول بصوتها الغاضب :
« هاك . اذهب والعب لي ، العب لنا مناصفة . اذهب اذن انت بنفسك وعلى
رأيك . لا تحتاج ان تأخذ هذه الاوراق اذا ضننت أنها ليست ضرورية . وانه لن
يستطيع ان يركبها . . . »

اما دي ريكسك فقد شَجِبَ لونه قليلا وبرزت عضلات فكيه متحركة تحت
جلده « والعرق اخذ يتصبب على صدغيه فقال بدون ان يرفع صوته ، صوته
اللاشخصي الهادئ ولكنه ربما اصبح جافا هذه المرة وقصيرا : « نشدنتكم الله
كفوا . ففطق يكلمها بصيغة الجمع او ربما بصيغة التثنية لشموله بالكلام
ايجليزيا ايضا ، او الغلام ايضا ذلك المدرب الذي يشبه رأسه رأس عقرب وهو
يعصر الاسفنجة على رأس الفرس لانه تقدم وانتزع من يد ايجليزيا الاسفنجة
وعصرها ثم شرع ينقط ما تبقى فيها من رطوبة قليلة على عنقها ، ودون ان يلتفت
كان يتكلم مع الغلام العقرب فاجابه الاخير : « نعم سيدي - لا سيدي - نعم
سيدي . . . » فيما كان وراءهما ايجليزيا وكورين يتقابلان وجها لوجه . كانت
كورين تتكلم بسرعة وبصوت كانت تبذل قصارى جهدها بالسيطرة عليه
ولحنقه ، ولكنه مع ذلك بقي عاليا ، دون ان يعلم احدا بالضبط هل كان بدافع
الغضب او القلق او ما شابهها . وكأن حالتها هذه كانت نتيجة إنعكاس وقاء
رأسها وكتفها الاحمر الكرزي على وجهها ورقبتها واعلى كتفها العاريتين حتى
ابطيها (فقد يظهر عند ملتقى كتفها بنهديها طيتان منفرجتان ناعمتان لبشرتها العارمة
القاسية المتفتحة) اذ كانت ترتدي ثوبا عنيفا غير عدواني ولكن انفعاليا نوعا ما
بمعنى ان هشاشته ووجهه وابعاده الصغيرة كانت تعطي انطباعا بأن نصفه قد
انتزع وبأن القليل الباقي منه لم يكن مثبتا الا بسلك ضعيف . وقد كان ثوبا اقل
حشمة من قبص النوم (او انه لو لبسته اية امرأة اخرى لظهرت بمظهر الخليعة ،
ولكنها اذ كانت تلبسه هي فقد كانت قد تحطت عدم الحشمة بمراحل ، بمعنى انها

قضت تماما على فكرة الحشمة وعدم الحشمة). فقالت كورين : مناصفة يا ايجليزيا . عليها اذن . انها لراجة . امامك خياران : اما ان تلعبا أو أن تقنعه بأن يأذن لك بركوبها وتتقاضى اجرا كاملا لسته اشهر تقريبا . واذا اعتقدت انه يستطيع ان يوصلها الى الفوز فالامر سيان . واذا اعتقدت انه لا يستطيع ان يوصلها الى الفوز فاحتفظ بالنقود . لن اطلب الاطلاع على التذاكر. والان هل تقول له ايضا بأن الامور ستجري على مايرام بكل سهولة ؟ فأجابها ايجليزيا : «لا وقت لي لأن اللعب فعلي أن اهتم ب...» فقالت له : «لا تحتاج الى اكثر من دقيقتين لكي تذهب الى مكاتب بيع التذاكر وتعود منها . فان لك الوقت الكافي لذلك» حينئذ روى ايجليزيا أن الامر انقلب رأسا على عقب اي انه اصبح على عكس ما عاشه ذلك اليوم الذي رآها فيه لأول مرة وهي تتقدم الى جانب دي ريكسالك بمعنى انه خيل اليه ان من امامه لم تكن طفلة او خودا او عجوزا شمطاء وإنما امرأة لا عمر لها وكأنها النساء كلهن مجتمعات في شخصها ، عجائز كن او شابات بنات الخمس عشرة او الثلاثين او الستين سنة او بنات آلاف السنين . فقد كنت تقرأ في تقاسيم وجهه غيضا وكراهية وعداء وحيلة لم تكن صادرة عن تجارب معينة او تراكم زمن ، ولكن من شيء اخر فطفق يفكر (وقد روى في وقت لاحق انه كان فكك فكن) ياللمومس الشمطاء ! ياللفاجرة العجوز ! ولكنه عندما رفع عينيه ، لم يستشف سوى وجه ملاك. والهاالة الشفافة للشعر الاشقر واللحم الفتي العارم الذي لم يصبه ولن يصبه دنس . ثم مالبت ان طأطأ رأسه لينظر الى شدة الاوراق النقدية التي بيدها ، وهو يحسبها ويخرج بنتيجة ان عددها يعادل مرتب شهرين تقريبا كما كان يحسب كمية مرتبات الاشهر التي يربحها لو لعب ، كما هو مفروض عليه ان يلعب . ثم نظر الى كورين ثانية وهو غائص في التفكير : «تراها ماذا تريد ، تراها هل تعرف ماذا تريد ! . ليس لكل هذا من معنى . فالامر لا يقوم على اساس سليم» واخيرا اغمض عينيه تماما .

وقال : «اجل ياسيدي» . فأجابته كورين : «ماذا تقصد ؟» في ذلك الوقت كان دي ريكسك ما زال موليا ظهره لها وهو مقع يتأكد من سيور حذائه وصاح : «يا ايجليزيا» . فردت هي : «ماذا تقصد ؟» فقال دي ريكسك وهو ما يزال موليا ظهره لها : «اسمعي ان لنا شيئا آخر نفعله بدلا من . . .»

اما هي فضربت برجلها الارض قائلة : «واخيرا ستأذن له بركوبها ؟» هل انت . . . فأجابها ايجليزيا : «لا تغنمي ياسيدي . فالامر سيجري على مايرام . لتلك ذلك» وسترين : «فأجابته» هي يعني هذا انك ستلعبها رغم كل شيء او انك ستحتفظ . بالنقود ؟» وقبل ان يفتح فاه للاجابة قالت : «ولكني لا اريد ان أعرف . افعل ما يبدو لك . الا اذهب لنصرته في التغالي فإنه سيدفع لك اجره عن هذا ايضا . . .» بعد ذلك كانت هي وايجليزيا واقفين الواحد بجانب الآخر على المنصة . كان ايجليزيا الذي امتطى جوادا في الجولة الاولى يرتدي ستره شرابات فوق قميصه المتألق ، بينما كان وجهه يتصب عرقا وهو يلهث بعد محاولته ملاحقتها فقد ركض طوال فترة الاستعراض الى جانب الفرس وهو يحمل سطلا مليئا بالماء (وكان يستطيع تكليف الغلام حمله ولكنه كان قد اخذه بل انتزعه من يديه) ركض وكأنه ينوء تحت ثقل السطل على رجله القصيرتين المعوفتين ورأسه مرفوع باتجاه دي ريكسك وهو يناوله الاسفنجة ، بين الفينة والفينة ، بعد ان يغمسها في ماء السطل ويعصرها قليلا ، ويتركها لتعود فتنتفخ ولكن دون التوقف لحظة واحدة عن العدو والكلام ، وبدون الكف عن اطلاق التوصيات والارشادات والتوبيخات او الكلمات التي كانت تنبثق من فيه وقد أخذها الحواس وتملكة اللهاث ، بينما كان دي ريكسك يعطي رأيه بين حين وآخر بحركة من رأسه ، محاولا جعل الفرس تمشي في خط مستقيم ، لأنها كانت تدير عجزها وتتحرف جانبا وترقص باستمرار ، بينما كان دي ريكسك يمسك بيده الاسفنجة

المبسوطة ويعصرها فوق رأس الفرس وبين أذنيها قاذفا بها الى ايجليزيا الذي كان يتلقفها وهي طائرة . ثم ادركوا الحاجز ، فقفز بالاسفنجة للمرة الاخيرة وراءه بدون ان ينظر ، فتمدت الفرس كالنابض ، وانطلقت في عدو سريع وهي تسحب الرسن بكل قواها ، ورقبتها مائلة الى جانب قليلا ، واحدى كتفها الى الامام وذيلها الطويل يخفق الريح خفقا شديدا ، طافرة وكأنها كرة من مطاط ، فيها كان دي ريكسك لا بشكل معها سوى كائن واحد ، وهو شبه واقف على ركابه لا يكاد صدره ينحني الى امام وقد أخذت البقعة الوردية في القميص تنضال بسرعة بين طفرة واخرى ، بينما كان ايجليزيا منتصبا هناك ، قبالة الحاجز الابيض ينظر اليهما صامتا ، وهما يتناهيان ويتضال خيالهما ، يقفزان بصعوبة السياج الصغير الذي يسبق المنعطف ، وبعد ذلك لم يلمح سوى الطاقية السوداء والقميص الذي كف عن التضال فقد اصبحا يتنقلان يصعدان ويهبطان بمرونة فوق السياج والى اليمين ثم يتواريان خلف الغابة الصغيرة :

ثم تخلى عن السطح والاسفنجة فالتفت وبالسرية التي اتاحتها له رجلاه (اعني بسرعة فارس السباق اعني تقريبا كجواد قرص نصف اطرافه) انطلق نحو المنصة مصطدما بالحاضرين وهو مرفوع الرأس يبحث عن كورين بعينه متجاوزا المكان لكي يجدها . وأخيرا وسع خطاه وصعد الادراج اربعة اربعة . وحالما وصل اليها ، تسمر في مكانه فجأة والتفت صوب الغابة الصغيرة ولبس المنظار الضخم الذي كان يحمله عادة دي ريكسك وكأنه قد هياه على شاكلة المشعوذ داخل قبضة يده - ولو ان طوله كان يبلغ ثلاثين سنتمرا تقريبا - او داخل أحد كمينه : وكأنه قد استخرج من العدم وليس من غلافه . لانه كان من المستحيل ان يكون له الوقت الكافي لفتحه واخراجه من الغلاف بوقت قليل ، اعني بين لحظة وصوله لاهتا بالقرب من كورين ولحظة اطباقه بيديه على عينيه على أرنبة انفه المعقوف الشبيه بمنقار النسر (او بأنف المهرج) وكأنه ، على ما يبدو ، جزء لا

يتجزأ من كيانه ، او كأنه عضو فاعل في جسمه (على نسق العدسات المكبرة التي يضعها مصلح الساعات على عينه) بارز مضطرب الفؤ ظهر فجأة وباشروظيفته ضخماً لامعاً يكسوه الجلد الاسود المحبب ، وهو ملتصق بعينه أسود كالفحم وكأنه عينان جاحظتان فحمتان ، لهما وجهات تمكن مشاهدتها في الصور المكبرة لمقدمة رأس الذبابة او بعض الحشرات الاخرى .

وبغثة تسمر في مكانه اكثر من تسمر التمثال . على قاعدته ، تسمرت كورين هي ايضا في مكانها ، اكثر من التمثال ، محاولة هي ايضا ان ترى ، بتوق شديد ، ماذا كان يحدث وراء الغابة الصغيرة ، وهي تقول بدون ان تحرك اسنانها ولا ان ترفع صوتها تماماً كما تحاصمت قبل قليل مع دي ريكسناك : «تباً لك من خادم حقير !» أما هو فقد كان غائصاً ، ان صح التعبير ، بكليته داخل ذلك المنظار الضخم . ولعله لم يسمعهما او ربما ادرك انها توجه اليه الحديث ولكنه لم يجهد نفسه في الاصغاء اليها وفي فهم ما كانت تقول ورد عليها قائلاً : «اجل لقد تميزت بعدوها . اي نعم هكذا تكون الـ... يجب ان ... اجل انها ، لسوف ...» وكان صخب الناس الهادئ يتصاعد من حولهم . وكان آخر المراهنين يتقاطرون الى الحاجز أو يحتلون المقاعد متدافعين اليها كمد اسود بطي ، ولو ان معظمهم ركضوا ولكن بدون ان ينظروا امامهم . فقد كانت كل الرؤوس متجهة صوب الغابة الصغيرة . رؤوس اولئك الذين كانوا يركضون ورؤوس اولئك الذين اصطفوا على المقاعد جالسين أو واقفين على الكراسي المفرقة هنا وهناك على السطح : أو رؤوس عارضات الازياء الخزفية المصبوغة يحيط بهن المصورون ، ورؤوس العقدهاء المسنين الملائئ بالتجاعيد يبشّرتهم الشبيهة بالجلد المجفف ، وعليها قبعاتهم الرمادية ، ورؤوس اصحاب الملايين الشبيهين بالنحاسين او المتاجرين بسلعة ما او مزوّري النقود أباً عن جد او المراهبين واصحاب الخيول وسكنة الاكواخ والدور الفخمة ذات المسابح واهل القصور واليخوت والزنج

او الهنود النحاف القدود او مصانع النقود الكبيرة او الصغيرة (ابتداء من المصنع المتكون من ستة طوابق مبنية بالحجر المنحوت والخرسانة المسلحة وصولا الى الصفائح المصبوغة والاشارات الضوئية الملونة) : سواء تعلق الامر بالفئة او بالطبقة الاجتماعية او بالعرق ، هذه الاصناف التي وجد آباؤها او اجدادها القريون والبعيدون والبعيدون جدا ، يوما ما ، وسيلة يجمعون بها ، عن طريق العنف او الحيلة او الخوف الذي مورس بطريقة شرعية او غير شرعية (غير شرعية اكثر من شرعية بدون شك ، اذا اعتبرنا ان الحق والقانون ليسا سوى افراز او تقديس لمواقع القوة) يجمعون ثروات باتوا يتفقونها ، ولكنها صارت تحكم عليهم بطبيعة الحال او باللعة المقترة بالعنف والحيلة بالألأ يروا شيئا ينمو حولهم سوى هذه الطغمة من الناس التي تبحث عن كسب هذه الثروات او الاستفادة منها بالعنف او الحيلة ، وان الاولين كانوا يتغلبون على عقبة الاحتكاك بالآخرين (متنفسين هواء واحدا ودائسين الحصى المغبر نفسه ، وكأني بهم مجتمعون في قاعة واحدة) بدون ان يدركوا حضورهم أو ، ربما ، رؤيتهم : رؤوس المراهنين ذوي المهن المريبة والالوجه المريبة ذات العيون الشبيهة بعيون الصقور ، والوجه المتصلبة التي لا تعرف الرحمة المكبوتة المة بضعة المنخورة بفعل الولع الشديد .

العمال من شمال افريقيا الذين انفقوا نصف اجرهم اليومي لمجرد الحصول على خطوة مشاهدة الحصان الذي راهنوا عليه بأجرهم الاسبوعي والسماسرة والمهريون وباعة الانابيب رش النجيل والتدربون وسواق الحافلات ومفوضو الشرطة وقرينات البارونات المسنات واولئك الذين قدموا هناك لمجرد ان الطقس كان جميلا واولئك الذين قدموا رغم ارتطامهم بالوحل . وقشعريرتهم امام تيارات الهواء ، حتى لو سقطت نصال الرمال عليهم ، وكلهم متكدسون فوق المدرجات الشبيهة بالحلوى المنحوتة العائمة في السماء ، مع الغيوم الشبيهة بالزبدة المنخوقة الراكدة او بالمرنغ (بياض البيض مع السكر) اعني بها منتفخة ومتورمة

من الاعلى ومسطحة من الاسفل ، وكأنها قد رتبت ووضعت فوق صفيحة من زجاج ، لا يراها احد متراففة على حبل رفيع ، على شكل صفوف متعاقبة بقرنها المنظور عن بعدها القصي (كجذوع الاشجار المتراففة على امتداد الطريق) لكي تشكل هناك ، عند الافق البخاري ، فوق اعالي الاشجار ومداخن المصنع الرفيعة ، سقفا معلقا جامدا ، الى ان يبلغ بك الامر حد ان تحسن النظر ، فتدرك ان ذلك السقف كان يتزلق بكليته انزلاقا لا يشعر به احد ، وكأنه ارخبيل مهدد بالغرق ، يتموج فوق الدور والاعشاب التي تربتها خضرة لا يصدقها احد ، فوق الغابة التي تراءت الى يمينها الجياد مؤخرا ، وهي تتخطى متوجهة نحو خط الانطلاق : لم تكن واحدا او ثلاثة او عشرة ولكنها مع البقع المخططة المختلطة للقبعات والذبول المتموجة ومشي الحيوانات مختالة على قوائمها التي لا تفوق ضخامتها ضخامة القدي ، تظهر تارة ، كمجموعة من القرون الوسطى زاهرة من بعيد ، (وليس هناك فقط عند نهاية المنعطف ، وكأنها تتقدم من اعماق الدهور فوق مروج المعارك الباهرة في اطار ظهيرة احد الايام النيرة او في اطار هجمة او كوكبة جياد كانت تهلك او تنجي بمالك مع أبدي الاميرات) : ثم رآه ايجليزيا ، على ما رواه فيما بعد ، بواسطة منظاره الصغير منفردا ومتجزئا من جراء تخطيط الألوان المجهول ، وهو على صهوة تلك الفرس الشبيهة بسبيكة من النحاس الفاتح مرتديا طاقة سوداء وقيصا ورديا صارخا يميل الى خضرة الخبازي ، قيصا فرضته عليهما ، نوعا ما (ايجليزيا ودي ريكساك) وكأنه رمز شهواني شبقى ولقد كان يستطيع ان يميز بين القميص والطاقة ذلك الوجه الذي لا تعابير فيه اطلاقاً الفارغ على ما يبدو من العواطف والافكار ، ذلك الوجه الذي لم يكن لا مركزا على هدف معين ولا متنبها : فقد كان مجرد وجه لا يعرف الانفعال (وفكر ايجليزيا وقال بعد ذلك : تبا له . ما كان له الا ان يأذن لي بركوبها . لو كان الامر يتعلق فقط بتقديم هذا العرض ! ماذا كان يتوقع ؟ انها بعد

هذا لن تضطجع الا معه وانها سوف تحرم على نفسها مواجهة اول قادم لها مجرد انها تراه فوق ظهرها ؟ ولكن لو لم يكن ذلك الشخص انا لكان الامر مماثلا . على ان الطقس كان ثقيلًا ، ولا يسمح بالقيام بأي عمل . وقد استطاع ان يرى ، على مقربة بضعة امتار ، رقبة الفرس يكسوها زبد رمادي في الموضع الذي كان القبان يفركه . كما كان يرى المجموعة والموكب الكهنوتي من القرون الوسطى يواصل التقدم نحو الخائط الحجرى ، حتى اجتاز التقاطع ، فأخذت الجياد تخفي ثانية حتى البطن لمرورها خلف السياج ، يخفي نصف جسمها ، بحيث انه كان يبدو مقطوعا في النصف . فالنصف الاعلى وحده كان يبدو وكأنه ينزل على حقل الحنطة الاخضر ، كالبط يسبح على سطح مستنقع راكد . كنت أستطيع أن أراها ، كلما كانت تدور الى اليمين وتسلك الطريق العميقة ، وهو في مقدمة الطابور ، وكأنهم كانوا في استعراض الرابع عشر من تموز ، بمشي أولا واحد ثم اثنان فالجحفل الأول بأكمله ثم الثاني والجياد تتابع بهدوء . كانت أشبه بالجياد - الدمى التي كان الأولاد يلعبون بها سابقاً أو أشبه بحيوانات مائية تطفو على بطنها ، تدفعها قوائم خفية مرتحية تنزل الواحدة تلو الأخرى ، مع أعناقها المتشابهة الدائرية وفرسانها المتشابهين مقطعي الانفاس بأبدانهم المتشابهة المتنفخة المتزهزة برفق كان نصفهم نائماً رغم طلوع النهار قبل قليل ، اذ أخذت السماء تصطبغ بلون الورد عند الفجر . وكان الريف شبه رخو نائماً نصفه هو أيضا . فقد كان ثمة ما يشبه الرطوبة البخارية . ولا بد ان كان ثمة ندى كقطرات البلور عالقة في جزئيات العشب التي ستبخرها الشمس بحرارتها . كنت أستطيع أن اشخصه هناك في المقدمة ، بهيئته المستقيمة على سرجه ، بعكس الأشباح الأخرى خائرة القوى . وكان التعب بالنسبة اليه غير موجود . وكان نصف السرية تقريبا يصل ويتدفق نحو المفرق ، اعني مثل الاكورديون ، وكان هناك مكبسا يضغط ، فيدفعهم وكانت المؤخرة تواصل تقدمها ، بينما مقدمة الطابور تبدو وكأنها

تراجع ، ان صح القول ، بحيث أن الضجيج لم يكن يسمع الا فيما بعد ، بحيث أن وقتاً قصيراً مضى (ربما جزء من الثانية ولكن في الظاهر أكثر) حدث فيه وفي الصمت الكامل فقط ما يلي : الجياد - الدمى الصغيرة وقرساتها الملقاة بعضها فوق بعض ، تماماً كبيادق الشطرنج تحدث صوتاً عندما يضعها اللاعب في المربع . وعندما بلغ الصوت مع تأخير بسيط في الوقت على الصورة وكان هو أيضاً شبيهاً تماماً بالصوت الفارغ الذي ينبعث من البيادق العاجية المطرقة الساقطة الواحدة تلو الأخرى على طاولة الشطرنج وعلى النحو التالي :

طق - طق - طق ، كانت الرشقات السريعة تتراكم وتتكدس ، ان صح القول ، ثم من فوقنا ، كانت اوتار القيثارة التي لا تراها العين المجردة عندما تلامسها الانامل تحوّل نسيج الهواء اللامرئي الحريري القاتل . كما أنني لم أسمع صوت صدور الأمر . فقد كنت أرى فقط الابدان أمامي تتهادى ، كلما ازدادت تقرباً الى أمام ، بينما كانت السيقان اليمنى تمر الواحدة بعد الأخرى ، فوق الاعجاز كصفحات كتاب تصفحه شخص من آخره الى أوله ، وعندما نزلت الى الأرض فتشت عن والك بنظري لكي أمد له الرسن ، فيما كانت يدي اليمنى في الوقت نفسه تضرب كلابة البندقية الصغيرة . ثم دهنتنا ، من خلف ، قرعة الخوافر وخب الجياد المجنونة التي نزل منها راكبوها ، والبؤبؤ المكبر والآذان النازلة الى الوراء والركاب الفارغة والاعنة تصادم الهواء وتلتوي كالثعابين وتفرقع مع اثنين أو ثلاثة يكسوهم الدم ثم آخر كان راكبه يصرخ : « هناك أيضاً غيرهم وراءنا سمحوا لنا بالعبور ثم أنهم » وما تبقى من كلامه ذهب معه عندما انحني على عنق الفرس وقد ففر فاه . ولكني الآن لم أعد أضرب كلابة البندقية الصغيرة ولكن الجواد البجير الذي طفق يتشكى ، وقد رفع رأسه وتصلبت رقبته كأنها صاري مركب ، وقد انحرف بؤبؤ عينيه كلياً ، وكأنني به اي البؤبؤ ، كان يحاول النظر وراء اذنيه ويتراجع بعزم لا يثنى ، تراجعاً غير منقطع ، ولكن منتظماً . فقد

كانت القائمة تلو الأخرى . اما انا فكنت اذيقه من ضربات الجرس حتى كدت أنتزع منه فكيه ، واردت في اذنيه : «ويحك تقدم» . وكأني به وحده يسمعي ، وسط تلك القوضى ، فشرعت أقصر الاعنة شيئا فشيئا ، حتى تمكنت من بلوغ العنق بأحدى يدي ، فجعلت اربت عليه واردت : «ويحك تقدم هنا ..» الى ان توقف جامدا في مكانه متشنجا متوترا ، ترتعد كل أطرافه المتباعدة الواحدة عن الأخرى ، وكأنها أعمدة . وربما كانوا قد أصدروا أمرا آخر ، عندما كنت منشغلا بجوادي هذا ، لاني أدركت (لم أكن أرى شيئا ، لاني كنت منهمكا في مراقبته ، ولكني كنت أحس واتصور) وسط تلك القوضى ، أنهم كانوا جميعا يهيمون بركوب خيولهم . فتقربت اليه (وهو كان ما يزال جامدا متوترا وكأنه حصان من خشب) هادئا جدا ، محترزا من احتمال أن تأتيه نوبة ، فيتبيج أو ينطلق ساحبا بطنه في خيب ، تماما عندما تكون قدماي في ركابيه ، ولكنه لم يتحرك قط بل كان يكتفي بالارتجاف في مكانه ارتجافا مستمرا ، كمحرك يدور بطيئا . فسمح لي بأن أضع قدمي في الركابين ، بدون أن يفعل شيئا الا عندما أمسكت بالقربوس الخلفي للسرج لكي ارفع السرج ، فقلب الاتجاه عكسا ، ولكني كنت أتوقع منه هذا أيضا . فقد أمضيت ثلاثة أيام ، محاولا أن أجد من يبادلني هذا السرج الذي كان طويلا على ظهره ، بعد أن كنت قد تخلّيت عن أذجار . ولكن ألا تمضي الى الجحيم مع هؤلاء الفلاحين الذي يحسبون تبادل السروج محاولة لخداعهم . كما أن سرج بلوم أيضا كان طويلا جدا . اذن كان الاوان قد آن لأن يحدث لي ذلك ، عندما كان ينسحب ويصل الى كل الجنبات في آن واحد . ولكني لم يكن لي متسع من الوقت لكي أطلق الشتائم ، ولا كان لي النفس الكافي ولا الوقت الكافي لكي أصوغ شتيمة . ولكن كنت أقدر فقط أن أفكر بها . عندما كنت أحاول ان اعود الى صهوته هذه وسط كل المشاركين الذين كانوا يسبقونني ، وهم حولي وقد اندفعوا في السرعة القصوى لجريهم . حينئذ

احسست ان يدي كانتا ترتجفان . ولكني لم أكن أستطيع منعها من ذلك ، مثلما لم يكن هو أيضا يستطيع الكف عن الارتجاف بكل جسمه .
وأخيراً تخليت عن غاييتي ، وشرعت اعدو الى جانبه ممسكا برسنه فأخذ يعدو عدوا خفيفا ، وقد أصبح السرج تقريبا تحت بطنه ، بين كوكبة الخيل المركوبة أو الحرة التي كانت تسبقنا ، بينما كانت شبكة أوتار القيثارات المتوترة أشبه بسقف فوق رؤوسنا . ولكن ما ان رأيت اثنين منها أو ثلاثة تسقط حتى فهمت انني كنت في زاوية المنحدر الميتة . أما الركبان فقد كانوا يسبقوننا كثيرا . بحيث أنهم كانوا يتساقطون كأوتاد لعبة البولنغ . ثم رأيت واك (فقد كانت الأمور تجري وفق مفارقات من الصمت والفراغ ، بمعنى أن قعقة الرصاص والانفجارات - كانت الاطلاقات تجري أيضا بالمورتر أو بمدفعية الدبابات - اذ تسمع وتقبل او ان صح التعبير اذ تنسى ، كانت تتحدد نوعا ما ، فلم نكن لنسمع شيئا بتاتا ، لا صراخا ولا أي صوت ، بحيث أن هذا ذكرني أيام كنت اركض مسافة ١٥٠٠ متر : إلا صوت الانفاس والشتائم الخفيفة مختوفا هو أيضا ، عندما كان يحدث تدافع ، وكأني بالرثنين تستأثران بكل الهواء الموجود لكي توزعاه على كل أنحاء الجسم وتستخدماه لما هو نافع فقط : النظر والتقريب والركض . فقد كانت الأمور تجري كما تجري في فيلم (اضطرب صوته وصورته) ، رأيت واك قد سبقني ، وهو منحني على عنق جواده ، ووجهه قبالي ، وفه مفتوح يحاول بدون شك ان ينقل اليّ ، بصوت عال ، شيئا لم يكن يستطيع ابصاله الي بصوته العادي . وبغته اعنلى متن سرجه كأنه كلابة ، وكأن يدا سحرية أمسكت به وبياقة معطفه ، وارتفع بيظه ، أعني به شبه ثابت مقارنة (اعني أن سرعة واحدة كانت تحركه هو وحصانه) بحصانه الذي كان يواصل الجري . أما أنا فقد كنت أواصل ركضي ولو بسرعة أقل ، بحيث أن واك وحصانه وأنا شخصا ، كنا نشكل فريقا من أشياء لم تكن المسافات تغير بينها

إلا تغيرا بطيئا . فقد كان هو تماما فوق صهوة حصانه التي انتزع منها ، فأخذ يرتفع ارتفاعا بطيئا في الهواء ، وساقاه منفرجتان باستمرار مشكلتين قوس دائرة ، وكأنه يواصل مرافقة حصان مجنح لا مرئي دفعه قلبه الى الأمام برفسة منه ، منجزا بالبطي ، ان صح القول ، موقعا ، قفزا مزدوجا خطرا . فأرائيه بعد قليل ، فيما كان رأسه الى الأسفل وفه مفتوح دائما يطلق الصراخ الصامت (او النصبحة نفسها التي حاول ان يبلغني اياها) نفسه . ثم استلقي في الهواء على ظهره كشخص متدد على سرير معلق بدلي رجله الى اليمين وإلى الشمال . ثم رفع رأسه ثانية فأصبح جسمه عموديا . وشرعت ساقاه تتخليان عن وضع الفارس لكي تتجمعا وتتدليا متوازيتين . ثم بسط ذراعيه على بطنه ومدهما الى أمام ، فاتحا يديه ، وكأنه يحاول أن يتلقى شيئا ما بعيدا . فلقد كان أشبه بهلوان السيرك الذي يظهر غير متعلق بشئ ومتحررا من جاذبية الأرض تماما بين الأرجوحتين ، وفي الأخير يتدلى رأسه ثانية ، وساقاه منفرجتان وذراعه مكوفتان ، وكأنه يقطع الطريق أمامي ، ولكنه أصبح جامدا ملتصقا في جانب المنحدر لا حراك فيه ، وهو يحدجني بتقاطيع وجه مندهش أبله . فانتابني التفكير وقلت في نفسي : «واك ، ياله من مسكين : كان دائما يظهر بمظهر الغبي ، ولكنه الان ظهر غبيا أكثر من أي وقت مضى» . ثم انقطعت عن التفكير ، وقد نهاوى عليّ شيء كأنه جبل أو حصان ، فجندلني أرضا . وجعل يدوسني ، بينما كنت أشعر بالعنان يفلت من يدي . ثم أصبح كل شيء سوادا ، في الوقت الذي كانت آلاف الخيول الراكضة تواصل سحقي . ثم لم أعد أشعر حتى بالخيول ، ولكن فقط براثة الأثير والسواد والاذان الطنانة . وعندما فتحت جفني ثانية ، وجدني منبسطا على الطريق . ولم يبق حصان واحد ، ولكن فقط واك دائما على المنحدر ، ورأسه منحني الى الأسفل ، وهو ينظر اليّ بملئ عينيه ، وعليه هيئة همجية . ولكنني كنت أحترق من الحراك ، متوقعا ساعة شروعي بالعذاب . لاني كنت سمعت أن الجروح

الكبيرة تسبب أولا نوعا من التخدير . ولكن عدم شعوري بشئ كان مستمرا . وبعد لحظة ، حاولت أن أتحرك . ولكن لم يحدث شئ ، سوى اني أفلحيت في الوقوف على اربع قوائم ، ورأسي على امتداد جسمي ، ووجهي يقابل الأرض . استطعت أن ارى الطريق الحجرية حيث كانت الحجارة تبدو مثلثة « او بشكل مضلعات غير منتظمة بيضاء اللون مائلة الى الزرقة ، من جراء الحمأة الضاربة الى الصفرة الشاحبة . كان في وسط الطريق ما يشبه سجادة عشب ، والى اليمين والى اليسار حيث كانت تمر عجلات العربات والسيارات كان ثمة ممران عاريان . ثم كان العشب يظهر ثانية على الممرات الجانبية . وعندما زفعت رأسي ، وجدت ظلي وكان ما يزال شاحبا جدا ممتدا امتدادا خرافيا . فقلت في نفسي : « اذن لقد أشرقت الشمس » . حينذاك شعرت بالصمت ورأيت بعيدا عن واك ، شخصا جالسا على جانب المنحدر : كانت ذراعه اعلى من مرفقه قليلا ، ويده المحمرة متدلية بين ساقيه المنفرجتين . الا انه لم يكن من أفراد السرية . وعندما عرف اني كنت أنظر اليه قال : « لقد هلكنا » . لم أرد عليه . ثم انصرف عن النظر الي وطفق يتأمل في يده . وفي البعيد كان ما يزال صوت الرصاص يسمع . فنظرت الى الطريق ورائعا من جهة المفرق ، فوجدت اكواما بنية مائلة الى الصفرة ملقاة على الأرض لا تتحرك ، وخيولا ، وبالقرب منا ، حصانا ممتددا على منكبه متضمخا في بحيرة من الدم يطلق رفسات ضعيفة لا ارادية من اطرافه الأربعة . فجلست حيثنذ على جانب المنحدر بالقرب من الشخص المذكور فقلت في نفسي : « ولكن الفجر لم يكد يطلع . كم الساعة الان » . لكنه لم يرد علي . ثم عدت فسمعت صوت رصاصة أطلقت قريبا منا هذه المرة . فألقيت نفسي في الحفرة . فسمعت الشخص يقول أيضا : « لقد هلكنا » . ولكنني لم التف ، وانما زحفت على قعر الحفرة ، حتى وصلت الى نهاية المنحدر وبعد ذلك جعلت اركض محني الظهر ، حتى وصلت الى بضع شجرات

ملتفة . ولكن لم يطلق الرصاص أحد ، كما لم أسمع أيضا اطلاق الرصاص عندما ركضت من تلك الشجرات الى أحد الأسيجة . فقفزت السياج على بطني . فسقطت على يدي الى الجانب الاخر وبقيت منبطحا . حتى عادت الطمأنينة الى نفسي .

لم بعد أحد بعد ذلك يطلق رصاصا . لكني سمعت طائرا يغرد « بينا كانت ظلال الأشجار تمتد امامي على المرحه . فعاذت السياج ، وأنا أمشي على أربع مشيا يتعامد على ظلال الأشجار حتى نهاية المرحه . ثم جعلت أتسلق التل من الجهة الأخرى للمرحه ، وأنا ما أزال على أربع ، بعكس اتجاه السياج . فأصبح ظلي أمامي ثانية . وعندما اخترقت الغابة « سائرا بين رقاقت الشمس ، كان همي أن أجعله دائما أمامي . ومقدار حساسي ، مع مرور الوقت أن يكون في بادي الأمر أمامي أو قليلا الى يميني ، وبعد ذلك الى يميني ، ولكنه كان دائما يتقدمني . كان في الغابة طيور الوقواق وطيور أخرى أيضا لم أكن أعرف أسماءها ، ولكن الكثرة كانت طيور الوقواق ، أو ربما لاحظتها لكوني كنت أعرف اسمها أو ربما أيضا لان صوتها كان أكثر تميزا . وكانت الشمس المنمزقة تخترق الأوراق ، راسمة ظلي الممزق الذي كان يتقدمني ، ثم يميل الى اليمين قليلا . مشيت وقتا طويلا بدون أن أسمع شيئا آخر سوى صوت الوقواق وصوت تلك الطيور التي لا أتذكر أسماءها . وأخيرا اتعبني المسير ، عبر الغابة ، وسلكت أحد الدروب ، فانتقل ظلي الى يساري . وبعد قليل ، وجدت دربا آخر يقطع الدرب الاول عموديا فسلكته . ثم عاد ظلي فتقدمني ، فانتقل الى يميني ولكني حسبت أنني سوف أمشي فيه مدة اطول مما مشيت في الأول ، لعلني أصبح الفرق الذي اضطررت الى صنعه . وفجأة أحسبت بالجوع ، فتذكرت قطعة السجق الصغيرة التي كنت انتقل بها ، وهي في جيب معطني . فأكلتها وأنا ماش ، بدون ان أستبق حتى جلدتها ، ورميت جدعتها المربوطة بالحيط . ثم انتهت الغابة ، أو

ان صح التعبير ، افضت الى الفراغ ، وانفتحت على مستنقع . وعندما تمددت لكي أشرب الماء ، غطست الضفادع الصغيرة ولم تحدث صوتا أقوى من صوت قطرات المطر الساقطة على المستنقع : وعند الحافة بالقرب من المكان الذي طفرت منه بقيت ، في الماء غيمة صغيرة من الوحل الهائج الرمادي الذي كان يذوب بين الاسل . كانت خضراء ، ولم يكن حجمها يتجاوز حجم الخنصر . كان وجه الماء كله مغطى بالوريقات الدائرية الخضراء الشاحبة بحجم نشارة ورق المهرجانات . لذا فأني لم لاحظ ، الا بعد هنية ، أنها كانت تعود فتظهر . رأيت واحدة منها ثم أثنين فثلاثا تضرب الورق الاخضر الفاتح ، لا يبدو منها سوى طرف رأسها وعيونها الصغيرة بحجم رأس الدبوس وهي تنظر الي . كان في الماء تيار خفيف ، فلمحت واحدة منها تنحرف برفق وتنساب بين أرخييلات نشارة الورق الطافية ذات اللون المشابه للون الضفادع الصغيرة وكأنك أمام غريق طاف ، نصف رأسه يبرز من الماء وأطرافه الصغيرة المرتخية غائصة فيه . ثم تحركت فلم أعد أراها ، بمعنى أنني لم أرها تتحرك ، وانما غابت من هناك ، تاركة وراءها أثر غيمة الوحل التي أثارها . كان الماء لزجا ، وطعمه لزجا أيضا ، كقطع السمك الجري . شربت الماء ، وأنا أباعد بين نشارة الورق ، محترزا من امتصاص الوحل الذي كان يهيج من أدنى حركة . وكان وجهي بين الاسل والاوراق العريضة الشبيهة برؤوس الحراب . ثم بقيت هناك ، جالسا عند طرف الغابة خلف الادغال ، وانا اتسمع لطيور الوقواق ، وهي تتجاوب بين جذوع الأشجار الساكنة في هواء الربيع الأخضر ، وانظر الى الطريق التي كانت تلتف حول المستنقع ثم تحاذي الاشجار .

وبين الفينة والفينة ، كانت تقفز سمكة محدثة صوت وقوع حجر في الماء . لم أوفق في صيد واحدة منها ، ولم أرسوى الدوائر المركزية التي كانت تتوسع حول المكان الذي غاصت فيه . في احدى اللحظات ، حلفت طائرات عالية جدا في

السماء ، رأيت واحدة منها أو شيئا ما أو نقطة فضية عالقة جامدة متألقة ، خلال جزئي من الثانية ، داخل حفرة زرقاء بين الاغصان ، ثم توارت وكان طينها يبدو هو أيضا عالقا مرتجا في الهواء الخفيف ، ثم تضائل شيئا فشيئا . فسمعت مرة أخرى حفيف الأشجار ، ثم صوت الوقواق ، وبعد ذلك بقليل ، وعند منعطف الطريق ، ظهر ضابطان وهما يسرجان حصانيهما . ولكن ربما لم يكن الناس هنا يعرفون ان هناك حربا تدور . كانا يمشیان الهوينى ويتأزحان ، اذ رأيتها يرتديان الخاكي ، وليس الأخضر . نهضت وأنا أفكر بالموقف الذي سوف يتخذانه مني عندما يرياني أو عندما أحكي لها ان الدبابات تتسكع على الطريق ، على مسافة ستة كيلو مترات أو سبعة من هناك . لا شك أنها ليسا مطلعين على مجريات الأمور . فأنتصبت على قدمي ، وسط الطريق في سكون الغابة ، وأنا أنصت لصوت الوقواق . وبين الفينة والفينة كنت أسمع صوتا سريعا لا مرثيا كسولا لقفزة سمكة من صفيحة الماء الثابتة ، وبعد ذلك طفقت أقول في نفسي : « يا الهي ، يا الهي ، يا الهي ! لقد عرفت ، عرفت ماذا كان الصوت الذي يوافيني أو بالاحرى يداهمني متعاليا متباعدة هادئا بشوشا بعض الشيء » وهو يقول : « اذن لقد نجوت من التهلكة ؟ » ثم قال بعد ان التفت الى الملازم الثاني القصير : « كما ترى ، أنهم لم يموتوا جميعا ، فهناك قسم منهم قد نجا . » ثم قال وهو يوجه الكلام صوبي : « انجليزيا يلحقنا ومعه حصانان . مالك الا ان تأخذ واحدا منها » كنت اسمع هدير الماء ، حيث كان المستنقع ، يطفح فيتهاوى كشلال صغير . كما كنت أسمع (حفيف الاوراق يحركها النسيم العليل . وعلى مستوى نظري ، رأيتهم وهم يلوون ركبهم بطريقة لا مرئية ، والحصان يستأنف المسير مارا من أمامي ، والجزم تلمع والمنكبان يكسوهما شعر أحمر بلون خشب الاكاجو ملتصق من كثرة العرق الجاف ، ثم العجز فالذيل . ثم استعرضت المستنقع الذي كان النسيم يهز فوقه الأوراق العريضة الشبيهة برؤوس الحراب

وكان صوته ، اذ كان يبتعد ، يوافيني مرة ثانية (ولكنه لم يكن هذه المرة بوجه اليّ الكلام . فقد استأنف حديثه الأصولي مع الملازم الثاني القصير . واستطعت ان أميزه فقد كان مترعجا قليلا مسترخيا) وهو يقول : «يا لها من قضية سافلة (هذه الدبابات تستخدم ظاهريا ك...» ثم أصبح بعيدا جدا . كنت قد نسيت ان هذا النمط من الأمور كان يدعى بكل بساطة «قضية» كما يقال «ان لفلان قضية» أي أنه «سوف يدخل في مبارزة» . وهي تورية رهيبة أو صيغة أكثر تحفظا وارق . نعم الأمر ! لاننا لم نفقد شيئا بعد . بما أننا ما نزال بين ظهرائي أناس طيبين . قل أولا نقل . مثلا لا نقل أن «السرية» أيدت لوقوعها في كمين . ولكن قل : «كانت لنا معركة حامية عند مدخل القرية المسماة ...»

في ذلك الحين ، كان صوت انجليزيا ووجهه الشبيه بوجه المهرج الإيطالي بوليشينيل ، يحدجني . بعينه المدورة ، مترعجا ، وقد عيل صبره ، ولكن الاستنكار لا يكاد يبدو منه ، وهو يقول : «اذن ستركب أم لا ؟» منذ اليوم الذي حررت هذين الحصانين البجيرين ، لا تحسبني قضيت وقتي في الراحة . اني لأقسم لك بأن ... ! : امتطيت صهوة جوادي وتبعتهما . كان عليّ أن أجري خبيبا لكي الحق باينجليزيا . ثم ترجلت فأصبحت قادرا أن أراه من ظهره وهو الى جانب ذلك الملازم الثاني القصير ، يمشیان الهويني . والحصانان يمشیان مشيا هادئا رهيبا ، فلا استعجال هناك اطلاقا ، وانما الهدوء الذي لا نلاقه الا لدى الكائنات أو الاشياء (كالملاكين والثعابين والطائرات) القادرة ان تضرب أو ان تفعل أو ان تنتقل بسرعة الصاعقة ، فيما السماء والسحب القطنية الساكنة تواصل انسياها وانحرافها بسرعة لا يكاد المرء يشعر بها ، وبالاتجاه المعاكس (بحيث ان مباراة بطيئة كانت تجري بين الغيوم وبين الاشباح المشوقة الرشيقة الضامرة التي كانت تتوالى صوب المكان الذي كان مطلق اشارة البدء ينتظرهم فيه وسوطه بيده ، مباراة أشبه باستعراض يهجم فيه كل واحد هجمته الملكية .

غير مكترث بالجمهور الذي نفذ صبره بسبب تافه : فالخيول المتكلفة الأصالة
المرهفة المزهية القادرة على أن تتغير في ومضة برق الى شيء أطلق لا بسرعة جنونية
فحسب وانما بكل ما للسرعة من معنى ، وليس على بلوغ الغيوم الشبيهة بالجيوش
المتغطسة المتراصفة الساكنة فوق البحر التي تبدو وكأنها تنتقل بقفزات وبسرعة
خيالية ، فيما العين قد ضجرت من سكونها فتركها ثم عادت فلمحتها بعد ذلك
وهي دوما ساكنة ظاهريا في الطرف الآخر من الأفق ، وهي تقطع بذلك
مسافات خرافية ، بينما تمشي من تحتها المدن والتلال والغاب ناعمة هينة ، غيوم
تستعرض من تحتها ايضا ، وبدون أن يبدو منها اي حراك ، مدن أخرى وغاب
اخر وتلال تافهة اخرى تستعرض بخيلاء وأبهة وكبكية ، رغم ان الحصن
والجمهور تركوا ميدان السباق والمدرجات والعشب الاخضر المبقع الملوث
بربوات بطاقات الرهان الخاسرة ، كربوات جنث الاحلام والامال الدقيقة التي
تموت ولما تبصر النور (أمسية عرس لا أرضي ولا سماوي وانما عرس الأرض
والبشر ، الأرض التي تلوث ببقاء هذه الفضلات وهذا التلوث العاتي الجنيني
لبقايا التذاكر التي مزقتها غضب خاسرها وذلك بعد ان قذف آخر الحصن حزمة
العشب التي اقتلعها أثناء جريه في الهواء ، وراح محفوا بالعناية والخدم والحيلة
والاهتمام أكثر من نجم سينائي . وبعد ان اصطدم صدى الضوضاء الأخيرة
العاتية بالمدرجات الصامتة التي استسلمت لفرق التنظيف لا يسمع منها سوى
صرير المكناس الخفيف) . كفت كورين عن استراق النظر لما كان يجري في نهاية
المنحدر ، وضربت الأرض برجلها ضربا شديدا وقالت : «ألا تستطيع الكف
عن النظر لحظة الى هذا الشيء ؟ ألا تسمعي ؟ لم يبق أمامك الآن شيء تراه . فقد
هموا بالرحيل . أنهم ... هل تسمعي ، نعم ؟ » . أما هو فقد أبعد المنظار الصغير
عن وجهه متأسفا ، والتفت اليها بعينه الشبيهتين بعيني السمكة وجفونه ترف
وبؤس كدران كأن ضبابا. اعترضها ، وهو يحاول ان يتناسب مع المسافة المقربة ،

ويقول بصوته الهزيل الخائف الناحب : « كان يجب عليك الا .. فأنه .. » لم ينته صوته المنازع الذي خنقه وغمره (فضلا عن رنين الجرس الوحشي المزعج) النفس الطويل المنبعث من الجمهور المغشي عليه والنهم معا (لم يكن هذا النفس قمة في الشهوة وانما ما يسبق تلك القمة ، ان صح القول ، أو ان شئت تلك اللحظة التي يجترق فيها الذكر أنثاه) بينما كنت تستطيع أن تشاهد ، هناك في تلك الآونة شيئا ما يشبه بقعة مستطيلة مخططة تنتقل تنقلا سريعا في الخضرة على مستوى الأرض ، وقد انتقلت الخيول من شبه سكونها الى الحركة ، والجحفل ينسل بسرعة انسلالا مستمرا في الطريق الافقية ، وكأنه يمشي على سلك حديدي أو على عجلات صغيرة ، كمثل لعب الأطفال التي تكون الحصن فيها ملتحمة ببعضها ، كقطعة واحدة مقتطعة من ورق مقوى أو من صفيحة معدنية ملونة زحلقنت بسرعة على امتداد الشق المعد لهذا الغرض ، وسط منظر طبيعي خداع ملون ومرنق ، حيث تبدو اجسام الفرسان ماثلة الى الأمام والخيول تسترهما الأسبجة حتى بطونها : ثم انتهوا الى محل امكن فيه تمييز آثار وقع الاقدام وتمكنوا حيناً من مشاهدة حوافز الحيوانات تغدو وتروح بسرعة ، مثل بركان ينفث وينفلق ، ولكن دائما بوتيرة ميكانيكية واحدة منتظمة ومجردة للعبة تعمل بالنابض :

ثم عادوا لا يشاهدون خلف الغابة الصغيرة سوى مرور السترات الحربية ، تمرقها جذوع الأشجار والاغصان فهي أشبه بحفنة من نشارة ورق الكرنفالات التي كانت تبدو - ربما من جراء المادة المكونة لها ولألوانها الزاهية - وكأنها تجمع وتركز على نفسها كل الضياء البراق الذي زان ذلك العصر . اما البقعة الوردية الصغيرة التي كان تحتها جسم رجل بلحمة وعضلاته المقتولة ودمه المتدفق الصاخب واطرافه المضطربة المرتبكة فقد كانت في المرتبة الرابعة :

وقد روى ايجليزيا في وقت لاحق قائلا : «لانه كان يجيد الركوب فعلا . يجب أن أقول الحقيقة وهي أنه كان يجيد الركوب قليلا . الحق يقال أنه كان قد أنطلق أنطلاقة مضحكة في أول الأمر ، أما الآن فقد كان الثلاثة واقفين هو وجورج وبلوم : الشابان وذلك الايطالي (او الاسباني) المدبوغ الجلد الذي كانت سني خدمته هو وحده تعادل سني خدمة الثاني والثالث مجتمعين ، ولا شك ان خبرته كانت تفوق خبرتهما عشر مرات أي ما يعادل ثلاثة أضعاف خبرة جورج . لانه على الرغم من كونه هو وبلوم متساويين في السن تقريبا ، كان بلوم يمتلك بالوراثة معرفة (وكان جورج يفوقه ذكاء ، ولكن لم يكن ذكاء فحسب وإنما أكثر منه : أي الخبرة العميقة الوراثة التي انتقلت الى مرحلة الانعكاس والغباء والخبث التي هي من خصائص الانسان). أشياء تعادل ثلاثة أضعاف ما يعرفه شاب من عائلة عريقة . فقد استطاع أن يستخلص من الأدباء الكلاسيكيين الفرنسيين واللاتينيين واليونانيين ، مضافا الى هذا عشرة أيام قضاها في معركة ، أو بالاحرى في انسحاب ، او بالاحرى في ملاحقة الطرائد بواسطة كلاب الصيد ، حيث كان هذا الشاب سليل العائلة العريقة قد مثل دور الطريدة تمثيلا ارتجاليا . فقد كان الثلاثة اذن قد اجتمعوا ، هناك باختلاف أعمارهم واصلهم ، وكأنهم قدموا من الجهات الأربع . قال جورج :

(لا ينقصنا الا الزنجي . ألسنا نحن الثلاثة ساما وحاما ويافت ولكننا نحتاج الى رابع ، كان علينا ان نستقدمه : وأخيرا كان من الأصعب ان نتخلص من هذا الطحين ونجلبه هنا من أن نتخلص من سوار الساعة) .

وجثموا في ذلك المكان من المعسكر الذي لم تضرب بعد أطنابه ، وراء أكوام من الآجر . وكان ايجليزيا يطبخ على النار شيئا ، كان قد سرقه أو حصل عليه بالمقايضة ، وكان هذه المرة جزءا مما يحتويه كيس الطحين الذي حصل عليه جورج بمقايضة ساعته التي اهدته أياها عمته العجوزان ماري واوجيني بمناسبة

نجاحه في البكالوريا ، وكان المقايض بالضبط شخصا أسود سنغاليا من المستعمرات - كان هو أيضا قد نشله ، الله أعلم ، ممن وأين مثلما ينشل أحدهم شيئا ، الله أعلم من أين ويجلبه الى المعسكر ، الله أعلم بالسبب وبالغاية ؟ ربما يكون النشل صدفة ، أو مجرد الاستمتاع بلذة النشل والاقتناء والحفاظ ، ينشل أحدهم كل ما يمكن بيعه وشراؤه ومقايضته أعني تقريبا كل شيء أي المجموعة الكاملة التي يحتويها جناح في مخزن كترهات الزينة والتحف القديمة والمأكولات : لا أقصد أشياء فحسب مثل كيس الطحين ، أشياء مفيدة أو صالحة للأكل ، وانما أيضاً أشياء لا فائدة منها ، ولكن بالعكس تضايقت ، أشياء تستهجنها كالجوارب أو سراويل النساء أو كتب فلسفة أو الخلي الكاذبة أو دليل السباحة والصور الخلاعية والمظلات أو مضارب كرة اليد أو بحوث في الزراعة أو مسجلات صوت أو بصلات زهور أو أكورديونات أو اقفاص طيور - يكون الطائر في داخلها أحيانا - أو أبراج أبفل من البرونز أو ساعات أو أكياس واقية من الحمل ، هذا اذا ضربنا صفحا عن آلاف الساعات ومقاييس الزمن والمحافظ الجلدية من جلد العجل أو التمساح أو أي جلد عادي لبقرة فقد كانت تشكل كلها البضاعة السائدة في ذلك العالم ، أشياء وذخائر وغنائم حملها سارقوها ثقلين من مسافة كيلومترات طويلة ، وقد أنهمكهم الجوع والتعب ، عاشوا في السر وقد نجوا من التفتيش والمطاردة وسلموا رغم المحاذير والتهديدات فبرزوا ثانية ليظهروا ، لا يوقفهم خوف ، في أسواق سوداء سرية حامية وقاسية والدافع الى هذه الأمور لم يكن قصد الاقتناء بقدر كونه الحصول على شيء يبيعهونه أو يشترونه. ونظرا لقيمة الساعة العالية ، فأنها تجعل رغيف الخبز (لان ما كان يستحضره انجليزيا هو أنه كان يصب على صفيحة صغيرة متصدئة الغجين المهيأ من الماء والدقيق وقليلاً من مرغرين الشحم الذي يوزع على السجناء على شكل رقائق صغيرة تجعل رغيف الخبز الصغير ذا قيمة لا يجزؤ متعهد أي مطعم فاخر

أن يدفعها مقابل قطعة صغيرة من سمك الكافيار) كان الثلاثة اذن كلهم هناك (كان أحدهم مقعيا والآخران يرصدان). وكأنهم ثلاثة متسولين يتصورون جوعا ، في احد الأمكنة الغامضة التي نجدها بالقرب من المدين . لم يبق عليهم ما يمكنك من اعتبارهم جنودا أو بالاحرى كانوا يرتدون ملابس لا قيمة لها ، ملابس هي من حصة المحاربين المدحورين ، لا أقول ملابسهم ولكن كأنما المنتصر المازح اراد ان يتمتع على حسابهم وأن يجعلهم يشعرون بحالة هزيمتهم شعورا أعمق ، حالة الفضلات والنفايات وربما لم يكن هذا قصد الغالب : وإنما مجرد النهاية المنطقية للنظم والاحكام التي ربما كانت عقلانية في الأصل ، الاحكام الجنونية في مرحلة تنفيذها ، كالمرونة التي يتحلى بها الانسان ، على أثر تطبيق الية جافة كالجيش أو سريعة كالثورات ، مرونة تأتي من جراء تطبيق غير أمين للأوامر ، أو من الوقت أو الانعكاس الصحيح لفكرته المجردة . كان الثلاثة اذن يرتدون بدلا من معاطف الفرسان التي أنتزعت منهم ، معاطف مقلنسة يرتديها الجندي الجيكي أو البولوني أستلموها كبدائل (ربما من جنود ماتوا وربما كانت المعاطف للمقلنسة غنائم حرب أستولي عليها وهي في المخازن لم تمسسها بعد يد بشر في وارشو أو في براغ) وكانت ، بالطبع ، ذات قياسات لا تناسبهم أطلاقا . فقد كانت ملابس جورج ذات أكام لا تكاد تصل الى مرفقه . أما ملابس أيجليزيا فكانت أشبه بفزاعة طيور أو بملابس بوليشينيل المهرج الأيطالي الشهير ، فقد كان يسبح (لان جسمه جسم فارس السباق قد ضاع) داخل معطف مقلنس لا يظهر منه سوى أنفه الشبيه بأنوف أهل الكرففالات وأطراف أصابعه . كانوا ثلاثة أشباح أو ثلاثة ظلال غريبة الشكل لا واقعية . كانت عيونهم تتصور جوعا ، ورؤوسهم خليقة تماما وملابسهم زرية ، وقد انحنوا على نار هادئة لا يعلم بها أحدا ، في تلك الزينة الخرافية التي كانت ترسمها السفائف الممتدة فوق السهل الرملي مع بضعة أشجار صنوبر ملتفة هنا وهناك ، عند الأفق

والشمس المحمرة الساكنة مع أشباح أخرى شاحبة تائهة كانت تقترب وتحوم حوماً مخجلاً حولهم ، وهي تنظر اليهم حاسدة جائعة نهمة كذئاب (كانت هذه الأشباح أيضاً مرتدية تلك الملابس بلون الوحل والمرارة ، وكأنها شكل من أشكال العفونة أو كأن التفسخ يعطيهم وينخر فيهم ويهاجمهم ، وهم بعد وقوف ، بدءاً بملابسهم ثم يتقدم ماكرًا : كلون الحرب تماماً وكلون الأرض يستحوذ عليهم. رويدا رويدا ، هم ذوي الوجوه الترابية وخرقهم الترابية أيضاً . يغلب على كل هذا لون قذر غير متميز كان يبدو وكأنه يخفيهم ويظهرهم داخل التراب والطين والغبار الذي منه والذي يعودون اليه تائهين خجلين منذهلين منكئبين كل يوم) حتى أنهم لم يكونوا ذئاباً جائعة هزيلة شرسة متوعدة ولكنهم كانوا مغتمين من ضعفهم الذي لا يتاب الذئاب ولكن البشر ، أعني عكس ما كان يحدث لهم لو كانوا ذئاباً حقيقية . فقد كانوا محبوسين عن المهاجمة فاقدى الشجاعة قبل أن يحسبوا ما ستمثله الاقراص الهزيلة القليلة التي كانوا يلهفون لان يتناولوها ، بعد ان توزع على الف شخص . مكثوا اذن هناك لا همّ لهم سوى التسكع وبريق الجريمة يتألق في عيونهم . وحيناً تطايرت طابوقة ، أصطدمت بكثف ايجليزيا ، فقلبت الصفيحة والعجينة ولما تنضج فسالت على النار . رمى جورج الطابوقة التي كان يمسكها هو أيضاً باتجاه الشخص الذي كان يفر هارباً (ربما لم يكن الدافع رغبة بسيطة في القتل او العدوان وانما كان اليأس والجوع القاتل الذي ينخر في أعماقه وقد استقر في بطنه ، ثم أنه بعد ان رمى الطابوقة لم يستطع التحكم بها ، كان المارب على أثرها قد توارى ليس خشية المجابهة أو خوفاً ، ولكن لشدة خجله هو وفشله) . جمع ايجليزيا العجينة قدر المستطاع فوضع الصفيحة فوق النار ثانية فطفق الرغيف ينضج وأخذت تتجمع في داخله جزئيات سوداء متفحمة حاولوا ازالها فيما بعد ، ولكن مع ذلك بقي شيء منها في الرغيف وعندما كانوا يأكلونها ، كانت تفرقع بين أسنانهم . وكان مذاقه يستحيل

وصفه ويرغمهم على البصاق ، ولكنهم مع كل هذا اكلوه كله حتى آخر كسرة . كانوا كالقردة مقعين على أعقابهم تكتوي أصابعهم عند سحبهم الرغيف عن الموقد - او الأخرى عن الصفيحة المتصدئة المتكسرة التي كانت تؤدي غرضه - فقال أيجليزيا بعد أن تناول اللقمة (في ذلك الوقت اندفع وطفق يتكلم بدون انقطاع ببطء ، ولكن بطريقة مستمرة هادئة ، وعلى ما يبدو ، فقد كان يتكلم مع نفسه وعيناه الكبيرتان تمهلان في الفراغ وهما مشدوهتان ورزيتان في آن واحد) : «مع القردين او القردة الثلاثة الذين صعدوا الى ذلك السباق والذين رأوه . لم يكن الأمر هينا . اني أؤكد لك ذلك . لان الشخص الذي يصعد كجنتلمان في سباق مع فرسان ، ليس له ان يتوقع تنازلات ومجاملات . لكنه كان قد دبر أمره تدبيرا غريبا : فلقد أصبح في المرتبة الرابعة ، وجل ما بقي له ان يفعله هو ان يستقر عليها . ولا بد ان ذراعيه قد أنهكها التعب . اني أؤكد لك ذلك لاني أعرف طباع تلك الفرس وكيف كانت تلك الحمقاء تعدو ... » وتراءوا أخيرا بعد آخر شجرة وحسب الترتيب نفسه والبقة والقطعة الوردية كلتاهما في الوضع نفسه ، بينما كانوا يباشرون القسم الأخير من المنعطف ، وقد تحرك الجحفل رويداً رويدا ككتلة مضطربة .

فقد (بدا الآخرون وكأنهم يلاحقون الأوائل) أصبحت عند نهاية الخط المستقيم موجة مضطربة أو رغوة من رؤوس تعلو وتهوى ، والخيول متجمعة كعلبة ، لا يشعر أحد بتقدمها تارة (باستثناء فلانس الفرسان التي كانت تصعد وتهبط) الى ان اجتاز الجواد الاول السياج ، أو حطمه فجأة ، بمعنى انه وصل هناك ، على حين غرة ، وقد دفع بقائمتيه الأماميتين قدامه جامدتين متلاحقتين « والأصح احتداهما تسبق الأخرى قليلا ، ولم يكن الحافران على ارتفاع واحد . وكان الجواد مندفعاً بنصف جسمه ، بين الحزم البنية اللون التي كانت تعلو الحاجز ، وهو مستند ظاهريا على بطنه ، لكي يحصل على التوازن ، وقد تجمد على ما يبدو

جزئيا من الثانية « حتى اندفع الى الامام . ثم ظهر الثاني ثم الثالث حتى ظهر عدد كبير منها مجتمعة جامدة متوازنة متتالية في وضعية حصان يحمل أرجوحة . وتجمدت جميعها وانحنت الى الامام .

وتحركت فور ملامسة حوافرها الأرض - حينئذ طفق الجحفل يعدو متلاحما ، باتجاه المنصات ، متصخفا قافزا الحاجز التالي ثم حدث ما يلي : شيء يشبه الرعد الصامت ، وصوت وقع الخوافر على الأرض وحزم الحشيش المتطايرة بعيدا الى الخلف ، والستر الحريرية المدعوكة تصفقها ريح السباق ، والريح التي يحدثها المتسابقون المنحنون الى رقاب الخيل ، لم يكونوا جامدين كما ظهروا في الخط المعاكس ، ولكن متأرجحين قليلا من الامام الى الوراء ، على وتيرة ملامسة الخيول الأرض بأفواهها المضغرة المتشابهة التي تنسقط الهواء وبهايتها المشابهة للأسماك التي أخرجت من الماء التي تكاد تختنق والفرسان يملأهم المنصات ، يحيق بهم أو يغطيهم رداء الصمت الذي كان يبدو وكأنه يعزهم (كانت هناك بعض الصيحات تنطلق من الجمهور - ولكنها لم تكن موجهة الى آذان الفرسان بل الى آذان المشاهدين انفسهم - قادمة من بعيد ، تافهة لا جدوى منها ، غريبة ضعيفة كتمائم الأطفال) تصاحبهم ، تاركة وراءهم بعد مرورهم بفترة طويلة ، تيارا من الصمت . كان صوت وقع الخوافر يتضاءل فيه ويتناقص ، لا يسمع الا على فترات متقطعة ، أثر الطرق الجاف (كصوت انكسار غصن الشجرة) الذي ينبجم عن ضرب السياط ، هذه (الاصوات الضعيفة التي كانت تتباعد هي أيضا وتتناقص) . ثم اجتاز الاخير السياج العالي « متوجا اندفاعه الخفيف تماما كالارنب وبقيت صورة مؤخرته وهي في هيئة الرفس مطبوعة على الشبكية ، ثابتة . ثم اختفى الفرسان والمطايا خلف المنحدر الى الجهة الأخرى من السياج . وكأن كل هذا لم يحدث ، وكأن مشهد الخيول الاثني عشرة مع فرسانها قد توارى فجأة مخلفا وراءه مجرد غمامة من الدخان يضيع في

داخلها السحرة والعرافون ، أوظفاوة ضباب حمراء أو غباراً ، معلقاً ، راكداً أمام السياج حيث كانت الخيل تتسابق فتوضح الجو شيئاً فشيئاً واسترخى تحت ضوء العصر الذي أوشك أن ينتهي . فأدار انجليزيا قناعه الشبيه بأقنعة اهل الكرنفالات باتجاه كورين . فقد كان مخيفاً وجديراً بالرحمة في آن واحد . ولكنه في تلك اللحظة كانت تغمره أحاسيس طفولية وافتتان صبياني وقال : «هل رأيت ؟ انه ... لقد قلت أنها اي الفرس سوف ... وان الأمر يجري بسهولة وان مالك سوى ان ...»

فنظرت اليه كورين دون ان ترد عليه وهي ما تزال متأثرة بغضبها الدائم وحنقها الصامت الجامد فتلعثم انجليزيا وقال مرتبكاً : «أنه ، أنها سوف أنك ...» ثم لازم الصمت . أما كورين فواصلت تفرسها فيه هنية ، ولكن من غير ان تقول له شيئاً باحتقارها الذي لا يثنى . وأخيراً هزت كتفها ، فتحرك نهذاها مرتجفين تحت قماش ثوبها الخفيف فيما كان لحمها الغض الشاب الفتي القوي يبعث القسوة والعنف الصبياني اعني بذلك انعدام الحس الاخلاقي وانعدام المحبة كلياً ، ذلك الحس الذي لا يمتلكه الا الاطفال ، أو تلك الضراوة البريئة التي تلازم طبيعة الطفل نفسها (جيشان الحياة الشامخ العاتي الذي لا يقهر) ، وقالت له ببرودة : «اذا كان يقدر ان يجعلها تفوز مثلك فأني أتساءل لماذا استأجرك؟» حملق الواحد في الآخر (كانت هي مرتدية ما يشبه الثوب الذي كان يجعلها ثلاثة أرباع العارية .

أما هو فقد كان مرتدياً سترة عتيقة ملطخة تناسب تقريباً قيصها الحريري اللامع الذي كان تعوضه للناظر ، كما كانت تناسب وجهها المتألم الميقع بحبيبات الجدرى الناعمة وشكلها (الحائر المنبذل أشبه بمن يضرب شخصاً بكلمة أو بحقبة أو بمنظار في بطنه) فبقى على هذه الحال وقتاً قصيراً وربما جزئياً من الثانية وليس وقتاً لا نهاية له كما تصور وروى في وقت لاحق . فقد روى ان ما أيقظها

وانتزعها كليهما من دهشتها ومن لقائهما الخائق لم يكن صراخا - أو ألف صراخ - أو تعجب - أو ألف تعجب - ، وإنما كان ضجيجا أو شهيقا أو حفيفا أوراق الشجر أو شيئا غريبا يركض مرتفعا ان صح القول ، فوق مستوى الجمهور وعندما نظرا رأيا البقعة الوردية ، ولكنها لم تكن في المرتبة الثالثة وإنما في المرتبة السابعة تقريبا . كان الجحفل الذي قفز التلة قبل قليل غير متلاحم هذه المرة ولكنه تمطط على مسافة عشرين متراً ، راکضاً في الطريق ركضاً منحرفاً . فقالت كورين : «لقد قلتها وكنت متأكدة من قولي . ياللغبي . يا له من غبي أحمق . انت ...» لكن ايجليزيا لم يعد يسمعها ، وإنما كان ينظر بمنظاره الى وجه دي ريكساك السابح في العرق وجهه الذي لا تؤثر فيه الانفعالات ، وإنما كان فقط مهتاجاً من القفزات القصيرة فقد كانت الفرس كلما يسترخي ذراعه يمسك السوط ، تطيل مسافة وقوعها على الأرض ، هي تسبق واحداً فواحداً ، بكرها وفرها ، كل الجياد ألتي تقدمتها .

بحيث انها ادركت الموقع الثالث الذي كانت تحتله سابقا . عندما وصلوا الى النهر ، بدت الفرس الشبيهة بسيكة طويلة من النحاس تستطيل ثانية وتمطط في الهواء وكأنها تتخلص ليس من الأرض فحسب وإنما من الجاذبية نفسها ، لان الفرس لم تبدو وكأنها تسقط وإنما كانت تستمر وهي في الهواء في موقعها الثاني . فيما كانوا يتجاوزون الفرق انقطع سوط دي ريكساك من الضرب فقالت كورين ثانية : «ياللغبي ، ياللغبي ياللغبي ...»

حتى قال ايجليزيا ، بدون ان يخلع منظاره ، بنبرة وحشية : «الا أسكتي » لحاك الله مني . أفلا تسكينين ؟» بقيت كورين فاعرة فاهاً ، مغفلة ، بينما كان الجحفل يتبعد الى يسارهما ، وسط ضياء الشمس المعاكس تحت الغيوم المعلقة أو تحت الغيوم المصبوغة ، ان شئت ، في السماء وقد انقسمت الخيل في تلك الآونة الى مجموعتين : كانت أربعة خيول في المقدمة وبعد مسافة خمسة عشر

متراً . كان الفريق الثاني متكون من كتلة متراصة تسحب وراءها ذبيلا في جماعة المتأخرين المبعثرة المتباعدين الواحد عن الآخر ، حتى يصل بك الأمر الى الأمير الذي كان يلتهب جسمه تحت السوط كلما داس الأرض . بينما كانت مجموعة الرؤوس تميل الى اليمين ثم تعود فتختفي وراء الغابة الصغيرة ، وكانت سترهم الزاهية الألوان تلوح ثم تتوارى بين الأشجار ، ولكن بالاتجاه المعاكس ، اعني من اليسار الى اليمين . وفي الوقت نفسه كان الجمهور ينفصل عن العشب (في البدء كانت نقطة سوداء ثم نقطتان ثلاث ثم عشرو بعد ذلك كعناقيد كاملة) عن الحاجز الذي مر الجحفل على امتداده راكضاً (والنقاط الشبيهة بالذباب وكحفنة كريات بلورية) ينفصل في اتجاه الخيل نفسها ، لكي يحتشد على امتداد الطريق العرضية فكانت السترة الوردية هذه المرة هي الأولى ولكنها ملتصقة تقريبا بسترة الفارس الثاني . أما دي ريكسكاف فكان يعدو بفرسه خارجا عن الخط منحرفا الى يساره ، بحيث انه أصبح في وسط الخط . فتقدم الجواد الثاني وحده ، والجوادان الآخران كانا على مبعدة خمسة أمتار وراءه . وتوجه الأربعة نحو السياج العالي بركضة أبطأ وأكثر تقطعا . بحيث ان الفرس بدا عليها الاستسلام للتعب لأول وهلة ، فقصرت المسافة بين قائمتيها الأماميتين والخلفيتين قليلا . ولكن ايجليزيا لم ينخدع ، فاطبق منظاره على عينيه بقوة فيما كانت تواصل عدوها ، ولكن ليس باتجاه الحاجز مباشرة وانما منحرفة . كان دي ريكسكاف متشبثا ، بكل قواه ، بالزمام المقابل وهو يهوى بسوطه . فأقبح في اعادتها الى اليسار ، فتباطأت الفرس أكثر من قبل ، وظهرت وكأنها تنكش تحته . فطفرت الحاجز الهائل (لانه توصل الى ذلك بفرض ارادته عليها) ليس كما كانت قد عبرت النهر ، ولكن ، ان صح القول ، توقفت فانطلقت باطرافها الأربعة انطلاقة واحدة عمودية وسقطت وراء الحاجز سقوطا قويا جدا ، بحيث ان دي ريكسكاف هبط على عتق الفرس تقريبا في الوقت الذي كان يلهب ظهرها بسوطه ، فكرت

ثانية ، فأصبحت فقط على مبعده مترين من الحصانين اللذين كانا يلحقانها وقبل الوصول الى السياج العالي . كان كل من كورين وايجليزيا يستطيعان رؤية ذراع ريكسكاه وهي تلوح بالسوط الذي يتهاوى بلا هوادة ، وكانت أذانها تطنان من ضجيج الجمهور الخائب الوحشي . ثم قفزت الجياد الأربعة ثانية ، وعبرت السياج الاخير ، وكان دي ريكسكاه يتعقب الجواد الثالث . ثم لم يبق شيء أمام الجياد سوى بساط من النجيل المخضوضر الغني الهائل . كانت تظهر الفرسان والجياد عليه ، ناعمة جدا متفرقة تتحرك حركات هرجاء متبعثرة متأرجحه تأرجحاً بطيئاً من الأمام الى الوراء متقطعا متكاسلا مضحكا . فقد أنهكت قوى الجياد التي كانت تبذل آخر الجهود ، واصبحت وجوه الفرسان اشبه بالسمكات الغريقة ، فصارت افواههم المفتوحة تبحث عن الهواء . وقد اوشكوا ان يختنقوا ، فيما كانت صيحات الجمهور تكتنفهم ، وكأنها مادة صلبة سميكة يحاولون اختراقها دون جدوى (انطباع المرواحة الذي كانوا يتركونه والذي كان يتعزز بفعل النواظير التي كانت تلاحق الكوكبة) وكأنها طبقة معادية لا مريئة لثروة سميكة كالماء - او كالفرغ . ثم انقطع الصباح وخفت . فأطلق ايجليزيا العنان لناظوره . فسقط من امام عينيه فأدرك انها غابت من هناك ، وعرف ان ثوبها الأحمر العدواني قد اصبح دونه عند اسفل المدرج . فأنحدر متخطيا المدرج اربع درجات كل خطوة ، وهرع اليها يلاحقها . اما هي فالتفتت اليه ، ولكن بدون ان تتوقف عن المشي (فكر ايجليزيا) في نفسه فكرة سريعة قائلا : « ترى الى اين تذهب وماذا تريد ؟ » ثم قال مسمعا صوته : « على كل حال فقد توصل الى ان يحصل على المرتبة الثانية . ولم تنقصه الحيلة لكي يتجاوز الفارسين اللذين كانا يتقدمانه » اما هي فلم ترد عليه . وتظاهرت بعدم السماع . اما هو فقد كان يعدو دائما الى جانبها على قدميه القصيرتين وهو يقول : « لقد حققت فوزا عظيما ، أرأيت ، أنها ... » ولكنها كانت تمشي هي بدون توقف وتقول : « المرتبة الثانية ! جيد جدا . لله درها . يالها من

مرتبة ! عندما كان عليه ان يفوز بالمرتبة الأولى « تاركاً وراءه المتسابق الثاني ، على بعد عشر خطوات . هل ترى ان ذلك... » ثم توقفت فجأة ، والتفتت اليه التفتاة فيها من المفاجأة والمباغطة ماجعله يوشك ان يتعثر بها . فصرخ على الفور (ولو انها لم ترفع صوتها ولكنها لو فعلت لكان افضل من ان ترأر وتزجج) : « هل راهنت عليها مجلية ام رابحة ، الا قل لي ؟ ام هل راهنت عليها مجرد رهان ؟ » ثم قبل ان يكون له مجال لأن يفتح فيه ، كانت ماتزال تصرخ بنبرة لا يكاد المرء يسمعها ، ولكن الصراخ كان أنكر الاصوات وهي تقول : « كلا ، انا قلت لك انني لن أسألك ان تريها لي وأنتك لو فعلت فبإمكانك الاحتفاظ بالنقود لنفسك كحلوان وك... » وقال انه ادرك في ذلك الحين بانشداه انها تبكي ، ربما من حنقها ، كما روى في وقت لاحق ، او ربما من غيضاها او ربما من سبب اخر .

وهل بإمكان المرء ان يتصور ابداً ماذا يدور في خلد النساء ؟ ولكنها على أية حال كانت تبكي ولم تكن تتمالك نفسها عن البكاء . وسط كل هؤلاء الناس ... وروى فيما بعد انها كانت واقفين هناك الواحد ازاء الآخر بلا حراك وسط الجمهور الذي كان يتفرق بهدوء .

فقالت هي مرددة : « كلا ، قلت لك كلا ، لا أريد ، لا أريد ان أراها . وجل ما أريده هو أن تقول لي لمجرد أن أسمع منك وأنت تقول . اني » ثم قالت : « يا آلهي . يا آلهي . لقد ربحت انت اذن . لقد ربحت ... » فنظرت الى حفنة التذاكر التي كان يخرجها على مهل من جيبه ويمدها اليها . ولكنها أحجمت عن أخذها منه تماماً كما لو كانت ناراً أو شيئاً مماثلاً ، مكثت أيمليزياً على هذا الوضع حيناً ، وذراعه مبسوطة ، ثم أعاد الذراع على مهل أيضاً بدون ان يكف عن النظر اليها . فلحقت يدها الواحدة بالآخرى واخذتا تمزقان حزمة التذاكر ، بدون ان يرمي بها كالا هوج على الارض ، ولكنه تركها تتناثر بينه وبينها ، بين الجزم العتيقة المنصتعة والرقيقة ايضاً على ما يبدو ، من قرط الصبغ والتلميع »

حتى أصبحت كورق السكاير ، وبين الأقدام الثرة الشبيهة ، بلون المشمش ذات الأصابع الدموية ، وهذه الأحذية العجيبة التي كانت أشبه بالرهن أو العربون الذي تمخض عنه رأس أسكافي مجنون أقسم بأنه يستطيع ان يجعل امرأة تقف وتمشي (اعني على أية حال كائنا بشريا منتصباً على قدميه) متوازنة على (لأنه على كل حال لم يكن ممكناً ان نقول في) شيء مصنوع لكي تمشي عليه الناس كلوازم البهلوان : تحد ليس للتوازن فحسب وللمعقول ولكنه تحد ايضاً لأبسط القوانين الاقتصادية ، حيث تتناسب قيمة بضاعة معينة تناسباً عكسياً مع كمية المادة المعروضة وكأني بقانون اللعبة ينص على بيع الحد الأدنى من الجلد باعلى الاسعار ... فقال بلوم : «لأنك تريد ان تقول انك راهنت عليها رابحه ؟ تباً لك : وانك راهنت على هذا النقد كله رابحاً او خاسراً معتمداً على شخص ي...» .

فأجاب أيجليزيا بصوته العذب نفسه النابع من تفكير عميق وعناد : «ليس عليه ولكن عليها . على تلك الهيمة ... ثم انه كان يجيد ركوبها ايما أجاده . ولا يؤاخذ على شيء سوى انه كان عصيباً جداً ، وقد أحست هي بذلك . الحصن الرديئة من قبيل الأدوات الغريبة بأماكنها ان تتصور الأمور . فلو لم يكن عصيباً الى ذلك الحد لكان قد ربح حتى دون الحاجة الى الاستعانة بعصاه» .

فقال بلوم : «اذن من أجل هذا لم تقبل ان يركبها احد سواك . ولكنك مع كل هذا لست مثل دور عاشق : «لم يرد أيجليزيا عليه ، فيما كان يكسر بكل اعتناء اخر جمرات النار ويغطيها بالتراب وشكله يشبه اكثر من اي وقت مضى (وهو في زيه المضحك المتكون من معطف عسكري خارج عن المألوف لونه لون التراب والمرارة ويديه الناعمتين ووجهه الأصفر المغبر الشبيه بوجه النس) شكل بعض الشخصيات القره قوزية ثم قال : «لوعرف هؤلاء الالمان الحبراء اننا نخسر طبيختنا هنا لكان النحس حليفنا ... وغداً ، هيا بنا للرحيل . علينا ان نختس

جيداً وان نفقز قفراً سريعاً عند وصولنا الى سقيفة العدد . لان الأولين سوف يتدبرون أمر أخذ جميع المجارف . وعندما تأتي انت فلن يبق سوى المعاول ، وسوف يكون عليك ان تقضي النهار كله في أجهد ذراعك . ولكنك لو حملت مجرفة واحدة فستكون قرير العين ، لانه لن يكون عليك ان تفعل شيئاً سوى ان تتظاهر بالحركة بدون ان تحتاج الى اخذ شيءٍ معك لان كل ما هو مطلوب منك هو ان تتحرك ولكن اذا كان عليك كل مرة ان ترفع احد هذه المعاول بدلا من ان ...»

فقال بلوم : «وماذا بعد ...» ولكن انجليزيا هذه المرة لم يعد هناك : وقد قضوا الصيف كله وبأيديهم معاول (او عندما كان الحظ يحالفهم مجرفة) في أعمال الحفر . ثم عند مستهل الخريف أرسلوا الى مزرعة يقتلون البطاطا والبنجر . ثم حاول جورج الهروب . ولكن قبض عليه (بالصدفة وليس بواسطة جنود أودرك أرسلوا لملاحقته ولكن - وقد كان يوم احد - في غابة نام فيها ، بواسطة صيادين مسالمين) . ثم أقيتد ثانية الى المعسكر والتي به في السجن كما ان بلوم ايضا وقع مريضاً واعيد الى المعسكر بعد ذلك . فبقيا هناك كلاهما يعملان ، في أثناء أشهر الشتاء في أفراغ عربات الفحم حاملين بأيديهما الشوكات العريضة . وعندما كان الحارس يبتعد ، كانا كشبحين بائسين همجين ، وقلانسها نازلة على اذانها وياقة معطفها العسكري مرفوعة مديرين ظهرهما عن الريح المطرية او الثلجية ، وهما ينفخان في أصابعهما بينما كانا يحاولان الانتقال بالنيابة (اعني بواسطة مخيلتهما ، اعني يجمعهما والتقاطهما كل ما كان باستطاعتها العنور عليه في ذاكرتهما من معارف رأياها وسمعاها وقرأها بحيث أنها - فهناك وسط السكك الحديد المبللة البراقة ، كانت عربات سوداء واشجار صنوبر مبللة سوداء ، وسط نهار بارد باهت من أيام شتاء سكسوني - كانا يوقطان الصور الزاهرة النيرة عن طريق سحر الكلام الفاتق بالزائل او الكلمات المخترعة ، بهدف جعل الواقع الذي لا

يمكن وصفه مقبولا وسهل الهضم (مثل بعض المعجنات المعاملة بقليل من السكر والتي تخني في داخلها الأدوية المرة لتقديمها للأطفال) في هذا الكون النافه الغامض العاني الذي كانت روحهما تتحركان فيه عند عجز جسديهما عن الحركة شيء لا واقعي كالحلم وكالكلمات الخارجة من شفاههما أصوات وضجيج لتجنب البرد والسكك الحديد والسماء الداكنة والصنوبر القائم :)

اذن انه - اقصد هنا ريكسك ..

(فقال جورج «ريشاك» فأضاف بلوم «ماذا ؟ اي نعم ..» أراد هو ايضا ان يركب تلك الفرس اعني ان يروضها) ان كثرة رؤيته فارساً بسيطاً عادياً يحقق بها فوزاً ربما جعلته يتصور ان ركوبها يعني ترويضها وربما كان يعتقد ايضا انها (وهنا حديثي عن الفرس - المرأة ، الانثى الشقراء التي لم يتمكن منها ، ولا عرفها ، والتي لم تكن لها عيون - ومن المرجح أنها لم يكن لها ايضا شيء آخر غير العيون - الا من أجل هذا الـ ...)

وبوجيز الكلام ربما فكر انه بذلك ، ان صح التعبير ، يضرب عصفورين بحجر وانه اذا توصل الى ركوب الواحدة فسوف يروض الأخرى او العكس ، بمعنى انه لو روض واحدة فسوف يركب الأخرى ركوباً ظافراً مماثلاً ، بمعنى انه يقتادها هي أيضاً الى الوند أي ان وتده الخاص به سيقتاها ظافراً الى حيث لم يفلح قط في اقتيادها ويجعلها تذوق أو ترغب في وتد آخر (ترى هل تعبيري عن فكري واضح ؟) او ان شئت عصا اخرى أي لو نجح في استخدام عصاه تماما كذلك الفارس الذي فقاطعه جورج قائلاً «كف عن هذا المقال كف ! هل تستمر فيه حتى ...» فأجاب بلوم «حسن جداً أعذرني كنت اتصور ان ذلك يعجبك انت تقضي وقتك هنا في الترداد والافتراض والتزويق واختلاق القصص والاساطير . واني لا اراهنك ان أحداً سواك لم يشهد قط الا أقصوصة سوقية بذينة بين مومس وأحمقين وعندما أقول «فرد عليه جورج

قائلاً : «مومس وأحمقان ونحن هنا نشبه الجثث تقريباً محرومون مثلها من كل شيء تقريباً ايضاً ، وربما سنكون غداً جثثاً حقيقية ، لمجرد ان تقوم احدى القملات المتسكعة فوق أجسامنا بنقل داء التيفوس اليها ، وان تهز أحد العمداء رغبة في إرسال من يقصف هذه المحطة ، فما الذي بوسعي ان أفعله والحالة هذه ، ما الذي بوسعنا ان نفعله ، ما الذي بوسعي ان أفعله سوى ...» فقاطعه بلوم : «حسن جداً ، حسن جداً . ياله من خطاب بليغ (لله درك . أية اذن . انه اذن - حديثي ما يزال دائماً عن دي ريكسك - أطلق ...» فقاطعه جورج قائلاً : «ريشاك» اي ان الشين تعوض عن الكاف والسين والكاف تعوضان عن الشين . يا الله . كم يجب ان اصحح لك فرد عليه بلوم : «حسن ، حسن : دي ريشاك . حسن جداً . واذا اصررت على ان تكون مزعجاً على شاكلة ايجليزيا فأني ...» فقال جورج : «اني لا ...» فرد عليه بلوم : «ولكنك مع كل هذا لم تكن تعمل خادماً عنده ؟ ولم تكن في خدمته ؟ لم يدفع لك أجراً قط مقابل أجبار الناس على لفظ أسمه لفظاً صحيحاً ؟ اللهم الا اذا حسبت نفسك مهاناً أو محتقراً مثله ؟ او الا اذا احتراماً ... لجدك الواحد واحتراماً لذكرى ذلك الزوج المخدوع والآخر الذي ...» فقاطعه جورج : «زوج مخدوع ؟» فأكمل بلوم حديثه : «أطلق رصاصة مسدس إطلاقاً مسرحية في ...» فقال جورج مصححاً : «لم يكن مسدساً ولكن غدارة . لم تكن الناس قد اخترعت المسدس بعد في تلك الفترة . ولكن ، زوج مخدوع ؟ ...» فأجابه بلوم : «حسن اذن غدارة . وهذا لا يقلل من القيمة المسرحية ولروعة مشهد الانتحار : او لم تقل انه استدعى رساماً لتلك المناسبة ؟ لكي يخلد لذريته ، ولا سيما لكي يكون المشهد منهلاً للسيدة والدتك عندما كانت تستقر ...» فأكمل جورج قائلاً : رساماً ؟ واي رسام تقصد ؟ سبق ان قلت لك ان الصورة الشخصية الوحيدة الموروثة عنه كانت قد انجزت قبل وقت طويل منذ ان ...» فقال

بلوم : «أعرف . وقد انجزت وتضمخت بالدم ، في وقت لاحق بسبب الزمن والتردي والتعرية اليومية ، كما لو ان الرصاصة التي أخترقت رأسه ، امضيت طفولتك كلها في البحث عن أثرها على الجدران ، ثم عادت لتضرب الوجه المرسوم الأبديّ النقاء ، اعرف ذلك : ثم ان هناك تلك الصورة المحفورة ... » فقال جورج : «ولكن ...» فرد عليه بلوم : «وهي تصور المشهد الذي تؤوله على طريقة امك ، اعني بها بالصيغة الاشد تملقاً لأصل عائلتك ، ولا شك ان هذا التأويل يستند الى القانون الذي يفرض على التاريخ ان ...» فقاطعه جورج ، ومن يعرف ربما كان بلوم يقطع نفسه بنفسه مازحاً ، او ربما كان جورج نفسه يتجاوز في المطر السكسوني البارد مع يهودي قصير سقيم - أو مع ظل يهودي قصير سيصبح عما قليل جثة - جثة إضافية - لقيه تحت المطر الرمادي بين السكك وعربات الفحم ، او ربما بعد ذلك بسنين عديدة ، وحده دائماً (ولو انه يضطجع الان بجانب امرأة دافئة) دائماً وجها لوجه ذلك الند ، او يحاور مع بلوم او لا يحاور شخصاً معلوماً : « ها قد وصلنا الى القصة . لقد مضى وقت وانا اعتقد بأن موعد القصة قد حان . كنت أنتظر الكلمة . اذ من النادر الا تظهر في وقت أو في آخر مثل العناية الربانية في خطبة أحد الآباء الدومنيكيين . حملها رحم مطهر بلا دنس اصلي : انها لرؤيا ساطعة ماجدة يخص الله بها القلوب البسيطة والعقول السديدة أو هي ضمير المشتكي والفيلسوف أو المثل الأبدي الذي لا يعفوه الدهر - او الملهة - التي يشعر فيها الجلاد ، وكأنه احدى راهبات المحبة ، كما يشعر المعذب فيها بالبهجة طفولية الروح الجهادية التي كان يشعر بها المسيحيون الأولون ، فيما كان الجلادون والشهداء قد تصالحوا وانغمسوا في مجون داعم ، بما يستدعي حامل الكنيسة الكهربائية او بالاحرى العامل الذي يفرغ ما في المجاري مباشرة في البالوعة واقصد بعبارة ما في المجاري هنا ما في العقل الذي يضني على القذارة اكواما من القذارة اصفاء لا هودة فيه ، هذه القذارة

العامة التي يرسم فيها كل في مكانه وعلى مستوى واحد ، سواء مثلت هذه القذارة قبعات من أوراق البلوط أو اغلال الشرطة او قصان النوم النسائية او غليونات ومداسات مفكرينا ، ولكن على رأس هذه القذارة يقف القرد العاقل آملا ان يبلغ يوماً ارتفاعاً يمنح جوابه من ملاحظته بحيث انه سيستطيع اخيرا ان يتذوق سعادة مضبوطة لا يعترها فساد ، بفضل سلاسل انتاج الثلاثات والسيارات واجهزة الراديو - ولكن أية . اكمل حديثك . على أية حال ليس محظوراً على المرء ان يتصور ان الهواء الذي تطرده الامعاء الملأى بالبيرة الألمانية الطيبة التي تختمر في احشاء هؤلاء الحرس يشنف آذاننا في حفلة عزف موسيقى لرقصة ثلاثية لموزارت ... فأجاب بلوم (او جورج) : « اما انتهيت بعد ؟ » فقال جورج (او بلوم) : « اذن ايه واصل حديثك » ، فأجاب جورج (أو بلوم) : « ولكن علي ان اقدم مساهمتي ، ان اشارك ، ان اضيف شيئا على الكدس بزيادة بعض القطع من الفحم الحجري ... » فأجاب بلوم : « حسن . اذن هذا القانون الذي يفرض على التاريخ ان ... » فقال جورج : « الا تأكل ؟ » فواصل بلوم : « على التاريخ (او ان فضلت : الغباء والشجاعة والكبرياء والعذاب)

الا يترك وراءه سوى فضالة صادرها الجميع فضالة معقمة صالحة للأكل ، على نسق الكتب المدرسية المقررة والعوائل الاصيلة ... ولكن في الواقع ماذا تعرف ؟ هل تعرف شيئا آخر سوى ثثرة امرأة قد تكون أكثر اهتماما بصون سمعة احدى مثيلاتها من اهتمامها بتلميع - وهذا عمل حكر عموما على الخدم كإنجليزيا - شعار واسم صديدا بعض الشيء ... فقال جورج : « هل تعتقد ان كومة الفحم هذه ستقوم وتمشي وحدها اذا لم يتظاهر المرء بأنه يساعدها لكي لا تبدأ تلك الكتلة من المصارين الموزارية التي طفقت تنظر الينا هناك نظرة شزراء ... فأجاب بلوم : « .. بحيث ان هذا الانتحار الحامل الشريف ربما لم

يكن يـ... نعم : ها ان الشبح الهزيل المضحك قد شرع يتحرك ويحتاج ويتعكرز ويهتز اهتزازات قصيرة ، حتى نجحت في اضافة أربع أو خمس قطع من الفحم الحجري المبلل على الشوكة . ثم ان الشوكة رسمت قوساً سريعاً ، فبقيت قطع الفحم هنية في الهواء ، متحررة من نير الجاذبية دائرة حول نفسها دوراناً بطيئاً ، ثم سقطت محدثة صوتاً اصم على صفيحة الشاحنة ، ثم اتخذت الشوكة وضعاً عمودياً للمرة الثانية ، واسنانها متجهة الى الأسفل ، وقد اجتمعت يدا بلوم عند اعلى مقبضها وذقنه مستند اليها ، بحيث انه عندما كان يعيد الكلام ، لم يكن فكه السفلي - الثابت - وانما كل رأسه كان يصعد وينزل ، محدثاً حركة بطيئة عند الكلام تتم عن قرار بالادانة : « ... لانك تدعي ان هذه المرأة شبه العارية التي لمحتها عبر الباب وقد تنور نهدا ووجهها من ضوء شمعة موضوعة على الأرض ، بحيث انها باتت تشبه ماريان المرأة الفرنسية الرمز المصنوعة من الجص التي نجدها في غرف المدارس أو مقرات البلديات ، حيث الغبار الذي لا تأتي مكنسة ابدا لتزعه ، يتراكم على طبقات رمادية فوق كل بروز ، قالبا بذلك كل تنوء وضوء وحتى كل تعبير فتصبح نتؤات العيون مظلمة ومسودة في القسم العلوي منها فتبدو وكأنها ترسل الحاظها الأبدية العمياء نحو السماء - تدعي اذن ان قد تكون هذه المرأة خادمة هرعت وراء الشخص الذي حسبته انت خادماً او حاجباً يقطه صوت الرصاص ، ولكنه قد يكون عشيقها - لا عشيق الخادمة لان المرأة التي نحن بصدها هي السيدة والزوجة ، اعني بها جدة جدة جددة جدتكما انت وهي ، فلربما الرجل - او العشيق - يتسبب حقاً الى فصيلة الخدم كما تدعي ، مجرد انها قاسمته فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية اذواق عامة الشعب او الاذواق الشبيهة بالخييل ، واقصد بهذا الاستعدادات نفسها لركوب الخيل اعني التزعة نفسها الى انتقاء عشاقها من جانب الاصطبلات ... فقال جورج : «ولكن...» فرد عليه بلوم : ألم تحك لي انه كانت هناك لوحة اخرى

معلقة بجانب الصورة الشخصية الدامية رسمت في الحقة نفسها ، وكانت تمثلها في وضع لا يشبه صيادة ولكنه يتفق مع وضع زوجها ، ولكن كانت تشوبها (الثوب والوقوفه والهئية وطريقة تفرسها القوي في الرسام الذي كان بصور تقاطيع وجهها وفي وقت لاحق طريقة تفرسها في كل من يطرح عليها سؤالاً) مسحة من الوقاحة والتحدي والعنف المكبوت ولا سباً أنها كانت تمسك بيدها شيئاً أهيب من السلاح بكثير بل أهيب من بندقية صيد : كانت تمسك قناعاً يمثل احد اشكال كرنفالات مدينة البندقية ، متوحشاً وخيفاً معاً مجهزاً بأنف هائل كان يبدو للناس وكأنه طائر ممسوخ ، وكان هذا القناع يزداد هولاً من جراء الدثار المزود بقبعة ، ذلك الدثار الذي كانت اهدابه المتدلية تتحرك كالامواج حول ذلك الطائر ، وعند سكونها كانت تغطيه كالاجنحة المطبقة) فيما كان يبرز خلال صدرها شيء لا يمكن لمسه ، كرجوة وكطيات الدنتلا الرهيفة المعقدة وينبعت وكأنه العطر الذي يضوع من جسدها ومن فمها المستتر داخل الظلام الحريري متحرراً من زفير زهرة بدنها ... وبغته تغير الصوت فنشر اذ صعد نبرتين اعلى فقال : «انها اذن ديجانير الأميرة اليونانية الاسطورية ...» فرد عليه جورج : «أو بتول» فقال بلوم : «ماذا؟» فأجابه جورج : «كانت تدعي انها فرجينيا اي البتول» فقال بلوم : «ياله من اسم جميل لموس . اذن هي فرجينيا تلك العذراء اللاهثة العارية أو أكثر من عارية اعني لابسة - او الاصح منزوعة الثياب - احد تلك القمصان التي لم تبتكر الا لكي تسمح للأيدي السجينة بأن تنزل وتلامس دفء البطن ، لتعود الى وضعها ثانية ، ثم يقصد حتى النهدين فتتراكم الطيات لكي تكشف وتعرض - كما هي الحال في معارض دكاكين السلع الفاخرة ، حيث تعرض الأشياء الثمينة الرهيفة الخرافية والاسعار داخل الساتان الجياش - ذلك الفم المستتر السري - : تعرض امرأة ليست مستقلة فحسب وانما منقلبة او منبطحة بالمعنى الآلي للكلمة ، اعني كما لو ان جسمها

ادى نصف دورة بدءاً من الوضع الموجل في القدم الذي تقهني بموجبه لقضاء حاجاتها - لانها ليس لها سوى وضع واحد لقضائها باجمعها وقوامه : ان تحني ساقها وان تضغط بفخذها على جنبها ، ثم تأتي ركبتيها لكي تلامس ابطيها الظليلين - ولكن الان كما لو ان الأرض ماجت فقلبها على ظهرها ، وكأنها تستعد لأن تستقبل تلقيحها اسطوريا او مطراً ذهبياً منهراً تلك الغابة وذلك الجرح الأبدي السائب حتى قبل ان يداهمه احد ، ولقد عرضت نفسها عرضاً لا حشمة فيه تماماً كأنها تنتظر عملاً دقيقاً جداً .

فقال جورج : « لا ! لا ! »

فرد عليه بلوم وقال : « وانت المهتم بالبحث حالماً على الجدران عن رصاصة ، ان لم نقل ممجدة وشاحنة في الأقل مشرفة رومنتيقية . ألم تجد في بحثك فقط ما يلي ؟ :

الظل الأحذب الذي تطرحه الشمعة الموضوعة قرب السرير ، ذلك الظل المعقد الوثاب ، ظل منثن عظل تترابط عند خاصرتيه الساقان الخلييتان ، كساقى غريق متشبث بالصاري والقدمان اللتان يشبه لونها لون الشمس ، ذلك الظل وهو يتنفخ ممسوخاً كالطود ويصعد الى السقف ويحيش بقفزات زوبعية بفعل هيجان الأمواج العابثة الظل الذي يحركه ، من تحت ، ذلك الحيوان الثنائي الرأس ذو الأذرع الأربعة والسيقان الأربعة والجذعين اللتحنين عند البطن »

فقال جورج : « . كلا ، كلا ! »

فأجابه بلوم : « ... دخل فجأة (لانه لماذا عاد الى هناك ان لم يكن من أجلها الأتقول لي ؟ لانه يبدو لي انه لكي يسرع في رحيله الى العالم الاخر يستطيع ان يفعل ذلك في اي مكان كان مثلاً تضع وسخا خلف اول دغل تراه في طريقك لانني لا اتصوره ضروريا جدا في لحظات كهذه ان يتمتع المرء بوسائل

خاصة بالراحة) اذن ترك هناك قواته المهزومة من مشاة وهاربين يطلقون الشتائم هم ايضا أيضا باعلى صوتهم على الخيانة وهم فريسة ذلك الرعب ، ذلك الاسهال المعوي (هل لاحظت ان الناس تسميه ايضا اطلاق البطن ؟) الذي يتعذر احتواءه ، ذلك الاسهال اللامعقول . انه عندما يهرب لا يفعل شيئاً اخر سوى الاستسلام للقوة نفسها او ان شئت لليأس نفسه الذي دفعه في ظروف اخرى او سيدفعه للقيام بعمل لا يطبق العقل الاشجبه ، كأن يهاaft وهو يعوى امام رشاشة تطلق عليه الرصاص ... وهو الذي اصبح خائناً مرتين - خائناً للطبقة الاجتماعية التي انحدر منها التي وشجها مفضلاً تدمير ذاته والانتحار ، نوعاً ما في بادئ الامر اكراما لمسلك اخلاقي سويسري محزن لم يتمكن قط من معرفته لو لم يسمح له بذلك ثراؤه ورتبته اعني وسائل التسلية والمطالعة - خائناً ايضا للقضية التي اعتنقها ، ولكنه هذه المرة بسبب عجزه به مجرماً هو النبيل بالولادة والذي كانت الحرب نوعاً من اختصاصه) لانه اراد ان يقرن او يصلح بين الشجاعة والفكرة ولأنه انكر ذلك التناقض القوي القائم بين التفكير والعمل ، بحيث انه لم يبق له سوى ان ينظر او بالاحرى ان يتحاشى النظر (بابتلاعه ، في تصوري ، شيئاً هو أشبه بشئ مشهور الى هؤلاء الالباش وهم يتفرون شذرمذر (اية صفة أخرى يستحقون ، لانهم اصبحوا الآن يعرفون منها الكثير - او قدرا لا يکني - لكي يتمكنوا من العيش كالاسكافي او كالحباز ومن ناحية اخرى قدرا غير كافي او أكثر مما يلزم - لكي يستطيعوا ان يسلکوا سلوك الجنود) هؤلاء الأوباش الذين رأهم في خياله او في احلامه ، وقد ارتقوا الى حالة عليا كان يتصور الوصول اليها ممكناً عن طريق مطالعة غير مهضومة الخمسة وعشرين مجلداً ... فقاطعه جورج مصححاً : «ثلاثة وعشرين» فقال بلوم ثلاثة وعشرين كتاباً طبعها احد اصحاب المكتبات في لاهاي كمقالات إستكشافية وجعلها يجلد العجل المدموغ بالذهب ... اعتقد انك قلت ثلاث بطات بدون

رؤوس ؟ ... «فأجاب جورج : بمهمات وليس بطات» فقال بلوم : «اذن الحمامات الثلاث المقطوعة الرؤوس قطعاً رمزياً ...» فأجاب جورج : «كلا ثم كلا .» فقال بلوم : «... حمامات كانت تشكل الشعار النبوي للعائلة ان صح التعبير : لان كل ما فعله هو انه نسي استخدام عقله ، هذا اذا كان له فعلاً عقل يستخدمه في راسه المنسوب الى الدم الاصيل ...» فأجاب جورج : «اجل هذه الكومة من الحطب ، هذه الكومة التاريخية من الحطب ...» ولكن بلوم الذي اعتورته فجأة ثورة عاتية انتفض وسط الحفر المائلة الى السواد الملائى بالماء وهاج وماج وقال : «حسن ، لحسن : الا فلنشتغل نحن ايضاً في حقل التاريخ ، ولنكتب نحن ايضاً كل يوم صفحة في سفر التاريخ ! وعلى أية حال ، أعتقد أنه ليس هناك شيء أكثر أهانة وأشد غباء في اعتراف جبل من الفحم من الموت جزافاً في سبيل ملك بروسيا - فلنكافئ موزارت هذا الذي هو في مدينة براند بوج جزاء لامواله . وبينما كانت الشوكة تذهب وتجي عدة مرات وبسرعة خارقة ، تطايرت منها ثلاث قطع من الفحم ونصف واذا به يتوقف لاهثاً من التعب وقال : «ولكني لم أكمل موضوعي بعد !»

لم ارو لك كل شيء . أين وصلت فيه . آه ، تذكرت : جاء اذن ، على حين غرة ، تاركا اسكافييه يجر اذيال الهزيمة واوهامه واحلامه العذرية لانثداً بالفرار باتجاه ما كان قد بقي له - هذا ما يتصوره في الاقل اعني ما كان يستطيع ان يعتبره بقينا : ربما لم يكن القلب (لانه توصل اخيراً الى فقدان القليل من سداجته) ولكن بالتأكيد كان لحم اجنيس وجسمها الدافئ الناعم الملمس ... (لم تقل لي انها كانت اصغر منه بعشرين سنة في الأقل بحيث أنها ... فقاطعه جورج : «كلا . انت تخلط الحابل بالنابل ، أنت لا تميز بينها و...» فأجابه بلوم : «وبين ابن حفيدها . هذا صحيح ولكني مع كل هذا اعتقد أنه بالامكان تصوره : لان الناس في ذلك العصر كانوا يزوجون البنات في عمر الثلاث عشرة

سنة برجال مسنين ، وحتى انهم اذا ظهوروا في هاتين الصورتين في عمر متقارب
فذلك وبدون شك يعود الى مهارة الفنان .

(اعني براعته وقدرته على التملق) الذي اعاد الى الزوجة شيئا من شبابها .
كلا ، فأني لست مخطئاً . واقول بكل صراحة (هي اعني انه قد لطف وعدل ما
كان ظاهراً من خبرتها الحقيقية ، أما عن طريق الكذب والازدواجية بمعنى انها
كانت تسبقه بألف عام) ... فارنولف هذا عاشق البشر النائر المحارب كان يرفض
رفضاً قاطعاً تحسين الجنس البشري (وهذا ما يفسر دون شك ان سليله البعيد
الذي كان يستمد العزم من هذه الذكري ويتعكر بذكائه قد كرس حياته كلها
لتحسين الفصيلة الحصانية) قاطعاً بذلك مسافة مائتي كيلو متر كانت تفصله عنها
وفرسه مرجأة العنان ... «فقاطعه جورج مصححاً : «ثلاثمائة» فاجابه بلوم :
ثلاثمائة كيلومتر ، وبلغة قياسات اهل ذلك العصر تساوي ثمانين فرسخاً ، على
وجه التقريب ، اي ما يقطعه حصان يعدو بدون استراحة كافية مدة اربعة ايام
في الأقل (او بالاحرى فلنقل خمسة ايام) ويصل ، في نهاية الأمر ، في ساعة
متأخرة من الليلة الخامسة وقد التهبت حوافره وتمرغ بالوحل ... «فقال جورج :
لم يتمرغ بالوحل ولكنه تعفر بالتراب . لان ذلك البلد منطقة لا يسقط فيها المطر
ابداً تقريباً» فأجاب بلوم : «تبا لك ! ولكن ماذا هناك اذن ؟» فقال
جورج : «هناك الريح في نهاية الامر ان صح القول . لان هذا يشبه تقريباً الريح
او اطلاقة المدفع او المسدس المجهز بسداد . ولكن ما هذا الهراء ...» فأجاب
بلوم : اذن عاد وهو معفر بالغبار وكأني به قد اصطبغ بذرور غبار لا تطاله حاسة
اللمس ، غبار كثيف من الركام ومن البقايا المحطمة لأماله الخائبة : فقد وخط
الشيب رأسه ، قبل أوانه ، بفعل رماد المحرقة ، حيث تأمل مدة أربعة ايام
وخمس ليال وهو في دروب الهزيمة ، واستعرض واحرق كل من أحرق البخور
امامه ، فلم يبق له الآن من يحرق لها البخور سوى تلك التي كان يتحرق شوقاً

للعثور عليها . فقد جرت الأمور كما يلي : في صمت الليل تعالت اصوات وطفقة حوافر ، لاشك انه لم يكن وحيدا بل كان بصحبته خادم امين يتبعه ، مثلما كان قد استخدم غيره ، خادماً ، الى الحرب يضمّد جراح حصانه ويلمع حذاءه ، فارس السباق الأمين ذاك او بالاحرى الفحل الذي راودته آجنس الخائنة او بالاحرى الذي كان ، كما يقال ، قد جعل الـ ... الشابة تتألق ... «فقاطعه جورج ممتعضاً :» يا الهي ... «فقال بلوم ولكن باستطاعة المرء ان يتصور ذلك : طقطقة نعال الحصن على بلاطات فناء الدار والحوانات قد التهت حوافرها تشخر في الليل - او ربما في مطلع الفجر - الذي يميل لونه الى الزرقة والمصباح الذي كان يحمله البواب الذي هرع الى هناك ابز كل عضلات صدور الجياد الحمراء الحامية . وفيما ترجلوا تراشقوا بمعاطفهم اما هو فاسلم العنان لفارس السباق بعد ان اصدر أوامر قصيرة او لم يكذب بصدورها او لم تكن اوامر حتى ولا ضجيج صوته ، وانما كان رنيناً او صرير المهاميز . بينما كان هو يتقدم الى درج المدخل بسرعة ثم يصعد : كل هذا سمعته هي ، بعد ان استيقظت منتفضة وهي ما تزال مسترخية متكاسلة ، من جراء النوم والمتعة ولكنها كانت تفكر - ربما لم يكن عقلها بما انها كانت نصف نائمة تترنح ، وانما شيء في داخلها لم يتمكن الرقاد ولا الشهوة الجنسية ان يزيلاه شيء لم يكن يحتاج لان ينتظرها ان تصحو تماماً لكي يشرع في العمل سريعاً وبدون اي تلكؤ : الغريزة او الحيلة التي لم تكن تحتاج الى ان يتعلمها المرء بحيث ان جسمها الخفيف ارفض ، بينما كان راسها ودماغها مايزالان نائمين (ازاحت الشرف فيما كانت ترى ساقها يتدافعان محاولين التخلص منه ، كما كانت تلمح لها خاطفا بين فخذيها السريعين في الظل تلك الشعلة - ولكن لم تتحدث عن شعرها الأشقر الكثيف ؟ اذن : - ذلك العسل ذلك الشعر الذهبي الذي ماعتم ان غاب حينما جلست وأرتكزت واذ انزاح قبصها ، كشف عن خفايا جسمها الحلبي وعن رجليها الضاربتين الى لون

الورد ، فيما كانت تلمس في الظلام بحثاً عن البغال) بدون ان تكف عن التفكير والحساب والتنظيم والمؤامرة بسرعة الصاعقة تماماً في الوقت الذي كان يصاحب قعقة الجزم وهي تصعد الدرج قافزة الدرجات اربعاً ، اربعاً مجتازة صحن الدرج ثم احدى الغرف وتقربت (غابت الساقان الآن وانسدل القميص) . هي اجنس العذراء - ووقفت فدفعت بكتفها عشيقتها - وسائق العربة السائس الفض الخشن - متجهة صوب الخزانة الربانية التي لا مفرّ منها ، او غرفة المسرحيات الهزلية او المآسي هناك كل مرة في الوقت المطلوب ، مثل اللعب الطلسمية التي تحتوي على حشوات او مصائد تحدث عند فتحها انفجار ضحكة او قشعريرة رعب ، لان المسرحية الهزلية ليست سوى مأساة فاشلة او مأساة هي مسرحية هزلية بدون فكاهة ، كانت يداها (ما زال الحديث يدور عن جسمها وعضلاتها وليس عن دماغها الذي لم يكد يتحرر الآن من ضباب النوم الكثيف اللزج) منفردتين تلتقطان في طريقها قطع الملابس الرجالية المبعثرة هنا وهناك ، ترميها خلطاً ملطاً ايضاً في الخزانة ، فانقطع صوت الجزم ووقف هو (الجزم او انعدامها على الأصح وانقطاع الصوت الفجائي التحذيري) فوراً خلف الباب ، ومعصمه يهتز في كل الاتجاهات ، ثم حدثت ضربة من القبضة فصرخت هي : «لقد وجدت ما اريد .» فعدت واغلقت الخزانة فابتعدت وتوجهت نحو الباب ، فلمحت مرة اخرى صدرية رجل او خذاه فالتقطتها ، وهي تصرخ ثانية باتجاه الباب : «لقد وجدت ما أريد !» وهي تعود راكضة نحو الخزانة لتفتحها مجدداً ، فتعود فتدفع لوح الباب دفعاً وحشياً الى الداخل بدون ان تنظر الى ما التقطته فصدر صوت من الباب اثر ضربات كنفها المروعة (الباب الذي سمعته يا هذه يتكسر ويتطاير شظايا ، اثر ضربة رجل غاضب - ولكن الرجل هذا ليس الخادم !) اما هي فقد مكثت هناك كطفلة بريئة ، اذ تراها تضطر الى ان تاتي عنك سلاحاً ، وكانت تفرك عينيها مبتسمة وهي تمد له ذراعيها وتشرح له

بأنها توصل الباب خشية اللصوص ، فيما كانت تندفع اليه وتعانقه وتغطيه فانزلت
قبضتها بغتة من كتفها فجرد نهدتها اللذين ضغطت على رأسها ودعكتها
بالقميص المعفر بالتراب ، والذي طفقت تفك عراه بيديها المحمرتين ثم جعلت
تكلمه ثغرا لثغركي لا يستطيع ان يرى شفيتها المتورمتين تحت قبلات شخص
آخر . اما هو فقد كان مائلاً هناك ، وسط ذلك الجو من الحيرة واليأس ، مهزوماً
تائهاً اعزل مجرداً من كل شيء او ربما مقطوعاً او ربما شبه من لقي الدمار ... أليس
هكذا ؟ فأجابه جورج : « كلا ! » فقال بلوم : « كلا ؟ ولكن ما ادراك ما
الأمر ؟ فرد عليه جورج : « كلا ! » فقال بلوم : « هو الذي اراد ان يتكلف
الطبيعة في تمثيله قصة الحمامتين ولكن الحمام الذكر كان هو ، اعني انه عاد الى
العش هضم الجناح محطم الاحلام ، ادرك انه مخدوع ليس لان فكرة الذهاب
الفاشلة خطرت بباليه هو الفلاح الظريف لان ينصرف الى ارتكاب الفجور في
الحق المحي مع أساطير الفكر المتمرغين بالوحل ، وانما ايضا بسبب فكرة تركه
فزوجته الصغيرة وحامته الفرخة التي كان يحبها حتى العبادة ، هي التي انتهزت
فرصة تخليه عنها ، لكي تذهب هي فتفسق أيضاً فسقاً طبعياً جداً ، اعني
بالطريقة الجارية منذ خلق العالم ، وشركاؤه في ذلك لم يكونوا احلاماً صفراء بل
غلاماً قوي الظهر ولكنه عندما بلغه ذلك كان الوقت قد فات : فقد وجد نفسه
هناك عرياناً تماماً ، دون شك ربما توصلت الى خلع ملابسه مستفيدة من غباوته
ومن شلله - مع الحمامة الفرخة في العشرين من عمرها وهي تهدل وتفرح جسمها
بجسمه اما هو (ربما انه ادرك اضطراب السرير الذي جلب لنفسه المتعة
والشهوة ، او (سمع صوتاً او سمع نداء الغريزة) فقد دفعها مقدماً غير
هنيئ - رغم إنها تشبثت به الآن تناسده منكراً محاولة السيطرة عليه ، ولكن
كان يلزم اكثر من كل جهدها هذا دون شك ، وربما كان يستطيع استدراج
العديد من مثيلاتها » هو الذي كان منذ اربعة ايام يحرق الجثة الثقيلة المتحللة التنتة

جثة او هامة - حتى بلغ بها الى الخزانة ، ففتح الباب فتلقى في وجهه تما اطلاق المسدس التي وجهت عن قرب حدّ ان حظه أشفق عليه وابقى له في الاقل شيئاً واحداً وهو معرفة ما كان مخبوءاً في الخزانة ، معرفة الطامة الكبرى الثانية ، وعلبة الحشوات والمصائب التي كانت تعمل في الوقت المطلوب ومسدس الأطفال هو ايضا يعمل كما ينبغي له ان يعمل ، اي انه كان قد انهى قلق الانتظار المر الذي لا يطاق جالباً الانفراج السعيد والتلطيف والتخفيف وذلك بطريقة نزع الدماغ ان صح القول»

فقال جورج : «كلا !»

فرد عليه بلوم : «كلا ؟ كلا ؟ كلا ؟ ولكن . ما أدراك ما الأمر في النهاية ؟ ما ادراك انهم لم يهشوه هنا ووضعوا في يده المسدس ، وهو ما يزال يدخن ، خلال الثواني القليلة التي كانت قد بقيت لهم قبل ان يهرع الخدم الآخرون ، بدون ان يكلفوا انفسهم حتى عناء اعادة ثيابه واكسائه من جراء الاستعجال والسرعة اذ لكل ثانية اهميتها . اما هي فقد استيقظت الآن تماماً وطفقت تنصرف بكامل وعيها تساعدنا في ذلك غريزتها التي تتيح للمرأة ان ترى بلمحة خاطفة اذا كان كل شيء في مكانه ، قبل وصول المدعوين وان تستخدم ذكاءها جيداً لتأمر السائس ان يشخص في المشى وان يصفع لوح الباب ويفتحه ، عندما يسمع بوشك قدوم الضيوف والاصحاب . اذن لضيق الوقت ، لم يكلفوا انفسهم عناء ، ولا قاموا بمحاولة اعادة ملابسه اليه ، ملابسه ، المعفرة بالغبار تلك الملابس التي نزعناها منه قبل قليل بقصد أن»

فقال جورج : «كلا»

فرد عليه بلوم : «ولكن الم تقل أنت بنفسك انهم وجدوه عرياناً؟» كيف تفسر ذلك اذن؟

اللهم الا اذا كان سبب ذلك نزعته الى التعري . من يدري؟ او مطالعته

الجنيقية المثيرة؟

هل ان هذا- أقصد به ذلك السويسري المولع بالموسيقى الملتهب العواطف الفيلسوف الذي تعلم منه أعماله الفنية كاملة- لم يكن ميالاً بعض الشيء الى التعري؟ او ليس هو الذي كان له هوس عرض دبره للنساء الشابات) فقاطعه جورج: أفلا تكف. اعوذ بالله، كف، كف، كف، ما اثقلك! كف اذن ودعنا ن...» فأنقطع عن الكلام (او ربما لم يعد يسمعه) بينما كان ينظر، آنذاك، الى الوجه البارز التقاطيع الرفيع الجائع، بدون ان يعرفه اعني دون ان يشخص كونه وجه بلوم، ولكن وجه الشقاء الصارخ والالم والتجرد المطلق، ذلك الوجه الشبيه بالنقيض المأساوي للبشاشة والفكاهة، في الوقت الذي كان يخيل اليه أنه يعيش مايلي: نزاعاً بطيئاً وحدانياً، آناء الليل يعيش الصمت، (ربما فقط في الفندق القديم الهادي، صدى محتوقا لحصان يكدف في الاصطبل او ربما ايضا عصف الريح السوداء الحريرية القلقة التي كانت تدخل وتتوغل في فناء الدار على شكل هبات منقطعة -

اما ريكسك فقد كان واقفا هناك، وسط تلك الزينة الغزلية للرسوم يتعري نازعا عن جسمه ثيابه، قاذفاً بها بعيداً، وهي عبارة عن حلة طموح صاحبه اصبحت الان دون شك، بالنسبة اليه رمزاً لشيء آمن به ردحاً من الزمن ولكنه لم يعد يجد فيه اي معنى وهي سترته الزرقاء ذات الياقة الصاعدة والظاهرة المطرزة بالذهب عليها رسم لحوان ذي قرنين وريش النعام: ياله من زي فظ يريث له، التي به الان هناك، ياله من ضريح تكسيه لا السلطة ولا الشرف ولا المجد، وانما الظلال العذرية ومملكة العقل والفضيلة العذرية الدامعة، ولكن ماخلعته عليه مطالعته وشيء ما من قرارة ضميره عاف الفساد، وقد هزه نوع من الاسهال المروع الذي كان يفرغه تفريفاً وحشياً من محتواه، وحتى من دمه، ولم يكن اسهالاً معنوياً، كما كان يقول بلوم، ولكنه، ان صح التعبير، اسهال عقلي أعني

انه يعد سؤالا يطرح اوشكاً يخامر شخصاً، وانما اكثر من هذا، اي ان التفريغ يعني انعدام كل سؤال وكل شك وصاح جورج باعلى صوته: «ولكن العميد ايضا انتحر: لم ينتحر هو وحده فقط، اذ حاول فوجد على هذا الطريق انتحاراً لاثقاً مزيفاً، ولكن الاخر ايضا في داره القوراء وحديقته التي تتخللها مسالك يكسوها الحصى المنعم... هل تذكر ذلك الاستعراض العسكري، ذلك الحقل المبلل صبيحة منطقة أردنين الشتائية تلك وهو - وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأيناه فيها- بهامته الصغيرة هامة فارس السباق - تلك التفاحة الصغيرة المتجعدة المشددة والمطبوخة، وبساقيه الصغيرتين ساقى فارس السباق، مع جزمته الصغيرتين اللامعتين اللتين كانتا تتخطان تحبباً لامبالياً في الوحل بينما كان هو يمر امامنا دون ان ينظر الينا: فكأنه شيخ صغير او على الاصح جنين صغير استخرج من زجاجته الملاهى بالكحول وجي به هنا بعد ان حفظ فيها حفظاً رائعاً لم يطرأ عليه اي تغيير فقط كان يرتعش وهو نشيط ويابس، اذ انه هنا يلتحق بالسرايا المصطفة، يسحب وراءه مجموعة من الضباط المتقفرين تطرزهم خيوط على اكتافهم وغمد حسامهم في مرفقهم، كانوا يتبعونه لاهثين من التعب في المرجة الخضراء الاسفنجية، بينما كان هو يصول بدون ان يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ولكنه كان يتجاذب اطراف الحديث مع الظابط البيطري دون شك- وهو الوحيد الذي بادله الحديث - بشأن حالة الخيل الصحية وحالة حوافرها التي كانت تكويها كالعقارب عند ملامستها الارض- او بشأن مناخ هذا البلد، وعندما عرف اعني ادرك اي فهم تماما ان كتيبته زالت عن الوجود، لم تمن فقط بالاباده او الدمار حسب قوانين- في الأقل ماكان يتصوره قوانين- الحرب: حسب الاصول العسكرية الصحيحة المعروفة، مثلاً تجري عند التقدم في صولة لاحتلال موضع منبع او على اثر القصف المدفعي او ايضا- وهذا ماكان يسلم به ويقبله أحياناً- أن الكتيبة تنفكك على اثر هجوم للعدو: ولكنها ماعت ان صح

التعبير او ذابت او نشفت او حذفت من خارطة حياة الاركان، دون ان يعرف ابن ولا كيف ولا متى: كل ما في الامر ان المراسلين كانوا يتواردون الواحد تلو الاخر، ولكن دون ان يروا شيئاً في ذلك المكان- سواء اكان قرية او غابة او تلة او جسراً- ذلك المكان الذي كان من المفروض ان تكون فيه سرية او مجموعة من المقاتلين، وقد نتج هذا ظاهرياً،- ليس من رعب ولا من فرار ولا من هزيمة- وهذه مغامرة ربما كان يقبل بها هي ايضا في الاقل كان يقر بأنها من قبيل الحوادث المدمرة الاعتيادية هي ايضا الحوادث التي تدخل في باب الاحداث المألوفة وفي باب السلبات التي لا بد من وقوعها في كل معركة والتي يمكن نفاذها بوسائل هي ايضا معروفة كالحاجز الذي يقيمه مثلاً الدرك عند مفارق الطرق او كسلسلة الاعدامات بلا محاكمة-، لم تكن اذن هزيمة، بما ان الامر الذي كان يحمله المراسل وكان عليه ان يوصله، كان يشكل لا يقبل الرد، امراً بالانسحاب، وان الوضع الذي كان من المفروض ان تكون فيه الوحدة التي كان موجهها اليها، كان هو ايضا وضع انسحاب، ولكن هذه الوحدة لم يصل اليها احد من المراسلين قط- تقدم المراسلون اكثر، اعني باتجاه وضع الانسحاب السابق بدون ان يبصروا قط على يمين الطريق وعلى شماله، شيئاً اخر سوى خط الدمار الطلسمي الرتيب، اعني بذلك انه لم تعد هناك شاحنة ولا عجلة محترقة او رجال او اطفال او جنود او نساء او جياد مائتة، وانما كل ما تبقى، كانت فضلات متناثرة كأنها خلاصة المجاري العامة منتشرة على امتداد كيلو مترات لاتبعث رائحة ركام الجثث التقليدية البطولية او رائحة الجثث المنفسخة، وانما رائحة القمامة التنتنة، كاللتانة التي تدب في كدس نفايات المعلبات القديمة،- او كدس قشارة الخضر أو الخرق المحروقة، ولكن خلاصة المجاري العامة ليست اشد وقعاً ومأساوية من كومة القمامة لانه من الممكن ان يستفيد منها بائع الحديد العتيق او باعة الخرق وما الى ذلك. الى ان تلقى المراسلون، كلما كانوا يتقدمون عند احد منعطفات الطريق،

رشقا بالرصاص، مما اسفر عن قتيلى اضافي، بالقرب من جانب الحفرة، حيث انقلبت الدراجة النارية، وهي مازال تواصل ازيزها في الفراغ، او تشتعل، مما زاد من عدد الجثث المتفحمة المسودة، وقد تمددت فوق احد الهياكل الحديدية المشوهة المتصدئة (هل لاحظت السرعة التي جرى بها كل هذا واستحثاث الزمن والسرعة الهائلة التي تخلق بها الحرب الظواهر الناتجة من فعل الانسان- من صدى وتلوث وخرائب وسوفان اجسام- ظواهر تحتاج في الظروف الاعتيادية أشهراً بل سنوات لكي تتحقق؟) الشبيهة بكاريكاتور جنائزي لتسابق الدراجات النارية الذين يواصلون تقدمهم، وهم منحنون دائماً على مقاودهم، بسرعة جنونية، وهم يتحللون بعملهم هذا، اذ يفرزون من تحتهم فوق العشب الاخضر، بقعا من الزفت والنجاسة الضاربة الى اللون الاسمر متكونة من الزيت والشحوم واللحم المحترق؟ والمكونة سائلا لزجاً داكناً، يتحللون بسرعة هائلة -، عاد المراسلون اذن الواحد بعد الآخر دون ان يعثروا على شيء. ولم يبق هناك كتيبة قط، فكافي بها قد تبخرت ودرست كلها كالطلل البالي، وامحت كأسفنجة ازيل عنها ملؤها، ولم يبق، منها اثر ماعلا بعض الاشخاص المصدوعين التائهين المخبئين في الغاب او السكاري. وفي النهاية لم يبق لي سوى نزر يسير من الوعي والضمير. فوقت امام ثمرة العرعر المخروطية هذه التي باتت قواى عاجزة عن افراغها، بينما كنت مهشما على مقعدي الصغير من ثقل جسمي، حاولت بوعبي العنيد ذلك الذي هو ديدن السكيرين ان انهض وانصرف، بعد ان ادركت ان ايجليزيا وذلك الشخص المسن الذي سطونا عليه في بادئ الامر ثم اخطأنا أصابته وقتله، ذلك الذي اخذ على عاتقه، بعد ذلك، مساعدتنا على اجتياز الخطوط عند حلول الليل، ادركت انها مثلي سكرانان، فطفقت اذن، بدون ملل، احنو جسمي الى الامام لكيا يسحبني ثقله ويساعدني على النهوض من ذلك المقعد الصغير الذي كنت مسمرا فيه، بينما كانت يداي تحاولان دفع المنضدة، وادركت في الوقت نفسه ان هذه

الحركات المختلفة كانت تصدر عن قدر ضئيل من الارادة. واني كنت لا ابرح مكاني ولا اتي حركة، وكأني بت مزدوج الكيان من شفافية وشبحية. فقد كنت اكرر دون اية فاعلية حركات متشابهة كاحتواء الظهر واجهاد الفخذين الذي يقابله في الوقت نفسه، ودفع الذراعين، واذا ادرك كيانى المزدوج هذا الاجدوى من الحركة، عاد الى الخلف فاندمج ثانية مع جسمي الذي كان ما يزال جالساً، فحاول سحبه مرة اخرى ولكن بلا جدوى ايضا. لذا فاني حاولت ان افرض النظام في رأسي معتقد أني لو توصلت الى تحديد تصوراتي وتصنيفها، فسوف اتوصل ايضا الى تنظيم حركاتي وتوجيهها وعلى النسق التالي:

قبل كل شيء كان ثمة الباب الذي على ان افلح في الوصول اليه اولاً واجتيازه ثانياً. فقد رايت شكله معكوساً في المرآة المعلقة فوق المكتب، وهي مرآة مستطيلة الشكل كالمرآيا التي يمكننا ان نشاهدها، او الاخرى التي يمكن ان نتمرأ فيها عند الحلاق، زواياها العليا مدورة، ويبدأ أطارها عند الحافة منحوراً قليلاً، ثم يستقيم في احدى المناطق فيأتي صف من اللؤلؤ ثم ينتفخ ولكنه ليس مطلياً بالميناء البيضاء كما هي الحال في صالونات الحلاقة، وانما بمعجون الكلس البني، تزيه نثرات خفيفة خيطية الشكل كانها الشعرية، وكانها كعوب علامات نجمية تنطلق من لون مركزي شبيه بالسعفة في وسط كل جهة، وبما ان المرآة كانت منحنية، فان الاشياء العمودية التي كانت تنعكس عليها كانت منحنية هي ايضا. شروعا بصف الياقات وباعناق القناني المصفوفة على الرف المعلق مباشرة فوق، في مقدمة الاشياء تعقبها ارضية الغرفة الخشبية المهيأة من الخشب الخام غير المشمع الذي كان يبدو نافراً بزاوية تقارب العشرين درجة، رمادي اللون في الظل واصفره عندما كانت تضربه الشمس المائلة المستطيلة خلال الباب. كانت الشمس تمتد انطلاقاً من اسكفة الباب المفتوح على الشارع. وكانت قائمتا الباب العموديتان مائلتين هما ايضا، كما لو ان لجدار كان يسقط قدام الاسكفة المتبكونة من بلاطة

حجرية ومن الرصيف ثم من الحجارة الطويلة التي توتر الرصيف واخيرا من صفوف البلاطات الاولى للشارع الذي ادرت اليه ظهري.

وكان دون شك مستحيلاً، جراء السكر، ان يعي المرء وان يطلع على شيء اخر سوى هذه المرأة والاشياء التي كانت تنعكس عليها. وقد كان نظري ينشبت بها، إن صح التعبير، كما يتشبث السكير بعمود مصباح في الشارع، وكأنه نقطة ثابتة في كون غامض لامرئي عديم اللون، كانت توافيني منه اصوات فقط هي دون شك اصوات المرأة (مديرة الفندق) واصوات شخصين او ثلاث مجبولين كانوا قائمين هناك. قال احدهم مرة: «الجبهة تدمرت». ولكني انا سمعت. الكلب تدمر ومات وقد تمكنت فعلا ان اراه ميتاً، عندما نزلت على امتداد الماء. كانت بطنه بيضاء وردية متفخة وشعره ملتصقا بجسمه وقد بدأت فيه التئانة كما تبدأ في جرد هالك.

توارت الشمس عن ارضية الغرفة فترات ثانية فتوارت ولكن لم تغب كلها: ففي هذه المرة كنت استطيع ان ارى بفضل المرأة داخل اطار الباب الجزء السفلي من تنورة المرأة وربليتها ورجليها المحتدتين خفاً. وكان كل شيء مائلاً وكأني بها سقطت من غرفة خلفية.

كان صوتها قادماً من الخارج من داخل احد المقاهي فوق كتفها. كانت تتكلم بدون شك، وقد ادارت نصف رأسها على المرأة أعني انه لو كانت المرأة عالية بما فيه الكفاية لكنت رايتها في وضع جانبي. كانت تستطيع بهذه الطريقة ان تتابع، في آن واحد، مارأته وان تسمع صوتها من داخل المقهى وقالت: «هاقد قدم الجنود».

اما انا فقد تمكنت من النهوض. فسمرت المائدة في مكانها بحركتي، وسمعت صوت انقلاب احدى الزجاجات المخروطية التي تدرجت على المائدة «راسمة على ما اعتقد دائرة حول قدمه، حتى انتهت الى حافة المائدة فانقلبت وسمعتها

تنكسر عندما وصلت خلف المرأة وعندما نظرت فوق كتفها رأيت السيارة الرماذية ذات البدن الغريب الشكل تحتني . فقد كانت اشبه بالنعش مزدانة بأهداب مقطعة ، رأيت فيها اربعة اشخاص من ظهرهم واربع خوذ دائرية . فقلت للتو : «ياالهي . انهم الـ . . . ياالهي . ولكنك» . فأجابته المرأة . كما تعلم اني لا اعرف شيئاً عن الازياء . اما انا فقلت لها : ياالهي .

فقلت : لقد سبق لي ان التقيت احدهم ، صباح هذا اليوم ، عندما كنت «اهبة لأشتري الحليب . كان يتكلم الفرنسية ، ولا بد انه كان ضابطا لانه كان يفحص خارطة جالسا في دراجة نارية ذات مقعد جانبي وقد سألتني عن الطريق ان كان صحيحا فقلت له نعم انت على الطريق الصحيح . ولم اشعر بغربة اطواره الا بعد ان فارقتني .

دخلت المقهى للمرة الثانية ، وهزرت انجليزيا الذي كان نائما ، وقد بسط مرفقين فوق المائدة ووجنته مرتكزة على ذراعه وقلت : بالله عليك استيقظ . فعلمنا ان نغادر هذا المكان . هيا بنا .

كانت ما تزال المرأة عند عتبة الباب عندما قالت بعد ذلك بقليل : «ها قد جاء غيرهم .» حينئذ قمت على الفور وراءها ونظرت في اتجاه نظرها ، اي في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي اختفت منه السيارة ، بحيث ان سائقي الدراجتين الناريتين اللذين كانا يتقدمان ، يبدوان وكأنهما يلاحقان السيارة . ولكن اولئك كانوا يرتدون الخاكي .

وتخلل لحظة ، داخلتي فكرة او مشهد جنود الجيشين يتلاحقون دائرين دورة حول مجموعات البيوت ، كما نشاهد في الاوبرا او في الافلام الفكاهية ، الناس وهم ينطلقون في ملاحقة هي من قبيل المحاكاة الساخرة القطة ، فيما العشيق او الزوج يشهر مسدسا ووراءهما خادمة الفندق والمرأة الزانية والخادم

وابن بائع المعجنات وافراد الشرطة ، ثم يعود العشيق الى الظهور ، وهو لا يرتدي سوى سرواله الداخلي مع مثبتات الجوارب ، يركض منتصب القامة ، ومرفقاه ملتصقان بجسمه ، وهو يرفع ركبته عاليا . اما الزوج فلم يزل يلوح بمسدسه والمرأة بسروالها المنتفخ وجواربها السوداء مع واقية المشد وهلم جرا ، يركضون تحت اشعة الشمس ركضاً دائرياً . لم ألحظ ان الرصيف كان يشكل درجة فككت اسقط منبطحاً ورأسى في المقدمة . خطوط بضع خطوات عملاقة ، وجسمي يكاد يكون افقياً ، على حافة فقدان التوازن فوق ظلي . ثم امسكت بناصية مقوده .

كان وجه الشخص تحت الخوذة سمياً احمر غير حليق ، يتصب عرقاً وغبساً ، وكانت عيناه ايضاً يتطاير منها الشر والجنون ، وكان فمه يصرخ من فرط الغضب : « ما هذا ، ما هـ . انصرف من هنا ، دعني » . واذا بي ارى الشاحنة الصغيرة ، وهي سيارة نقل مواد مخفية قليلاً وبسرعة ، متسخة بالصبغ البني الاصفر والاخضر ، فقدت توازنها ، فالت الى أحد جنبيها ، عند استدارتها ثم نهضت ، فلوحت بيدي استلفت النظر وانا منتصب في وسط الشارع . وعرفت من شاراته انه من صنف الهندسة . ولا بد انه كان من كوادر الاحتياط ، يعمل في مديرية الطرق والجسور او المجاري . كانت هيأته هيأة موظف يحمل نظارات معدنية الاطار ، فتقدم نحوي فور نزوله من الحجرة هائجاً محمواً يصرخ ولا يعير اهتماماً لما كنت اقلوه ، وكان يردد هو ايضاً : « ماذا تريد ، ماذا تريد » . حاولت ان اشرح له ، ولكنه كان ما يزال مهتاجاً محمواً يلقي دون انقطاع الحاظا قصيرة من فوق كتفه في الاتجاه الذي كانوا يأتون منه ، وهو يحمل مسدسه بيده يصوبه اولاً نحوي ، ثم نسيه فحركه وهو يؤدي بعض الحركات ، كأن يمسكني من أحد ازرار سترتي او من قبضي الازرق المخصص للعمل الذي اعطانيه الشخص المذكور سابقا وهو يصبح : « ما هذا الهندام » . حاولت ان

اشرح له ثانية ولكنه لم يكن يصغي . وكان لا يني يلتفت ليجتلي منعطف الشارع مهتاجا . فأخرجت كتابي وشارقي اللذين كنت احتفظ بهما دائما ولكنه لم يكن يكف عن النظر من فوق كتفه . حيثذ قلت له : « من هناك ؟ » وانا اشير الى المكان الذي اختفت فيه السيارة الرمادية الصغيرة . اما هو فرد علي قائلاً : « ماذا ؟ » فأجبت : قد مرّ قبل قليل ، منذ خمس دقائق ، اربعة منهم داخل سيارة صغيرة . فصرخ هو بوجهي : واذا أمرت بأن ترمي بالرصاص ؟ حاولت ان استأنف الشرح له ، ولكنه تركني وتراجع باتجاه الشاحنة الصغيرة ، وهو لا يكف عن ارسال الحاظ قصيرة سريعة بالاتجاه الذي كانوا يأتون منه . كنت انا ايضا انظر وانا انتظر ظهور السيارة الرمادية الصغيرة الشبيهة بالجنائزة والتي يفترض انها انتهت دورتها حول مجموعة البيوت . واذا به يدخل فيها مديراً ظهره فجلس واغلق الباب بواسطة الزجاجة النازلة . كان الان يحمل المسدس والمدفع باتجاهي . وكان وجهه المزيل الرصاصي يتصبب عرقاً ، فأنتحي وعاد فنظر الى وراء نظرة المصاب بقصر النظر ، خلال نظارته فأطلقت السيارة .

ركضت وراءهم : كانوا حوالي عشرة اشخاص تحت الغطاء ، جالسين على مقعدين كل مقعد على جهة . فعلقت اللوحة الخلفية وانا اركض ، محاولاً الصعود ، ولكنهم دفعوني . كانت تبدو عليهم امارات السكر هم ايضا . توصلت الى ادخال احد ساقى ، ولكن احدهم حاول ان يصفعني بأخمص بندقيته . ولكنني كنت في درجة عالية من السكر فضربت صفيحة اخمص البندقية الحديدية بجانب يدي ، فتخلّيت عن كل شيء ، ولكن كان لي بعد متسع من الوقت لان ارى فردا آخر منهم مقلوب الرأس الى الخلف ، وهو يشرب بنهم من عنق قنينة ، ثم حملني فيّ وقد اغمض احدى عينيه فرمى بها اليّ ، ولكنهم كانوا قد ابتعدوا كثيراً ، فسقطت على مسافة متر واحد في الاقل من امامي وانكسرت . كانت ما تزال فيها كمية من الخمر . وتركت على بلاطات الشارع ،

بعد سقوطها ، بقعة داكنة اخطبوطية . وكانت شظايا الزجاج الاخضر القائم تلمع وقد تبعثرت . ثم سمعت صوت رصاصة اولاً تكاد تكون رصاصة تمر . فقد كانوا على درجة شديدة من السكر ، يترنحون داخل تلك الشاحنة الصغيرة . اذن لم اعجب مما حصل . ثم توارت وتواروا .

كان قد وفق اخيراً في ان يستيقظ ويصحو ، وقد وقف امام باب المقهى قدام المرأة . وكان يحدجني بعينيه الدائرتين الكبيرتين مترعج المزاج . فصرخت في وجهه قائلاً : « يجب ان نصرف من هنا . علينا ان نذهب لكي نسلم ملابسنا البالية » . اراد واحد من هؤلاء الافراد ان يأمر بأن يرموني بالرصاص . وقد اطلق علي رصاصة ببندقيته الحربية .

لكنه لم يبرح مكانه واستمر يحملني في حمله فيها الكثير من اللوم والشجب والاكفهرار . ثم رفع ذراعه في اتجاه المقهى وراه وقال : « قال انه سيطبخ لنا هذا المساء بطة » .

فأجبت : « بطة ؟ »

فقال : قال انه دعانا اليوم لتناول الطعام معه . وقد قال انه . . . ثم انصرفت عن سماعه مجتازاً الحقول صاعداً التل . وكانت الشمس هناك ساطعة بأصرار سطوعها عند عصر ايام الربيع الطويلة التي تتأخر فيها ، فلا تنتهي ابداً وكأنها تسمرت في القبة الزرقاء ، قبل ان تهم بالتزلول ، ولكنها لم تقرر التزلول بعد ، وكأن يشوع بن نون آخر قد اوقفها . قد مضى في الاقل يومان أو ثلاثة على نسيانه النوم منذ ان استيقظ وهو مورد الوجه ، ويرن رنيناً هادئاً في البدء ، والسماء ليلكية اللون ، والفجر بلون الاوراق التويحية . ولكني لم ألاحظ الوقت الذي ظهر فيه . ولم يكن يرى في الطريق سوى ظل مستطيل شفاف لاحدى ذوات الاربعة ، حيث لم يبق سوى تلك الاكداس الثابتة الجامدة كالخرق ، فيما كان وجهه واك المغفل المقلوب ينظر الي . فقد اصبح شاخصاً امامي يملأ عيني وسط السماء

البيضاء.

واذ التفت ورأني وهو يتبعني : فقد عقد العزم ، في النهاية ، على ان يلحق بي . كان مايزال في اسفل التل ، بعد ان اجتاز آخر البيوت بقليل صاعداً المرتجة ، وهو يترنح قليلاً . تعثر مرة وسقط فنهض . حينذاك توقفت وانتظرته حتى وصل قريباً مني . ولكنه عاد فأضطرب وهوى من على ساقيه وبقي هذه المرة فترة يحبو على أربع قوائم ، وهو يتقيأ .

ثم نهض مجدداً ، وهو يسمح فيه بكم قبضه ، فجعل يمشي . ربما كان العميد قد انتحر في تلك الساعة نفسها؟ على انه كانت لديه سيارة وسائق وبتزين .

لم يكن عليه سوى ان يعتمر خوذته ويلبس قفازيه ويخرج ويتزل درج مدخل هذه الدار القوراء .

يخيل الي انها كانت داراً قوراء : لانها المكان الاعتيادي الذي يسكن فيه كل من يشغل منصبا قياديا كمنصب آمر كتيبة برتبة عميد . اما القصور فكانت مخصصة تقليدياً للعمداء آمري الفرق فما اعلى .

اما بيوت المزارع فكانت من حصة العقداء . كانت داراً قوراء اذن ، تزيناها شجرة عرموط مزهرة فوق العشب ، مع بوابة مصبوعة باللون الأبيض ، فيها ممر دائري يكسوه الحصى بين أسيجة نبات الاوركوبه المبقع الأوراق . كما فيها ايضاً صالون بورجوازي تزينه باقة لابد من وجودها من اغصان البهشية او الريش المحنط المصبوغ باللون الفضي أو الاحمر الخريفي . وعلى زاوية المدخنة او البيانو المذنب ، ازيمحت المزهريه لافساح المجال للبطاقات المفروشة حيث انطلقت من هذه الدار مدة ثمانية ايام اوامر او توجيهات تشبه منفتحتها منفعة الاوامر والتوجيهات التي يصدرها خلال الفترة نفسها احد الخبراء بالخطط الحربية من داخل احد المقاهي الاقليمية ، وهو يعلق على البيان العسكري اليومي : لم يكن عليه اذن سوى ان ينزل درج المدخل ، ويجلس جلسة هادئة في سيارته المجهزة

بقضيب حديدي وينطلق انطلاقاً مستقيمة دون ان يتوقف حتى يصل الى المقر العام لفرقة او لفيلقه ، وان ينتظر هناك وقتاً طويلاً كافياً لكي يكلفوه شؤون قيادة جديدة كاقترانه . وبدلاً من هذا ، فعندما استقر ضباطه داخل السيارة الثانية ، اشتغلت المحركات وبقيت الدراجات البخارية للمراسلين الثلاثة او الأربعة تصرقع . وان كانت السيارة المجهزة بالقضيب الحديدي تنتظر مفتوحة الباب رمى نفسه برصاصة في دماغه فتناثر على الأرض . ووسط ضجيج المحركات والسيارات لم يتمكن احد من سماع ماجرى . ربما لم يكن يتعلق الأمر بمسألة شرف او وحي فجائي او عجز . وبوجيز الكلام ربما لم يكن فعلاً احمق - وكيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ - ربما ليس محظوراً ان يتصور المرء ان اوامره لم تكن حمقاء وانما هي افضل واصح ما باستطاعة المواقصده لابل هي نابعة من الهام - ولكن مرة اخرى كيف السبيل الى معرفة ذلك ، اذ ان امرا واحداً لم يصل الى المرسل اليه قط ؟ : وهناك احتمال آخر : شيء فارغ أو حفرة لا قعر لها ، شيء مطلق . او انه لم يعد لشيء من معنى او علة وجود - والا لماذا انتزعت منه ثيابه فكث على تلك الحال عارياً ، لا يحس بالبرد هادئاً هدوءاً رهيباً رصاصياً وقد اجلس باعته بالغ على كرسي : فقد كان يلمس ثيابه ويعاملها ونفسه تتقزز منها ويهتز أشد الاحتراز منها ، كما لو كانت بؤرة قذارة أو كتلة متفجرات . والى جانب ، معطفه العسكري وسرواله ، وقدامه جزمته وعلى رأس كل هذا قبعته وتبرمجته الجنونية الشبيهة بشعلة العاب كارية ، وكأنني بهم قد البسوا شخصية خيالية لا وجود لها ثياباً واحذية وقبعة . كان ينظر اليهم نظرتة الاعتيادية الجافة القارسة المرعبة ، فيما كان ما يزال يقشعر من الزمهرير ، ولكن دون ان يشعر به . فرجع القهقري ليتفحص النتيجة وفي النهاية قلب الكرسي دون شك بظاهر كفه بما انها كانت في الصورة منبطحة على الأرض وملابسه»

فقاطعه بلوم بقوله : «الصورة ؟ اذن هناك حقاً صورة ! ولكنك قلت لي

ان ...» فقال جورج : «كلا ليست هناك اية صورة . من اين علمت ذلك ؟»
كما لا يوجد ايضاً - في الأقل لم ير قط - اي رسم يمثل هذه المعركة وهذه الهزيمة
وهذا الاندحار لان الامم المغلوبة لا ترغب دون شك ان تخلد ذكرى الخراب
والدمار . لم يبق من تلك الحرب سوى صورة تزين القاعة الكبرى لدار البلدية
تمثل المرحلة الظافره من الحملة : ولكن ذلك النصر لم يتحقق الا بعد مرور سنة .
وقد كلف احد الرسامين الرسميين ، بعد حوالي مائة عام مهمة رسم تلك المعركة
فوضع على رؤوس الجنود . المهلهلي الثياب وهم اشبه بممثلين سينائيين شخصية
خرافية هي امرأة ترتدي ثوباً ابيض يكشف عن أحد نهديه ، تعتمر قبعة فريجية
كالقبعات التي كان يعتمرها الثوار الفرنسيون ، تشهر حساماً وهي فاعرة فاها ،
قائمة وسط النور الأصفر الذي يشعشع في يوم مشمس في وسط وشاحات دخان
عال ضارب الى الزرقة ، والتاريس منقلبة ، وفي مقدمة اللوحة ترى وجهاً معبراً
مغفلاً لميت مصور في المنظور ، مضطجع على ظهره ، وقد طوى احد ساقيه الى
النصف وكتف ذراعيه ، ورأسه متدل الى الأسفل وهو يحقد بعينه الجاحظتين في
اللانهاية ، واساريه ابدية التعابير ، واجيال الناجحين المتعاقبة تنصت لخطابات
اجيال السياسيين المتعاقبة الذين منحهم هذا النصر حق القاء الخطابات - كما
منح السامعين حق الانصات لخطاباتهم فوق المنصة المفروشة بالوان العلم الفرنسي
الثلاثة .

وقال جورج : «ولكنهم ، في اول الامر ، كانوا قد بدأوا بالهزيمة . وكان
الاسبان قد دحروهم في تلك المعركة التي كان فيها ريكسالك قائداً . وعليه فقد
اضطروا الى الانسحاب سالكين في ذلك ، كل الطرق النازلة من سلسلة جبال
البرينيس ، اي في اعتقادي ، دروباً مجهولة . ولكن الامر واحد سواء كانت
طرقاً او دروباً : او حفراً يحيط بها الموتى والخيول المقتولة والشاحنات المحروقة
والمدافع المتروكة ...» كان يوم احد هذه المرة وقد كانا جالسين كلاهما هو

وبلوم ، وهما يحاولان ان يصطليا تحت حرارة الشمس السكسونية الشاحبة . فبما كانا مازالان يرتديان معطفها الخشن الذي يلبسه عادة الجنود البولونيون او التشيكيون ، وهما متوكان على جدار سقيفتها المصنوع من الالواح ، يسحبان نفساً ، كل بدوره ، من السيكرة نفسها التي كانا يتبادلانها ، حابسين ، لأطول مدة ممكنة ، الدخان في اعماق الرئة ثم يقذفان به قذفاً بطيئاً عن طريق مناخيرهما لكي يتشبعاً منه ، وهما يشعران بدون مبالاة بالهوام تدب فوق جسميهما ، عشرات من القمل الناعم الضارب الى اللون الرمادي كانا قد اكتشفياها يوماً مذعورين وقد طاردا القملة الأولى مطاردة يائسة ، ثم عاجلاً القملات الاخرى ولكنها في نهاية الامر فضا قتلها فتركها تركض فوق جسميهما ونفسهما تنقزز منها ابداً ، عاجزين عن قتلها ابداً ، مع شعور صامد بالتفسخ . فيما كانت صيحات الوهرانيين توافهم من النافذة المفتوحة وهو يتخاصمون .

عبّ جورج في المرة الاخيرة كل ما كان يستطيع من نصف السنتيمتر الاخير من عقب السيكرة الذي كاد يحرق اطراف اصابعه ، ثم رماه او بالاحرى قذفه ، من بين شفتيه ، بضربة من سيابته اذ لم يبق منه بعد ذلك ما يمكن امساكه ثم نهض منشطاً ساقيه ، وادار ظهره ازاء الشمس ، فوضع ذراعيه المطويتين على مسند النافذة ، وذقنه على يديه ، وبقي على هذه الحال يجيل طرفه حول المائدة الملوخة بالدهن ، وتذاكرها الملوخة بالدهن بين أيديهما ، ووجهه الذي لا يؤثر فيه شيء ، وجه اللاعب المتوتر الذي لا يستسلم ، الذي كان فريسة للولع البارد الذي كان ينخر في نفسيهما ، الولع الصبور النابه الذي يعزلهما عما حولهما ، وكأنني به يحصرهما داخل قفص ، لكي يظلا في مأمن من العالم القاسي الضاري الذي يطوقهما كجرس مثلاً يكون السباح في مأمن من ماء المطر ، وكأنني بهما محصوران ايضاً كل واحد منهما داخل هالة من المخاطرة والعنف ، هالة كانا يفرزانها كالخبز الذي يفرزه الخبار : كان هذا القفص وهذا الجرس وهذه الهالة

متكونة من مدير اللعب ومستأجر الملعب المشبوه ، ان صح القول ، حيث كانت الثروات تبيع وتحسر وتنتقل من يد الى يد ، بين ساعة واخرى ، اما على شكل ماركات (وبالنسبة للذين نفذت ماركاتهم كانت على شكل سكاير ، وبالنسبة للذين نفذت سكايرهم كانت على شكل تعيينهم اليومي من الخبز وبالنسبة للذين فقدوا تعيينهم اليومي من الخبز ، فقد كانت تعيينهم لليوم التالي او لليوم الذي يليه احياناً - وكان هناك لاعب ايطالي اسمه بونوا قد لعب فخر تعيينه لاربعة أيام . وفي الغد كان يأتي كل يوم مساء ليسلم حرفياً للصراف كسرة خبزه السوداء ودهنته الفحمية دون ان يتبادلا بنت شفة واحدة ، وانما الذي كان يبدر منها كان مجرد رضى او حركة رأس لا تكاد من الذي يتسلم الخبز ويضيفه الى تعيينه الخاص ، حتى دون ان يظهر وكأنه يرى الاخر . وفي اليوم الثالث اغمى على الإيطالي . وعندما استطاع مجدداً ان يرى ويفهم ما جرى للخاسر ، اخذ كسرة الخبز والدهنة اللتين استلمهما منه ، ودون ان ينظر اليه ، كالعادة ، قدمها له قائلاً : « هل تريده ؟ » فاجابه الإيطالي « كلا » وبدون ان ينظر ايضاً ، كالعادة ، اودع الخبزة والدهنة مزودته . وفي الغد عاد الخاسر يحملها ، للمرة الرابعة والاخيرة ، وخلال النهار وقت العمل كان قد اغمى عليه مرة اخرى . فاخذ الغالب تعيين الخبز منه دون ان ينظر اليه ، كالعادة وكالمرات السابقة ووضعه في مزودته فقال احد الذين كانوا يراقبون المشهد متلفظاً بكلام يشبه « ياله من حقير ! » ولكنه (اي الصراف) لم يتحرك ، وانما استمر في الاكل بعين باردة ميتة يرسل منها اللحظ حيناً الى وجه الشخص الذي تكلم واسأريه لا تعبر عن شيء اطلاقاً ، بارداً تماماً » ثم ادار وجهه وهو يمزق أكله دون انقطاع فيما كان شخصان او ثلاثة يساعدون الإيطالي على الذهاب الى سريه وهو يترنح . اذن مدير اللعب او مستأجر الملعب او الصراف كان مالطياً او من فالنسياً او صقلياً مزيجاً اي واحداً من المنتجات النغلة التركيبية الصادرة من الموانئ او من الاحياء

الوضيعة ، ومن جزر هذا البحر هذا الم ، هذا القالب او المسبك الاصلي لكل تجارة ولكل فكرة ولكل حيلة . كان رأسه يشبه رأس الكواصر وعيناه الصغيرتان اشبه بعيون الزواحف الميتة ، هزيل الوجه يابس واسوده عديم التعابير ، لا يمكنك ان تحزر عمره . وكان بالطبع يرتدي ما يرتديه الآخرون ، بدلة عسكرية رثة وقد تساءل القوم عن مأربه من المحي الى ذلك المكان ، اعني في غمار هذه الحرب ، اعني التحاقه بالجيش ، اعني لماذا جندوا وساقوا شخصاً ، لعله من اصحاب السوابق ، ذا وجه كهذا لا يمكن استخدامه بكل وضوح في اي عمل سوى ان يرمي عندما تسنح له اول فرصة الضابط او نائب الضابط او أمين صندوق الكتيبة او الفوج برصاصة في ظهره ويفر هارباً بالصندوق وبما فيه - اللهم الا اذا كان قد تطيع ودعي لخدمة العلم وارتدى البدلة العسكرية وزود ليس ببندقية بها فعلاً لكن كانت حماقة كبرى - ولكن بدفتر خدمة عسكرية ، وذلك من باب استكمال كل الاستعدادات - بما ان المرء يحتاج الى كل شيء في سبيل تشكيل جيش . كان الدور الموكل اليه مستقبلاً دور مستأجر بيت مشبوه في سقفيه سجناء : وقبلته كان هناك يهودي هادي بدين لم يكن كثير الشحم وانما بدين فقط ويبدو جليلاً ، وربما كان السجين الوحيد في المعسكر كله ولكن كيف كان وحيداً ؟ لانه خلال الشهرين الأولين بعد وقوعه سجيناً كأصحابه لم يستلم اية رزمة لذا فإنه لم يفقد اونساً واحداً من شحمه . كان يمارس مهنة تشبه مهنة القواد في الجزائر العاصمة ، وقد كانت الملابس العسكرية البسيطة التي يرتديها والمتكونة من معطف اصفر بسيط وقبعة شكلها الأصلي تشبه حلة وتاجا مثلث الطواقب يعتمره البابا ، وبهذه الهيئة كان متربع على عرش ملكي على غرار الملوك الكتائية جسوراً تحيط به حاشية من الصعاليك الخليعين الذي فقدوا ماء وجههم حقيقة ومجازاً ، كانوا يتبارون في اشعال سكاثره فيما كان يبدو وكأنه لا يراهم ولو انه كان باستطاعته ان يأخذ قصعته بيده ولما يبدأ زملاؤه في تناوئها كان

جورج قد رآه - وان يناولها لاشدهم جوعاً وان يقول بكل بساطة : «لست جائعاً. هاك !» ويقول مقاطعاً احتجاجات فرد آخر من الحاشية : «كل !» بالنبرة التي يستعملها من يصدر الأوامر ، لا اكثر ولا اقل . فقد كان يستل سيكارة ويشعلها او انه كان يترك احدى اليرقات البشرية تشعلها له - ويبقى هناك على هذه الشاكلة هادئاً رزناً ، ثقيلاً .

ربما فقط شاحباً بعض الشيء يسحب انفاس دخان بطيئة بينما يحتسي الآخرون من حوله بشهية محمومة الشورية المملة العفنة الحامضة التي لم يكن يبدو وكأنه قد حرم نفسه وهو الذي لم يضعف قط كما لم يره احد قط ايضاً وهو يمارس ابسط الاعمال وانما ادنى شبه للعمل فقد كان يسحب الى موقع العمل ، الغرفة التي سلموها له بيده وعندما كان يصل الموقع كان ينصبها قدامه ويقضي الساعات الثماني متعكراً بها وقد كتف يديه وهو يدخن لانه مثلاً كان يبدو قادراً بفضل ما تبقى له من الامتيازات الملكية على الاستغناء عن الطعام ، كان له دائماً ايضاً بفضل هذه الامتيازات نفسها ما يدخنه وان ينظر بعين بعيدة عن الاحتقار الى السجناء وهم يمجون حوله ، كل هذا يجري دون ان يلفت اليه انظار اي فرد من أفراد الدورية او من أمرية ، وفي يوم كيبور ، هو الذي لم يقصد للصلاة يوماً ولا عرف طقوساً ومعرفته بالكتاب قليلة هو الذي لم يكن يعرف حتى القراءة كان جورج على علم بهذا لانه - اما لانه لم يكن يريد ان يكشف ضعفه صغار اللصوص الذين يحيطون به او لانه فضل اللجوء في هذا الأمر الى الغرباء - كان يطلب من بلوم او من جورج أن يكتبوا الرسائل التي يملئها ويبعث بها الى والدته (لا اقصد نساءه ولكن امه) وان يقرأ له الاجابات اذن في يوم كيبور ، تمارض لكي يعني من العمل ، ولم يبق طول النهار عاطلاً فحسب يقتله الضجر بدون اكل ودون ان يمس يده عود ثقاب تجراً واجبر أقرانه من بني الشعب ان الذي كان يعيش بين ظهرانيه سابقاً - الشعب الذي ما يزال ملكاً عليه الآن ، على

ملكاته : فالشخصان اللذان كان احدهما حقلية والاخر ملكاً جاء مباشرة من الكتاب المقدس وقد جلسا الواحد مقابل الاخر وحولها او في داخلها اعني داخل ما كان ينبعث منها من داخل ذلك القفص الخفي الذي كانا يشيدانه او الذي كان يتشيد من تلقائه، كلما كانا يجلسان ويستخرجان التذاكر، ذلك القفص الذي كتبت يد سحرية على جدرانه عبارة «خاص»، كما يكتب على باب القاعات الخاصة في الكازينوات وفي مراكز التسلية، وحولها الصف الاعتيادي الذي كانت تكونه رؤوس اللاعبين والدراج والحمام والقوادون المدربون وموظفو المتاجر او صناع الحلاقين المتحررون من القيود الاجتماعية، وقد جاؤا هنا، معرضين انفسهم للسلب، ووجوههم محمومة لا تؤثر فيها الاحداث، لاتكاد شفاههم تتحرك ولا تكاد ايديهم ايضاً تتحرك، لكي تمرر كل تذكرة تمريراً كافياً لان تظهر الزاوية القائمة، وعند نهاية كل حلقة كان ينبعث زفير صامت وشكوى وذروة لامن اللاعبين الذين كانت وجوههم، ابد الدهر، دون تعابير، وانما من الجمهور. وفي احدى اللحظات التي تنعدم خلالها الحركة، فتش جورج في جيبه، مستخرجاً منه ثروته الفقيرة وكثره التافه المتكون من مزق الورق الصغيرة، وطفق يعدها بسرعة (وكانها أجر تقاضاه فرد من الغالبين كان يقتل في مكان ما قريب اطفالاً صغاراً بكل راحة ضمير وكأنه مدفوع، لا اقول هذا من قبيل السخرية ولا من باب الفكاهة وانما بقوة مبدأ او بقوة قانون او بقوة اخلاق اكتسبها او بالاحرى تعلمها، او بالاحرى تأصلت فيه تأصلاً لم يعالجه فكرياً قط، اخلاق لا يمكن التجاوز عليها، اخلاق خلعت عليها العادة طابعاً قدسيا (رغم انها كانت قبل مائة عام مجهولة تماماً) ومفادها ان لكل عمل أجراً ولو كان زهيداً— اذن أجر كان يتصور نفسه ملزماً بان يدفعه لهم، اثر تكليفهم ان يتبعوا تعباً لاجدوى من ورائه، تكليفاً املاه عليه تعلقه الباطل الرمزي بمبدأ معين) وبعد ان احصاها انتزع منها ثلثها تقريباً مشيراً الى احد المشاهدين الذي نهض واخذ مزق الورق وتقدم

نحو ذاك الذي اصله من صقليا، فحدثه وعاد الى النافذة وناول سيكارتين اشعلها له جورج، ثم عاد فانزلت بظهره على الجدار المصنوع من الواح حتى لامس ردفاه عقيقه، فقدم احدى السيكارتين بلوم.

فقال له بلوم: «ألسنته مجنونا انت؟» فرد عليه جورج «امسكت ويحك! وعلى اية حال، اليوم هو الاحد، أليس كذلك؟» فجلس حينئذ تماماً. واخذ يحرق نفسه عميقاً جداً من السيكاراة الى ان احس بان الدخان تغلغل الى اسفل أسافل رئتيه، ثم عاد فقبّض بالدخان قذفاً بطيئاً جداً وقال: «اذن كان هنا على هذه الطريق ينسحب انسحاب الانتقاء، بقبعته هذه وقرنيه الشبيهين بقرني القره قوز المريش، وقد التى ذيل مظفه المطوي على الطريقة الرومانية على كتفه- وجزمته ملطخة بالوحل- والاصح مكسوة بالغبار. كان غارقاً في افكاره، او بالاحرى في فراغه الفكري، في عجزه عن التفكير وفي عجزه عن ان يجمع او يلم شمل فكرتين متماثلتين، ويضعهما وجهاً لوجه امام ما كان يعتقد انه الانهار بدون شك، انهار احلامه، ربما، بدون ان يشك، ان العكس كان صحيحاً- ولكنه والحسن حظه، لم يعيش عمراً طويلاً لكي يدرك ذلك فعلاً-» فقال له بلوم: «ولكنك تنطق وكأنك كتاب؟.....»

لكن جورج رفع رأسه فنظر اليه هنيهة حيوان اخرس. واخيراً هز كتفيه وقال: هذا صحيح. اعذرني. انها عادة أو عاهة وراثية. كان والدي بصر على ان التحق بدار المعلمين. كان يصر على ان استفيد، بالاكل ولو قليلاً، من هذه الثقافة العالمية التي خلفتها لنا اجيال واجيال من الفكر. كان يريد، من كل قلبه، ان يتمتع ابنه بامتيازات الحضارة الغربية الفريدة. ونظراً لكونه ابن فلاح امي، فإنه فخور جداً بانه استطاع ان يتعلم القراءة وانه لعل اقتناع تام بألا مشكلة، ولاسيما مشكلة سعادة البشرية، إلا ويمكن حلها بمطالعة خبرة المؤلفين. حتى انه توصل في احد الايام الى ان يحجز لنفسه (واني أؤكد لك انك

لو كنت تعرف والدتي لادركت المأثرة العظيمة والارادة القوية ، ومن ثم درجة التأثير والاندھاش المتمثلة في قدراتها الشخصية (خمسة اسطر على المرآئي التافهة التي تسطرھا في رسائلھا التي هي ، من حسن الحظ ، قليلة السطور والتي سمح لنا بان نتسلمھا لكي نضيف الى معزوفة الحرب مرآئي والدتي التي تكاشفني عن بأسھا ، في اعقاب خبر قصف لايزيغ ومكتبھا التي ، على مايدو ، هي خسارة لاتعوض.... قاطع نفسه فسكت وكان باستطاعته ان يرى - الرسالة ، دون ان يخرجھا من محفظته الرسالة الوحيدة التي احتفظ بها من رسائل سابین التي كان والده يكتفي عادة بتدوين العبارة الحتمية «نعاقلك أحرّ عناق» وتحتها الكلمة المحرّشة التي كان جورج هو الوحيد الذي يستجلي فيها لفظة «بابا»- ثم عاد فرأى اذن كتابة والدته المرمطة المتشابكة المتراحمة ، جراء ضيق المكان والرغبة في قول اكثر مايمكن في اضيق مكان ممكن كتابة الجامعي المرفهة واسلوب البرقيات الاخرق : «امك تعطيك اخبارنا. هي سارة كما ترى... بقدر مايمكن ان يكون شي ساراً اليوم ، كما اعلم انك تفكر بدون انقطاع بنفسك هناك ، وفي هذه الدنيا حيث يتكالب الانسان لكي يدمر نفسه بنفسه ، ليس في شخص اولاده ، فحسب وانما ايضا في خير مااستطاع ان يصنعه ويخلفه ويسلمه للاجيال اللاحقة : سيقول التاريخ ، فيما بعد ، ان البشرية فقدت في ذلك اليوم خلال بضع دقائق ميراث قرون عديدة ، في اعقاب قصف مكتبة كانت اثنى مكتبات العالم ، كل هذا مدعاة لحزن لانهاية له ، والدك العجوز » كان يستطيع ان يراه جالساً صفيق الجلد ، ضخماً ، لاشكل له تقريبا ، تحت ظل الكشك ، حيث كانا قد وقفنا في تلك الامسية الاخيرة قبل رحيله ، فيما كانت تصم اذانها فرقة الجرار الذي كان يأتي تاره عاصفاً وطوراً مخنوقاً. كان المزارع قد حصد بواسطته المرجة الكبيرة ، بينما كان العطر النافذ الاخضر الذي يفوح من العشب المحصود يطفو على الشفق القاتر ، ويحيط بهما ، فضلاً عن رحيق الصيف القوي ، بينما

كان شيخ المزارع الجاثم فوق الجرار يقبعته التبنية المخدشة الخواف كأنها هالة سوداء معكوسة مرتين بواسطة النظارات تجتاز ببطء سطح العدسات المحدبة اللامعة امام والده الواجم الحزين . وفيما كانا متقابلين وجها لوجه ، لم يجدا شيئاً يقوله الواحد للآخر . وكأن سوراً من عدم التفاهم الخامل ، سورا من العجز عن تبادل الاتصال ، كان قد انتصب بينها ، سوراً كان والده قد حاول ان يزيله مرة اخرى - سمعه جورج يواصل الحديث اذ لاشك في انه لم يتوقف وصوته يطرق اذنيه وهو يقول : «.... وقد اجبت على الرسالة بقولي انه ان كانت محتويات آلاف الكتب التي كانت تزخر بها تلك المكتبة التي لاتعوض عاجزة عن منع امور كالقصف الذي انزل بها الدمار فاني لافهم جيداً ما حجم الخسارة التي كان يمثلها للبشرية فقدان الوف الكتب المشحونة بالمرأة والمتزوعة من كل فائدة تحت وابل القنابل الفوسفورية . كان الاجدى تدوين قائمة تفصيلية بالقيم الاكيدة والمواد التي هي من اولى الضرورات التي نحن بحاجة اليها هنا اكثر من كل ما كانت تحتويه مكتبة لايزيغ الشهيرة ، واقصد بها الاحذية والملابس الداخلية والاصواف والصابون والسكرات والسجق والشكولاته والسكر والمعلبات وارغفة الخبز....»

فرد عليه بلوم قائلاً: «حسن، جيد، حسن، جيد. عرفنا. جيداً. تباً لمكتبة لايزيغ جيد. انا اتفق معك. ولكنني اعود مرة اخرى الى صاحبك، صاحب الصورة الشخصية الذي يمثل مجد عائلتك وخزنها. انه لم يكن اول عميد أو اول بشر أو مفوض او ماشئت قام ب....».

وقال جورج: «اجل، بدون شك. اعرف ذلك جيداً. ربما لم تكن المسألة مسألة معركة او مسألة هزيمة بحتة: لم تكن مجرد مشاهدته هناك من دعر وجبن، حيث الهاربون كانوا يلقون بسلحهم ارضاً، داعين كالعادة دائماً الى الخيانة، لاعنين رؤوساتهم، تبريراً لخوفهم، وبعد ذلك كان صوت الاطلاقات يتباعد، ثم يفرد بدون ان تعقبه رغبة في الاستمرار او اقتناع، حتى اوشكت قوى القتال

ان تنهك ثم ينهار من تلقاء ذاته وهن نهاية النهار. لقد رأينا هذا وعرفناه : هذا التباطؤ وهذا الجمود التدريجي. مثل عجلة يا نصيب المعارض إذ يضمحل صرير اللسان المعدني فوق تاج المصادم البراق، ان صح التعبير، واذ كانت خرفشة الجرس الخشبي المستمرة الواحدة تنفصل وتفترق فتصبح نادرة في الساعات الاخيرة التي بدا القتال فيها، وكأنه لا يتواصل الا بفضل السرعة المكتسبة، فتارة يتثقل وطوراً يستأنف. ثم ينطفئ لكي يعود فيضطرم على شكل وثبات مستحيلة غير متماسكة، ثم يتراص مجدداً، في وقت كنت تسمع فيه، وقد اخذت تشدو مدركة انها لم تنقطع قط عن الغناء مثلاً لم تتوقف الريح عن تحريك افنان الشجر ، والغيوم عن التحليق في السماء، اذن كانت هناك بعض الاطلاقات النارية ولكنها الآن أصبحت غريبة..

غير معقولة تصدر وسط سلام المساء ، بعض الاشتباكات المتأخرة بين مؤخرات الجيوش والجحافل الملاحقة ، لم تكن بدون شك ، القوات الاسبانية بحد ذاتها اعني القوات النظامية ، الملكية اعني ان الاحتمال يغلب على كونها مشكلة ليس من الاسبان ، وانما من الجنود الأيرلنديين والسويسريين المرتزقة بأمر امير طفل او عميد اكل الدهر عليه وشرب ، وكأنني بهامته رأس مومياء فرعونية ، اشبه ما تكون يداه برق الغزال الذي فارقه الحياة منذ دهر ، ترصعها بقع النخالة ، وكلاهما (الطفل والمومياء العجوز) ينوءان تحت ثقل الذهب والاورسمة والانواط الماسية ، وكأنهما محفوظان داخل صناديق زجاجية او كتائب العذراء مريم ، بللهم النقية الناصعة البياض وياشرطهم الواسعة السماوية اللون المتصالبة ، وايديهم التي تزينها الخواتم ، كنت ترى الامير الطفل ممتطياً فرسه الاغبر على ذروة تل يتمتع نفسه في البحث ، خلال نظارة يجهل حتى طريقة حملها ، عن قطعات العدو الاخيرة ، وهي تنسحب ، فيما كانت المومياء الهرمة التي استحالت الى رق غزال مسترخية في اريكة سيارة برلينية ، وقد اعتوره الان

قلق من جراء مكان مرابطة القوات ومن المزرعة والغذاء والمنام - وربما من جراء الصبية ايضاً - التي سيوفرها له ضباطه - ولكن هذه الاطلاقات النارية المتقطعة كانت تأتي من الحلفاء المستترين المتكتمين الذين يذهبون وراء كل جيش متصر من تلقاء انفسهم . فبعضهم يظهر بعد مرور الجيش ، وبعضهم قبل قدومه ، وهم دون شك ، من الفلاحين او من قطاع الطرق او من لصوص المنطقة او ما حولها المعروفين ، سلاحهم الطبنجات القديمة او المسدسات المصلحة ، يحملون في نحورهم سلاسل من التماث والمدايات ، فيما كان ذلك الرجل الظريف النبيل برأسه ومنقاره وبرائته التي تعطي ملامح أصل ايطالي من منطقة صقليا او كالابريا يمسك بمنضدة البوكر هناك من الخلف ، وقد تنكر بزّي الجندي ومارس تجارة السكائر بواقع سيكارتين عن قيمة ما يقارب اجر عملنا لاربعة أيام .

بينما كان الفلاحون وقطاع الطرق يعانون صلياً قديماً وسخاً اخرجوه من تحت قبصهم ، قبل ان يفرغوا وراء شجرة فلين أو دغل وعن قرب ، رصاص طبنجاتهم العتيقة في جسم احد الحرس او احد الجنود المتأخرين ، يدفعهم حقدهم المقدس المعروف وحققهم الطاهر القاتل ، وهم يتفوهون مع لحظة الاطلاق بصوت عال ، بكلام مثل : «هاك ايها النذل ، كُلْ هذا !» اما ريكسك الذي كان يبدو اصم واعى امام العيارات النارية ولشدو الطيور وللشمس الغاربة ، فقد كان متجهماً ، غائباً وقد ارمى لحصانه العنان يتوجه كيفما شاء ، فانهى به الامر الى ان يدخل في حالة اخرى او ان يصل الى درجة اخرى من المعرفة او من الاحساس . او من عدم الاحساس وفي أحد الاوقات خرج شخص - جندي مكشوف الرأس لا يحمل شارة ولا سلاحاً - من مكان ما ، من زاوية احدى الدور او من وراء سياج او من حفرة كان كامناً فيها فجعل يركض بالقرب منه : «خذني معك سيدي النقيب خذني معك ، دعني آت معكم !..» اما ريكسك فلم يجهد نفسه في النظر اليه ، او ربما رآه ولكن مثلاً

ينظر المرء الى حصاة او الى شيء ، ثم أدار للترأسه وقال بصوت كانت نبرته أعلى قليلاً من نبرة الحديث : « اليك عني » . لكن الجندي واصل الركض على ارتفاع جزمة ريكسك - او الاصح انه واصل العدو السريع - وبدون شك لم يكن يحتاج الى تلك السرعة - وانما كان يكفيه ان يطيل خطاه لكي يمشي بسرعة تساوي سرعة الحصان ، ولكن فكرة الركض كانت ربما تلي تلقائياً عنده رغبته في الهروب والفرار ، فقد كان يستغيث لاهثاً بقوله : « خذني فقد فقدت فوجي ، خذني معك يانقبي فلم يبق لي فوج ، خذني ، دعني اذهب معكم » اما ريكسك فلم يرد عليه هذه المرة ولم يسمعه وحتى انه دون شك لم يره ، فقد كان مديراً له ظهره يطوقه صمته المتعجرف ، حيث اصبح الان يستحضر كل اجداده البارونات الميتين ويكلمهم كلام الند للند وكل آل ريكسك الذين ... فقال بلوم : « ولكن الا تقول لي ماذا تـ... »

فرد عليه جورج : « كلا ، اسمع » : حينئذ كف الشخص عن الركض وجاء صوبنا ، او بالاحرى توقف عن الركض بكل بساطة ، مثل جرو وراء صاحبه . كان رأسه مرفوعاً تقريباً على ارتفاع ركبة دي ريكسك ، فانتصب وسط الطريق وانتظرنا ، حتى صرنا الى ارتفاع قامته فقال : « دعوني أركب الحصان . فلم يجب ايجليزيا الذي كان يمسك بزمام الجنيب من شظيته الى طقمه المقطوع ، تماماً كما فعل دي ريكسك قبل قليل ولم يعد يتظاهر بأنه يراه فقلت له حينئذ : « انت تعرف جيداً الاسرج له ، واذا سرنا خبياً فلن نستطيع ان تقاوم » ، لكنه اصبح الان يركض الى جانبنا او بالاحرى يعدو ، كما فعل من قبل ، وقد تقدم تقدماً متقطعاً » وكأنه يقفز ورأسه يتأرجح ، كأنه على وشك ان يسقط عند كل خطوة جديدة ، وكان يرنو اليّ وهو يناشدني دون انقطاع بنبرة رتيبة حزينة واحدة قائلاً : « دعوني اركب ، دعوني اركب . بالله عليكم دعوني » فقلت له انا اخيراً : « هيا اركب ان شئت ؟ » ، وفي الحقيقة اذ كان مستعداً للانهيار ، فأني

لم اتصور قط بأنه قادر على الركوب ولكني لم اكد أنطق بكلمة حتى اصبح هناك متأهباً للامتطاء وتشبث بطقم الفرس تشبثاً جنونياً ضاعطاً على كشحيه بكل ما أوتي من قوة واخيراً بلغ مرامه ، عندما اعتلى الفرس وانتصب ، حينئذ التفت دي ريكسكاك وكأنه كان يملك عينين في قفاه ، هو الذي لم يعد يشاهد على ما يبدو ماذا كان يجري امامه فصرخ به قائلاً : «ما الذي جاء بك هاهنا ؟ سبق ان قلت لك ان انصرف ودعنا بسلام ؟ من أذن لك ان تركب هذا الحصان وان تتبعني ؟» فاستأنف الجندي نحيبه وهو يردد طلبه ويقول : «دعوني اذهب معكم فقد فقدت فوجي وانهم لسوف يقبضون عليّ . دعوني ...» فرد عليه دي ريكسكاك : «ترجل فوراً وانصرف ودعنا في سلام !» فاذا بي لم اعد ارى الجندي على الحصان وبأسرع مما امتطاه هبط الأرض . واذا التفت اليه رأيت متصباً على قارعة الطريق بائساً وحيداً لا عول له ولا حول ، ينظر الينا ونحن نبتعد وبعد حين قال انجليزيا : «لقد كان جاسوساً ؟» فقلت له : «من ؟» فرد عليّ انجليزيا : «ذلك الشخص . ألم تلاحظ ؟ لقد كان مجمد الشعر أي المانياً» فقلت له : «المانيا ؟ أأنت مجنوناً . ولماذا يكون ألمانيا ؟».

اما هو فلهز كتفيه بدون ان يرد عليّ وكأنني مغفل أمامه ، بينما كانت طقطقة حوافر الدواب مستمرة ، وظهر دي ريكسكاك العمودي على سرجه لا يكاد يتأيل ، وتلك الشمس وتلك الطبقة من التعب والكرى والعرق والغبار التي كانت ملتصقة بوجهي ، وكأنها قناع يعزلي عما يحيط بي ، وبعد وقت يسير بلغني صوت انجليزيا مخترقاً ، تلك الطبقة ، ذلك الغشاء ، من مكان بعيد جداً عبر ضياء الشمس المتناثر ، وعبر الهواء وهو يقول : «لقد كان المانياً كما قلت لك . كان يتقن الفرنسية اتقاناً بالغاً . ثم انك لم تلاحظ رأسه ؟ وشعره ؟ كم كان اصهب ؟» فقلت له : «اصهب ؟» فرد عليّ انجليزيا : «ويحك . انت متوحش تماماً او ماذا جرى لك ؟ حتى انك لم تعد تستطيع ان....»

فقال : «وفي تلك اللحظة بالذات انطلقت صلية الرشاشة كان واقفاً هناك امامها فيما كانت مستمرة في تفحصها اياه، بشي من الفضول المترجع الصبور المؤدب، وكان تفحصها احياناً خالياً من الرعب، ولكنه مشوب بالتربص والحذر الخفي الوقح، كالشيء الذي يرهف نظر الققط ، لامبالياً خاطفاً حاداً صاعقاً يتعكس على عينيها ، ثم انطفأ فضولها وكان وجهها كما رآه قد بقي دون تغيير وكأنه قناع ثابت الشكل، صافياً عظيماً فارغاً مثل التماثيل. ربما ليست شيئاً آخر سوى تماثيل ، ربما لا يمكن طلب شيء منها سوى ما يطلب من قطعة رخام او حجر او برونز: مجرد ان تترك الناس ينظرون اليها ويلمسونها.» لكنه لم يتحرك، فيما كان يفكر في نفسه قائلاً: «ولكنها كانت تبكي. ثم خيل اليه انه رآهما كليهما أي هي وايجليزيا واقفين وسط وطء اقدام الجمع الغفير وصرير الرمل الذي تبقيه او بالاحرى تلتطخه التذاكر الخاسرة، بينما كانت يدا ايجليزيا الصغيرتان كيدي القرد، تخزقان قصاصات الورق التي باتت لاتغني فتيلاً، كانا كلاهما مستقيمين ثابتين الواحد إزاء الآخر: هو بوجهه الشبيه بلون الجلد، مشدوهاً رهيباً حزيناً، وسرواله الابيض وجزمته الشبيهة بجزمة لعب الاطفال ، مع مثلث الابرسم اللامع الوردي المرسوم على سترته، ذلك المثلث الذي كان يبرز بين ظواهر قيصه المهلهل. وهي التي لم تعد الان من قبيل الاختلاق (كما كان يقول بلوم) بمعنى انها ليست امرأة من نسج الخيال تمخضت عنها شهور طويلة من الحرب والاسر والتعفف القسري. وكانت قد ابتدأت، انطلاقاً من رؤية قصيرة ووحيدة في يوم طراد الجياد ومن حكايات سابيين او من نتف قليلة من الجمل (لأن هذه النتف نفسها كانت تمثل نتفاً من الحقيقة) ومن المناجاة او بالاحرى التذمرات الاحادية المقاطع تقريباً انتزعت من ايجليزيا انتزاعاً بقوة الصبر والحيلة او استقيت، وهذا الاحتمال اضعف، من رسم لوجود له اطلاقاً، من صورة شخصية رسمت قبل مائة وخمسين عاماً... ولكن على حقيقة ما كان يراها آنئذ، واقفة امامه حقاً

وحقيقة بما إنه كان يستطيع ولسوف يستطيع ان يلمسها، وقد فكر فعلاً في نفسه ان يلمسها قائلاً: «اني لسوف افعل ذلك. انها سوف تصفغي وتصرفني موصدة الباب بوجهي. ولكني سوف افعل ذلك...» اما هي فقد كانت ماتزال تتفرس فيه وكأنها تنظر اليه خلال لوحة زجاجية وكأنها كانت قائمة في الجانب الاخر من حائط شفاف متين يستحيل اختراقه، تماماً كالزجاج رغم شفافيته، كانت اذن قائمة في الجانب الاخر من اللوح الزجاجي، في مأمن من كل تطاول فيما كانت تطلق العنان لشفتيها (لشفتيها فقط وليس لنفسها- اعني ذلك الشيء الحاد او الاخرى الحريف الرهيب الصاعق او ربما ان هذا الشيء مجهول عندها- الذي كان بسرعة هائلة مخترقاً النظر الصافي اللامبالي كالبرق النافذ) لكي تقيم كحاجز اضافي بقية الكلمات والعبارات والصيغ اللامبالية وهي تقول: «اذن كنت معه في فوج واحد واقصد انكما كنتما في سرية واحدة أنت و..» لم تكد تنهي حديثها (وكان الانزعاج الحشمة او مجرد الكسل حال دون ذلك) الاسم (الثاني) الذي لم يقرر هذا نفسه كتابته في رسالته واكتفى بذكر رقم الفوج والسرية، وكأنه هو ايضاً شعر بهذا الانزعاج نفسه وهذا العجز نفسه، وفي احد الاوقات سمعها تضحك قائلة: «ولكني اظن اننا اقرباء وقد تكون قرابتنا بعيدة او اننا بنو عم بالمزوجة- أليس كذلك؟...» واذا سمعته بعد ستة اعوام ينطق تقريباً نطقاً حرفياً بالكلام الذي كان دي ريكسالك نفسه قاله في صباح احد الايام المتجمدة، بينما كانت تمر وراءه تكراراً بقع الجياد الحمراء غير الواضحة، وهي تعود من المورد حيث كان على المرء ان يكسر الجليد لكي يمكنها من الاستقاء، اما الان فالموسم صيف- لم يكن اول صيف وانما الصيف الثاني بعد ان انتهى كل شيء، اعني انه انغلق والتأم او بالأحرى (لم يلتئم لان كل اثر لما حدث لم يعد يراه احد) عاد فالتصق ثانية التصاقاً كاملاً جداً، حتى انك لم تعد تستطيع ان تلاحظ أي صدع، مثلما ينسد سطح الماء على حصاة تقع عليه، واذا يتكسر المنظر الطبيعي

المنعكس عليه، ويتمزق اربا اربا ويتفرق ايدي سبأ، مكوناً مزيجاً متداخلاً من السماء والشجر (بمعنى انها لم تعد سماء فعلاً او شجراً، وانما مزقاً يشوبها اللون الازرق والاخضر والاسود) يعود هذا المزيج فيتكون ليتجمع الازرق والاخضر والاسود ويتخثر، ان صح التعبير وتنظم وتنموج. وبعد قليل تموج الثعابين الخطرة ثم تسكن تماماً، حيث لا تعود ترى شيئاً سوى سطح لامع نقي صاف غامض تنتظم فيه روعة الافانين الهادئة والسماء والغيوم الساكنة البطيئة. لن تعود ترى شيئاً سوى ذلك السطح البراق الذي لا يخترقه شيء. فكر جورج في نفسه قائلاً: «اذن بإمكانه ان يعود الى الاعتقاد بتلك الكلمات والى تصنيفها وتنظيمها ايضاً الواحدة بعد الاخرى، تلك الكلمات الفارغة من المعنى الصاخبة ليخرجها في جمل فارغة من المعنى، صاخبة مناسبة تبعث الطمأنينة الكاملة، مشدبة وجامدة وواهية تماماً كسطح الماء البراق الذي يغطي ويخفي حشمة...» ولكن جورج لم يعد يتردد الان الى الكشك، وانما كان يكتفي بتحديدته ووصده حتى بدون ان يتطلع اليه. لأنه لم يحتاج الى ذلك، لم يكن يحتاج الى الاستعانة بعينه لكي يتحدها ويرصده، لانه بدون ان تنطبع صورة ذلك الجسد على شبكية عينه، كان يستطيع ان يراه وقد استحوذت عليه البدانة البشعة فاصبح ينوء تحت ثقله الذاتي اكثر فاكثراً. اما وجهه الذي تهدم هو ايضاً، اكثر فاكثراً تحت وطأة شيء لم يكن شحماً فحسب، شيء كان قد اخذ يملكه تدريجياً وسيطر عليه ويحبسه ويطوقه كالسور، لكي يبق في خلوة خرساء وحزن متكبر عميق. كما كان قد تحدها عند عودته. وقد جرى المشهد على النحو التالي. كان جورج قد صرح بانه قرر الاهتمام بالاراضي وقد استند في ذلك (ولو انه تظاهر بعدم سماعها، ولو انه تظاهر بانه كان يكلمها معاً ايضاً كليهما ولكنه كان ملتفتاً من الظاهر اليها وحدها مديراً ظهره الى والده، كما يبدو الا انه كان يوجه الكلام اليه بدون ان يكثر لها اطلاقاً كما يبدو. ولما كانت تود ان

تقوله قد استند على موافقة سابين الصاخبة البذيئة العميقة لا أكثر ولا اقل ، اعني لا كلمة صدرت عنها ولا ملاحظة ولا اسف . فقد كان الجبل الذي يكونه جسمها دائماً بلا حراك صامتاً ، وكانت كتلة الاعضاء الثقيلة الخاملة المترهلة المستهلكة تحتوي على شيء في داخلها او الاصح من تحتها كان هو جزء من جورج . بحيث انها رغم جمودها التام ورغم انعدام رد الفعل الظاهري احس جورج احساساً واضحاً أقوى من ثرثرة سابين التي تصم الاذان بما يشبه التصدع ، كصوت احد اعضاء الجسم الخفية الرهيفة وهو يتحطم . وبعد هذا لم يحس بشيء اخر سوى قرقرة الصمت عندما كان جورج يأتي ويجلس بسرواله الملوث الى المائدة ويده ، لم تكونا ملوثتين ، ولكنها ان صح القول ، كانتا مرصعتين بالوحل وبشحوم المحركات في مساء الايام البطيئة الفارغة التي كان في أثنائها يقود الجرار منسقطاً الانلام البطيئة ، وهو ينظر عند الرواح والهجى الى ظله الذي كان في البدء مترهلاً ، مستطيلاً ، يتغير شكله ببطء ، عندما كان يدور حول جسمه ببطء . كعقارب الساعة ، يقصر ثم يتراص ويتسطح ثم يتنامى ويتمدد ثانية مرتبك القياسات ليصبح في نهاية الامر ضخماً جداً ، كلما كانت الشمس تميل الى المغيب فوق الارض العديمة الذاكرة اللامبالية ليعود العالم الخبيث فيصبح مأموناً مألوفاً خداعاً . بينما كانت احياناً تمر الغيوم مضطربة ، مع كل من وجه بلوم الهزيل وايجليزيا ، ومشهد وضع العجينة فوق النار وشبح الفارس الحالك وهو يرفع يده ملوحاً بسيفه ثم يهوي ببطء الى احد جنييه فيتوارى . وهي تماماً كما شخصها هو او على الاصح هم (ولكنه لم يبقَ معه شخص يتجاذب معه اطراف الحديث بشأنها . وكانت سابين قد قالت انه قيل لها انها سلكت سلوكاً من شأنه ان يجعل الناس - اعني دون شك اولئك الذين كانوا يتمتعون او الذين كانت سابين تظنهم اهلاً لان ينتموا الى ذلك الوسط او الى تلك الطبقة التي كانت تدرج نفسها فيها - لا يقبلونها) او على الاصح هم (اعني به بلوم - او قل مخيلتهم

لا بل اجسامهم اعني جلدهم واعضاءهم ولحمهم التي اصبحت شبيهة باجسام المراهقين الذين فطموا عن النساء) كما شخصها اذن : واقفة في الاتجاه المعاكس لضوء الشمس عند انتهاء عصر احد الايام ، وهي في ثوبها الاحمر الشبيه بلون اللوز الملبس الانكليزي (ولكن ربما كان هذا ايضا من اختراعه اى اللون ، ذلك الاحمر اللاذع ، ربما مجرد انها كانت شيئاً لا يفكر فيه ذهنه وانما شفتاه وفمه ربما لان اسمها «اي كورين» من مشتقات كلمة «كواري اي المرجانه» ؟ . . .) تفصل عن الناس .

ميممة شطر العشب الاخضر ، حيث تعدو الجياد ، وكان غالباً ما يحدث له ان يراها وهي في شكل احدى الملكات المرسومات على اوراق اللعب التي كان يناولها اياها ببطء ، وعلى وجهه امارات اللامبالاة وفكر في نفسه قائلاً : «على كل حال ، فقد تعلمت من الحرب شيئاً . وهكذا فأني لم اخض حرباً لا تغني قليلاً . واني في الاقل قد تعلمت لعبة البوكر . . . » . لانه اصبحت يلعب الان . وعندما يحل المساء ، كان يرتاد القاعة الخلفية لمشرب يقع قرب سوق الدواب (كان يختلف اليه وكأنه يتناول الطعام على مائدة ابيه ، أي انه كان مرتدياً سروال العمل ، ويداه المتوسختان المشبعتان بمزيج الطين وشحوم المحركات) لمشاهدة ثلاثة اشخاص او اربعة بوجوههم المتطابقة الخالية من أي تعبير ، وحركاتهم المتطابقة القصيرة البخيلة وهم يجازفون في اللعب ويفرغون (بالحركات التي كانوا يؤدونها عند اللعب ، وبالطريقة نفسها الصامتة السريعة الخالية من المتعة ظاهرياً) أثنى قناني الشمانيا ، فيما كانت فتاتان او ثلاث كانوا قد رقدوا معهن الواحدة بعد الاخرى ينتظرن متاثبات ، وهن يعرضن خواتمهن الواحدة للآخرى فوق المقاعد المتكسرة) : اذن كانت قطعة ورق مقوى بسيطة أي احدى اولئك الملكات المتشحات بالارجوان ، الملكات اللغزيات المزدوجات ازدواجاً متطابقاً وكأنهن ينعكسن على مرآة ، وهن مرتديات أحد الثياب الملون نصفها بالاحمر

والنصف الآخر بالاخضر وعليهن مظاهر الزينة الثقيلة الطقسية ذوات الصفات الطقسية والرمزية (وردة وصولجان وحيوان القاقم) وكأنهن شيء لا سمك له ولا حقيقة ولا وجود أكثر من وجه مرسوم رسماً تخطيطياً على خلفية ورق بيضاء لا يخترقها شيء ، وجه لا تعبير فيه ، وجه حتمي كوجه القدر نفسه ، ثم انه - عن طريق احد اللاعبين - علم انها كانت قد تزوجت للمرة الثانية وكانت نقطن مدينة تولوز .

والان كل ما كان يفصله عنها كان ذلك اللوح من الزجاج الذي كانت تبدو من ورائه وكأنها تنظر اليه وتكلمه وتتلفظ بعبارات واقوال لم يكن يسمعها ، مثلما لم تكن تسمعها ربما هي ايضاً تماماً كما لو كان قد وقف في الجانب الآخر من مرآة حويض الاسماك ، فيما كان هو يرنو اليها ويطلق التفكير قائلاً في سره : «اني لسوف افعل ذلك . سوف تضربني مستصرخة شخصاً ليطردني ولكني سوف افعل . . . » اما هي فقد كانت تتحرك تحركاً لا يكاد المرء يحسه ، أي انها كانت تنفس بمعنى انها كانت تمطى تارة وتقلص طوراً ، وكأنني بالهواء ينفذ في جسمها لاعن فيها او عن رثتها وانما عبر بشرتها كلها ، وكأنها مجبولة من مادة تشبه مادة الرثتين غير مرئية تتمدد وتنكش كالزهور او كالكائنات البحرية التي هي من النبات والحيوان بين بين ، او كعرق اللؤلؤ الذي يرتعش ارتعاشاً ناعماً داخل الماء الرقراق . كان يتنفس ولم يكن يصيح بسمعه اطلاقاً ، بل لم يكن يجهد نفسه في أن يتظاهر بالانصات ، وكان ينظر اليها فيما كانت تحاول ان تضحك مجدداً وترصده من وراء ضحكاتها رصداً احترازياً فيه مزيج من الفضول والحذر ، وربما الخوف وكأنه شيء شبيه بالشبح او الطيف العائد . وكان يستطيع هو ايضاً ان يرى نفسه ، ان يترأى خلال المرآة الزرقاء الكائنة وراءها بوجهه المحترق وهيئته الشبيهة بهيئة الكلب الهزيل الجائع وهو يفكر في سره قائلاً : «أجل . هذه هي على وجه التقريب الهيئة التي أبداً فيها فعلاً كمسعود يريد ان

بعض . . . ، فيما كانت هي تقول دائماً كل ما يخطر ببالها : ما أشد سمرتك . هل انت عائد من البحر ؟ فأجابها : ماذا ؟ فقالت : لقد لفحتك الشمس فأجاب : «البحر ؟ لماذا . . . آه ! كلا اني افلح الارض . انت تعرفين اني طول النهار جالس على الجرار» . . . ثم ظهرت له يده فدخلت في مجال نظره أي كأنه غمسها في الماء واطال النظر فيها وهي تتقدم وتبتعد عنه وهو حائر مشدوه (كما لو كانت تفصل عنه وتفترق عن ذراعه بفعل الانحراف الخفيف لمدى رؤيته عندما تخترق سطح أحد السوائل) : كانت يده نحيفة سمراء طويلة الاصابع ناعمتها . لم يستطع خلال مدة ثماني سنوات ، رغم استعماله مقابض الشوكات والمغارف والمعاول والتراب والشحوم ان يخرج بيد فلاح . وكأن متضعضاً يائساً يحمل سابين على ان تقول له ، بحب وكبرياء ، ان يده ، يد غازف البيانو وكان عليه ان يحترف الموسيقى وانه بالتأكيد قد اهدر واثلف موهبة وفطر بفرصة العمر (ولكنه لم يعد الان يحاول حتى ان يهز كتفيه) فطرد صورة سابين وصوتها ، فيما كان يتابع النظر مبهوراً ، في يده التي اصبحت غريبة عنه ان صح التعبير ، بمعنى انها اصبحت تماماً كالشجر والسماء والازرق والاخضر جزءاً من هذا العالم المتلاشي الذي لا يصدق الذي كانت هي (كورين) قائمة فيه لا واقعية بعيدة عن التصديق هي ايضاً ، رغم اريحها الثقيل وصوتها وتنفسها الذي امسى الان متسارعاً فيما نرى صدرها ونهديها يرتفعان كحوصلة الطير التي تنبض ، والهواء او الدم يتدفق اليها نبضات حثيثة ، بينما كان صوتها قد غدا اسرع واعلى قليلاً عندما قالت له : «اود ان اقول لك انني اسعدت كثيراً بملاقاتك . عليّ الان ان اخرج اظن انني ساكون متأخرة . عليّ ان . . . ولكنه مع كل هذا لم يتحرك وقد صارت يده بعيدة جداً عنه (مثلاً يفعل المشاهدون القائمون على شرفة قاعة السينما بالقرب من حجرة العرض اذ يحركون ايديهم واذرعهم واصابعهم الخمس المفتوحة فتعترض الحزمة الضوئية لكي تقذف بظلالها الهائلة المتحركة على الشاشة وكأنهم يحاولون

تحقيق حلمهم الجميل البعيد المثال) وانفصلت كلياً عنه الآن حتى انه عندما لمسها (اعلى الذراع العاري فوق الكتف بقليل) أهسّ لأول وهلة احساساً غريباً ، وكأنه لم يلمسها حقيقة ، مثلما تأخذ طائراً بيدك : احس بالدهشة والاستغراب من الفارق بين الحجم الظاهري والوزن الحقيقي والخفة المتناهية والرهافة المتناهية والمشاشة المتناهية للریش والزغب . اما هي فقالت : «ولكن ماذا تـ . . . ماذا تـ . . . ويبدو انها عجزت عن اكمال قولها ، كما عجزت عن الحركة ، وانما اخذ نفسها يتسارع اكثر فأكثر ، وصارت تلهث تقريباً ، فيما كانت ما تزال ترنو اليه وعليها مسحة من الذعر والعجز . وكان بين راحة يدها وجلد ذراعها الحريري شيء ايضاً لا يتجاوز سمكه سمك ورق السكاثر ، ولكنه شيء يقف حاجزاً معترضاً ، أعني أن الشعور باللمس قد اخذ يتراجع قليلاً لكي يشبه اصابع اليد التي خدرها البرد ، عندما توضع على شيء ، ولكنها لا تنحس به على ما يبدو الا خلال رقاقة او مادة متقرنة فقدت حاسة اللمس . صار هو وكورين بلا حراك تماماً يتفرس الواحد في الاخر . ثم اطبق يده حول ذراعها وعصره . حينذاك استطاع ان يغمض عينيه ، ولم يعد يتنفس سوى رائحة الزهور التي كانت تضوع من جسمها . وكان يسمع صوت لهاثها والهواء يدخل ويخرج بسرعة هائلة من بين شفثتها ثم سمعت حسيماً كصوت الزفير والتنهد وهي تقول : «انك تؤلمني . اتركني . انك تؤلمني . ولكن دعني...» حتى ادرك ان يده كانت تعصر ذراعها بكل قوته ، ولكنه لم يسحبها ، وانما ارخى عضلاتها قليلاً ، كما ادرك ايضاً انه صار يرتجف ارتجافاً مستمراً لا يشعر به أحد ولا تمكنه السيطرة عليه . فقالت له : «ارجوك . يمكن ان يعود زوجي . نشدتك الله ان تتركني . كف اذن.» ولكنه اصر على عدم التحرك ، فيما كان يلهث قليلا ويردد بصوت رتيب آلي مذعور ، ويقول : «كورين من فضلك اسمعيني ارجوك.

ارجوك...» اكتفى جورج حينئذ بإبقاء يده، حيث كانت، لم يحركها، وبقي هو ايضاً متمسراً في مكانه، وكأن الهواء كانت له متانة الزجاج الخداعة، متانة لا ترى سريعة العطب سرعة مرعبة لا يفصلها الواحد عن الآخر فحسب، وأنما يطوقها من كل صوب. مكث جورج هناك لا يأتي حركة ولا يجزؤ على ان يتحرك، محاولاً ان يتمالك انفاسه وان يهدئ فورة دمه الشديدة. كان الوقت مساء والشفق الاخضر الشفاف الذي يمتاز به ايار اشبه بالزجاج، بينما كان يشعر في حلقة بالرغبة في التقيؤ، ولكنه كان يكتبها وهو يتلع ريقه، وبين هبتي ريح عنيفتين فكر في نفسه قائلاً: «هذا لاني ركضت كثيراً...» ولكن ربما مرد هذا الى كل كميات الكحول التي جرعتها؟ وفكر ايضاً في انه كان عليه ان يحاول ان يتقيأ، مثلاً فعل قبل قليل ايجليزيا في الحقل. واسترسل في تفكيره قائلاً: «اتقيأ ماذا؟» وحاول ان يتذكر المرة الاخيرة التي تناول فيها الطعام، بلى صحيح، تلك القطعة الصغيرة من سجن اللحم، صباح هذا اليوم في الغابة (ولكن هل كان الوقت صباحاً والافتي كان؟) كانت معدته ملاءى بشمرة العرعر التي كان يخيل اليه بعد ان تناولها انه يحوي جسماً غريباً في بطنه، يتعذر عليه تمثيله غذائياً، وكأنه كتلة صلدة او الاخرى شبه صلدة وثقيلة وكأنها كرة من الزئبق. كان عليه قبل قليل ان يدخل اصابعه في حلقة ويتقيأ، وبهذا كان يجلب الهدوء والراحة لنفسه، عندما كانوا في البيت يرتدون زيهم العسكري، ثم صار وحده (ثقيلاً مرة اخرى صلباً منهوك القوى داخل لحافه الصلب الثقيل المتكون من القماش والجلد) في الغرفة وهو يسائل نفسه دوماً هل سيتقيأ أم لا، وعن المكان الذي مر به ايجليزيا بينما، كان يرى من النافذة الشاحنات الصغيرة من صنف الهندسة تمشي بسرعة هناك منسحبة من ساحة القتال. لم تكن تبدو اكبر من لعب الاطفال. وكانت تتابع بدون انقطاع، وهي تهرب مستعجلة، ثم صار ايجليزيا هناك مجدداً، ولم يستطع ان يقول (لأكثر من الوقت الذي احتق فيه) متى وكيف عاد. انتفض جورج

والتفت فنظر اليه نظره المتعبة - نظرة العين التي لاتصدق ماترى. فقال انجليزيا:
« هذه الافراس الشمطاء المسكينة لابد ان تأكل هي ايضا وجبتها» ولكنه فكر في
نفسه قائلاً: «سبحان الله. ها قد وجد مجالاً آخر يفكر فيه بها وهو شبه سكران او
جثة. مثل صاحبه الاخر صباح هذا اليوم عندما اقتادها الى المسقى. وكأنه...» ثم
كف عن التفكير قبل ان يستنفذ كل ما كان يريد التفكير به، ولم يعد يهتم بجورج
وانما طفق ينظر هو ايضا الى ما كانت تتأمل في العينان المدورتان الصفراوان
الحائرتان اللتان لاتصدقان ماتريان. مكث كلاهما دون حركة لحظة فيما كانت
السيارات المستدقة هناك تمشي من وراء المروج المنحدرة مثل طابور: ثم نزل
كلاهما الدرج بسرعة واجتازا فناء المزرعة المقفرا كضين، ثم سلكا في الاتجاه
المعاكس للطريق التي سارا فيها في الصباح - وجل ما كان بأمكانه ان يرى الان
(وهو متمد على بطنه فوق عشب الحفرة لاهثاً، محاولاً دون جدوى ان يسيطر
على أزيز كور الحداد الهائل الذي كان يفور في صدره) الشريط الافقي الضيق
الذي اصبح، بالنسبة اليه، العالم بأسره يحده من الاعلى مقدم خوذته ومن
الاسفل وريقات العشب المتداخلة في مقر الحفرة التي كانت امام عينيه، وقد
كانت في البدء غير واضحة اكثر لكي لاتعود تصبح فيما بعد، وريقات عشب
ولكن بقعة خضراء في الشفق الاخضر، تتقلص شيئاً فشيئاً، لكي تنتهي في
المكان الذي كان الدرب المكسو بالحجارة يؤدي الى الطريق الرئيسة. كما كان
يرى بلاطات الطريق والجزمتين السوداوين اللامعتين بفضل الصيغ المتقن الذي
حظيتا به، جزمتي جندي الدورية، بطياتها الشبيهة بطيات الاكوردديون عند
منطقة العرقوب. كان محور الجزمتين يشكل رقم (٨). كان يبدو من تحته الحصان
المقتول في الجانب الاخر من الطريق، يختفي بين عجالات الشاحنات المتقدمة فوق
البلاطات. كان دائماً في المكان نفسه، منذ الصباح، ولكنه على ما يبدو أصبح
مسطحاً وكأنه ذاب شيئاً فشيئاً، خلال ساعات النهار، مثل تماثيل الثلج التي مع

ازدياد الذوبان، تبدو وكأنها تغور في الأرض غوراً لا يكاد المرء يشعر به، وكأن قاعدتها قد امتصتها فتشوهت رويدا رويدا، بحيث انه لا يبق في النهاية سوى اهم الكتل والمساند - كمقابض المكناس والعصي - التي كانت بمثابة التسليح.

هنا البطن اصبح ضخماً متنفخاً مترهلاً وهنا العظام، وكأن الوسط البدني قد امتص لنفسه جوهر الهيكل العظمي برمته، العظام برؤوسها المدورة التي باتت تشبه اوتادا غرست غرسا مائلا لتسند كيفما كان، كالخيمة على سبيل المثال، قشرة الطين التي كانت له بمثابة الغلاف: ولكن لم تبق الا اية ذبابة هناك.

وكأني بالذباب تركه وكأنه لم يبق فيه شيء يستفيد منه وكأنه لم يتحول - ولكن جورج اعتقد ان ذلك غير ممكن ان يتحقق في يوم واحد- الى لحم مجفف جيف ولكن الى لحم تغيرت طبيعته، فأسمى والتربة شيئاً واحداً، لانها باتت تنخي تحت خصل شعرها العشبية والورقية عظام الافراس البليدة والثعابين التي رحلت عن هذا العالم (والفرسان الراحلين والحوزية والقادة الكبار الراحلين) فتحولت الى كلس هش او... ولكنه كان قد اخطأ: فقد خرجت من التربة فجأة ذبابة - وهذه المرة كانت من بين الطرفين - ولكنه وان كان على مبعدة خمسة عشر متراً منها فقد رآها (رآها بدون شك، بفضل حدة البصر المقرفة المرهفة التي يتحلى بها السكران) بوضوح تام (مشعرة زرقاء سوداء براقعة وعلى الرغم من ان اذنيه اصمتها جمعجة الشاحنات التي كانت تنطلق بسرعة خارقة فقد سمعها ايضا: بطنينها العالي السريع الهائج) كوضوح رؤوس المسامير في نعال الفرس الاربعة المنبطحة على منكبها على قارعة الطريق. اما الان وبالنسبة الى جورج الذي كان في المقدمة ... فقد تحولت اذن الى كلس هش والى كائنات متحجرة، وهي الحالة التي كان هو ايضا على وشك ان يدخل فيها، من جراء التجمد وهو يشاهد بألم

عينه، ويقف عاجزا امام التحول البطيء للمادة التي كان متكونا منها، ذلك التحول الذي كان يحصل ابتداء من ذراعه المتطورة الذي كان يحس بها وهو يفقد الحياة تدريجيا ليصبح عديم الحس، وقد التهمه بدلا من الدود حشد يتنامى شيئا فشيئا، حشد ربما كان سر الذرات الهايئة وهي تتنقل لكي تنظم وفقا لبنية مختلفة معدنية او بلورية وسط الشفق البلوري الذي كان يفصله عنه دائما غشاء بسمك ورق السكاثر، واذا لم تكن ورقة سيكارة فانها ملامسة الشفق نفسها لبشرته، لان لبشرة النساء في اعتقاده نعومة ومذاقا يجعلان الانسان مترددا في ان يصدق انه يلمسها فعلا، البشرة كلها كأنها ريش الطير او العشب او الاوراق او الهواء الشفاف، هشة كالكريستال. فقد كان يستطيع دائما ان يسمعها تلهث لهاثا بطيئا، هذا ان لم يكن نفسه المتحرك في صدره هو الذي يشبه اللهاث، هذا ان لم يكن قد مات هو ايضا كالفرس وابتلعت الارض حتى نصفه فامتزج لحمه بالطين الطري وامتزجت عظامه بالحجارة لانه ربما كان الامر يتعلق بمجرد انعدام الحركة. وفي هذه الحالة يتحول المرء الى مجرد قطعة طباشير او رمل او وحل. وكان يفكر ان ما كان يجب ان يقوله له كان هذا بالذات، فقد كان يستطيع ان يراه تماما مثلما كان في تلك الساعة بالذات في شبه ظل الكشك عند الشفق، حيث كان العالم يتراءى خلال زجاج النوافذ الملون موحداً مجبولا من مادة واحدة خضراء كالحبازي او زرقاء وفي النهاية متصالحا، اللهم الا اذا كانت هناك احدى امسيات ايار الحارة منعتهم من البقاء داخل الكشك، وعلى اية حال فانه هو وهي كانا مايزالان تحت شجرة البلوط الضخمة حيث تناولوا الشاي، وكانت البلوطة في تلك الفترة مزهرة، وعناقيدها البيضاء الوافرة تشبه الشمعدانات وتبدو فسفورية طي الشفق، فيما كان الظل السميك الذي تتخلله الزرقة يسقط عليها ويفطيمها، مشكلا بذلك طبقة من الصبغ معتمة وموحدة، هي واوراقها الدهرية المنشورة امامه على المنضدة بالقرب من الطبق الذي ازاحه، وكان يعلوه صحن

يمنع نسيم المساء من تزييقها لانه لم يعد الان يميزه دون شك، بين الكتابة الناعمة المسطرة عليها، لذا فقد كان يكتبني او يحاول ان يكتبني بمعرفة ان هذه الحروف وهذه الاشارات هي هنا، شأنه في ذلك شأن الاعمى الذي يعرف ان الجدران في الليل والكرسي والسريير موجودة، هذا مع العلم انه يستطيع ان يلمسها عند الحاجة بغية الثبوت من وجودها، بينما جورج كان يفكر وهو مضطجع في قعر الحفرة مرهف الاذنين جامداً وقد بات عديم الاحساس كلياً مشلولاً بالتشنجات جامداً تماماً كالفرس الهرمة الميتة، ووجهه فوق العشب الكثيف والارض المشعرة، وقد اصبح جسمه كله مسطحاً وكأني به يريد ان يغور في ذلك الجب ويذوب ويتزلزل ويتغلغل بكليته في ذلك الشق من الارض، لكي يندمج مع المادة الهادئة الأصلية. وكان يفكر في الامسيات التي كان يتعشى فيها خارج البيت وفي الأوقات التي كان جوليان يأتي بالمصباح النفطي، وبينما كانوا يهشون المائدة كان ابوه يباشر عمله منزوياً مع وريقاته المطوية الزوايا المشطبة التي قد اصبحت نوعاً ما جزءاً لا يتجزأ من كيانه او عضواً اضافياً لا يفصل عنه كدماغه نفسه او كقلبه او كلحمه الثقيل الهرم - منزوياً داخل تلك الشرقة الوقائية او تلك البيضة او تلك الكرة الدهنية الصفراء المغلقة التي كان ينيرها ضوء المصباح في الحديقة ليلاً وسط طنين البق، كان جورج يفكر اذن في ان النهار او النور لا يأتيان بحقيقة اخرى سوى عودة ظهور الخربشات المشطبة للعزائم، هذه الخربشات التي لا وجود حقيقي لها سوى الوجود الذي ينسب اليها عقل هو ايضاً لا وجود حقيقي له، بقصد ان تدل على اشياء من صنع مخيلته، اشياء ربما هي ايضاً غير موجودة. واجمالا فان افضل من كل هذا كانت هزيمة الطيور واطواق الجواد المتصادمة وثرثرته البلهاء الدائمة التي كانت تتمتع في الأقل بخاصية واحدة هي الوجود، حتى لو كان هذا الوجود يتجسد في الضجة وفي الحركة، هذا اذا سلمنا بان الضجة والحركة ليستا صيغاً باطلة وتافهة لنقيض الوجود:

هذا ما كان يجب ان يعرفه، هذا ما كان يجب عليه ان يستطيع ان يطلبه من الحصان، وربما كان مشكلة من شأن جورج ان يحلها، لو كان على درجة أقل من السكر او من الملل، وربما ان المسألة، في نهاية الأمر، قد تحل تلقائياً بين لحظة واخرى وذلك بواسطة طلق ناري واحد من بندقية وذلك بأن يتمزق جمود المادة الطبيعي خلال لحظة واحدة (على أثر احتراق او تمدد او طرد قذيفة بشدة داخل سبطانة) محولاً اياه، والى الابد، الى ركام بسيط من المادة الحصانية التي لا يميزها عن مادة الفرس البلدية سوى شكلها. هذا في ما لو خطر ببال الخفير الذي كان يروح ويغدو على حافات الدرب بموازة الطريق، ان يتقدم بالعكس تقدماً عمودياً على الطريق بمسافة عشرة أمتار على الدرب. وكان باستطاعة جورج دائماً ان يحاول ان يطلق النار هو الاول. واذا سلمنا بانه ينجح في ذلك بسرعة كافية، وان يقفز بعد ذلك بسرعة كافية، فوق السياج، فانه سيكون له من الوقت متسع ان يتذوق للمرة الاخيرة وفي مرحلة الحياة التافهة والباطلة التي هي الحركة (لكي يقطع بدوره مسافة عشرة او خمسة عشر متراً) قبل ان يعرف مالم يكن الذباب يعرفه بعد، بامكان الذباب ان يعرفه يوماً وما كان سيعرفه الجميع في النهاية يوماً، ولكن مالم يرجع احد من العالمين قط ولا من الجياد ولا من الذباب ليحكيه لمن كان ما يزال يجهله. وعندئذ يكون قد مات الى الابد، ولكن اذا كان الخفير أسرع فلن يكون بامكان جورج حتى ان ينهض بحيث انه يبقى قائماً في المكان نفسه، وما الذي ياترى كان يتغير سوى انه لن يبقى تماماً في الموضع نفسه، ربما كان سيحاول ان يسند بندقية الى كتفه وان يسدد، هذا كل ما في الأمر لان الاول والاخير هو الانتهاء الى امسية أيار الهادئة الفاترة مع شذى عشها المحضوضر ورطوبتها الخفيفة الضاربة الى الزرقة التي كانت قد بدات تسقط على الرياض والبساتين:

كل مافي الأمر، اننا كنا سنسمع صوت عيار ناري او عيارين، مثلما يمكننا

ان نسمعها في ايلول بعد افتتاح موسم الصيد مساء ، عندما ياخذ فلاح او صبي ، بعد ساعات العمل فجأة بندقية ويعقد العزم على ان يقوم بجولة قصيرة من الجهة التي التقط منها الارنب قبل ايام ، وكان الارنب في ذلك اليوم على موعد فاصماه ، مع فارق وحيد هو الا احد يلتقطه لكي يحمله باذنيه وانما يبقى هناك دائماً في المكان نفسه ، لايرحه ابدا عديم الحركة تماماً ، وبشكل نهائي هذه المرة وعلى وجهه ، بدون شك ، مثل واك ، امارات الاستغراب الابله الذي هو من خصائص الاموات ، أي فم مفتوح كخطم البهيمة وعينان مفتوحتان ايضاً تنظران الى الشريط الكوني الضيق ولكن دون ان تراه ، ذلك الشريط الذي كان يمتد امامه ، وذلك الجدار نفسه المبني من الاجر الاحمر القاني القصير السمين التخين مصنوع من مادة خشنة ، كان الفاتح منه مبقعا ببقع داكنة على خلفية ، لونها يشبه لون الصدا ، وكان الداكن منه اشبه بلون الدم المتخثر او الارجوان الضارب الى السمرة ، وحياناً الى لون الخبازي الداكن القريب الى الازرق ، وكأني بالمادة التي كان مصنوعاً منها تحتوي على خبث الحديد او رماد الفحم الحجري ، او كأن النار التي استوى بها كانت قد صلبت شيئاً يشبه اللحم الدامي والمعدني والعنيف المعلق امام دكان القصاب ، مع الفوارق الطفيفة نفسها المتارجحة بين البرتقالي والضارب الى البنفسجي ، او صلبت قلب الارض نفسه ولحمها القوي الارجواني ، هذه الارض التي كان ملتصقاً بها ، ان صح القول ، بطناً لطن . اما المفاصل فقد كانت بلون افتح من الملاط الضارب الى الرصاصي . وكان يستطيع ان يرى فيه محفوظة ذرات الرمل ونبتة برية ذات خضرة رهيبة كانت تدفع كل شيء بصورة غير منتظمة بعكس اساس الجدار (وكأنها تريد ان تخفي خط المفصل او ان تخفي المفصلة المتكونة من الجدار والارض ، والى الامام قليلاً كانت السيقان القوية التي كانت مقدمة خوذته تمنعه من رؤية جزئها العلوي او زهرتها او براعمها : ربما كانت وروداً برية او دوار الشمس الصغير؟) : كان

سمكها بحجم سمك الابهام محززة ومضلعة حزوزاً وضلوعاً طولية ولونها اخضر فاتحاً يكاد يكون ابيض، يكسوها زغب خفيف غير مائل، ولكنه إذ كانت الاوراق السفلية الاولى تنمو عمودياً على الساق، كانت قد ذبلت ويست وتدلت وارتخت كاوراق الخس المقروضة، كانت حافات الاوراق قد اصفرت. اما الاوراق العليا فقد كانت مازال متينة ثرة بعروقها الواضحة المتفرعة كشبكة عروق متطابقة النصفين او كورق الروافد والانهار. وكانت مادة الاوراق الحية لدنه مخملية (تمتد على الاجر الخشن المعدني الدامي) طرية طراوة لا يمكن تصديقها ولا مادية. وكانت وريقات عشب جامدة تقريباً تحركها احياناً رعدة خفيفة، فيما كانت السيقان القوية للشتلات العالية عديمة الحركة تماماً. وكانت الاوراق العريضة تتحرك متكاسلة، بين حين واخر في الهواء الهادي، بينما كانت تتعالى من الطريق وبدون انقطاع ضجة هائلة: لم يكن قصف المدفع، لانه لم يعد يسمع الآن الا عن بعيد متقطعاً، عند نهاية النهار الهادئة الصافية، كالحفقات الاخيرة التقليدية التي تحدث في المعارك كالحركات او التظاهر بالعمل او النشاط المتكلف الذي يؤديه بعض العمال، بتكاسل متظرين ساعة اغلاق الدوائر او المصانع. والحرب نفسها كانت تضطرب اصطخاباً شبيهاً، عن بعد بالقصبة التي يمكن سماعها في محطات القطار، المتكونة من اصداء قرقة السطامات المتصادمة للحديد الذي تلقى هزة قوية، ضجة غريبة معدنية مدمرة: واذا نظرنا اكثر على اليسار لرأينا دغلا كثيفاً طالعاً من المفصل متكوناً من مجموعة من الشتلات البرية او الاخرى تويجاً من الاوراق الموزعة على شكل اكاليل (كنافورة ينبجس من مركزها الماء ليسقط على جوانبها) ممزقة ومسننة ومنتصبة (كأنها اسلحة قديمة او كأنها خطاطيف) خضراء داكنة خشنة. وفضلاً عن ذلك كنت ترى امامك وقد مال قليلاً الى اليمين ساق احدى هذه الغرسات العالية عيناها. كما كنت ترى قائمة باب او رافدتها الخشبية

التي كان يتمحور عليها باب قنّ الدجاج مثبتة بلسان من حديد (وكان يوجد دون شك لسان آخر اعلى قليلا ولكنه لم يكن يستطيع ان يراه) يعلوه الصداً من كل صوب، وقد سمر على الحائط المبني بالاجر، فيما كنت ترى السمّنت حول اللسان الحديدي السميك مكونا طوقا قشدي اللون، كانت تظهر عليه اثار المالح الذي ترك فيه عند صقل الملاط بصمات واضحة وكأنها براعم او حبيبات من المادة المكبوسة، بينما كانت رافدة الباب او قائمتها او قاعدتها قد فقدت لونها الاصلي، بفعل المطر فأصبحت رمادية باهتة، وكأنها رماد سيكارة. فالقاعدة نفسها كانت شبه متداعية. وكان احد الوتدين الخشبيين اللذين بمسكان بالزاوية السفلى قد خرج من مكانه. وبهذا فقد اصبح كل شيء مضطرباً. فالعارضة السفلى كانت تشكل مع القائمة العمودية زاوية غير قائمة، ولكن منفرجة قليلاً حتى باتت تكشف الأرض عندما يهيم احد بفتح الباب، بينما كان العشب الذي يحيط بقدم الرافدة المثبت في الجدار مكونا حوله ادغالا متراسة مكتنزة تقصر تدريجياً، ابتداء من هناك حتى تصبح مجرد صفيحة مخلوقة تماماً منبطحة على الأرض مسطحة وقصيرة، وتنتهي اخيراً فلا تعود ترى سوى الأرض المخططة بمنحنيات متحدة المراكز، تتوافق مع بروزات العارضة السفلى، عندما كانت تدور وتحك الأرض حول القائمة بينما كان مشبك الاسلاك الحديدية المغلونة في حالة لا يحسد عليها هو ايضاً، ولو انه قد استبدل قبل فترة غير طويلة كما يظهر، فترة اقرب البنا من وقت انشاء قنّ الدجاج، والباب لانه لم يكن قد هجم عليه الصداً بعد لكن الاشارة الى ان المسامير الصغيرة الشبيهة بشكل نعال الجياد والتي كانت تثبت على القاعدة كان قد دب فيها الصداً. كان المشبك مسترخياً متموجاً وبشكل سطحا محدودباً، تكون فيه جيب كبير، نتيجة لضربات القدم الضرورية لغلاق الباب عند الجزء الاسفل مما اسفر عن حدوث ترحل وتمدد غير منتظمين في الزردات المسدسة الشكل، واخذ العشب ينبت مجدداً عند اسفل قائمة الباب الثانية التي كانت

القاعدة تأتي لتصلطم بها، كذلك على شكل ادغال متراصة مستمرة على امتداد المشبك الذي كان قد اقيم بعيدا. كان مجال رؤية جورج قد توقف الى هذا الحد. اعني انه توقف على رؤية غير واضحة او على حد غامض يمتد الى يمين رؤيتنا وشمالها، تكون في داخله الاشياء ملموحة اكثر من كونها مرئية على شكل بقع ودوائر غامضة. كان جورج منهوك القوى او سكران فوق الحد مما اعاقه عن الالتفات: لم يجد دجاجا خلف المشبك او ربما نام قبل قليل، بما ان الناس تقول ان الدجاج ينام مع غروب الشمس. وعندما سمع همس ايجليزيا، لم يفهمه لاول وهلة. فاجابه قائلا: ماذا؟ حينئذ لمس ايجليزيا فخذه وقال له: «...الدجاج. اني اراهنك على انهم سيأتون لياخذوه. ولكن الظلام صار دامسا، اليس كذلك؟...» حينئذ شرعا يزحفان القهقري، منتصبي الرأس دائما، بينما كان مجال رؤيتهما ياخذ في الاتساع. واذا بالدار تلوح شيئا فشيئا برمتها، حمراء قانية صغيرة وضخمة في آن واحد. كان قنّ الدجاج عند شمالها. وفوق المكان الذي كانا قد اضطجعا فيه قبل لحظة كانت نافذة يظهر فيها اناء حليب من المينا الزرقاء، كانا يستطيعان ان يشاهداه بشكل اوضح وقت الشفق. كان الاناء موضوعا على حرف النافذة. ولكن النافذة رغم كونها مفتوحة فقد كانت فارغة ميتة سوداء. اما النافذتان الاخريان، في الطابق الاول، فقد كانتا هما ايضا فارغتين دامستين لاهياة فيها. كانا اذن يزحفان القهقري في قعر الحفرة. ثم نهضا عندما بلغا المنعطف وانطلقا مندفعين فوق السياج، حتى صارا في الجهة المقابلة. وقد شعرا بانها مايزالان هناك بدون حركة كامين ينصتان لصوت انفاسها الذي اضطرب مجددا. وخلال فترة اصبحا عاجزين عن رؤية اي شيء، حيث لم يحدث شيء. فعبرا الحديقة الصغيرة محني الظهر، وقفزا سياجا ثانيا اجتازا بعده روضة كبيرة، ثم عادا فاقعيا الواحد على ظهر الاخر، مقابل السياج تماما، كما عاد ففار دمها واضطرب تنفسها ولكن لم تصدر عنها حركة بعد، فيما اخذ الظلام شيئا فشيئا.

ووراء ظهره أستأنف ايجليزيا همسه بصوته المبحوح الغاضب الذي تشوبه مسحة من التذمر الطفولي (ولاحاجة لان يلتفت احد لكي يرى عينيه الكبيرتين الشبيهتين بعيون الاسماك اللتين تغمرهما هما ايضا الدهشة والاكفهار والاباء) فقد كان يقول: «شاحنات صغيرة لصنف لهندسة! الانصدق...» لم يرد عليه جورج ولم يلتفت اليه. لكن همس ايجليزيا المستاء الشاجب الشاكي ارتفع ثانية: تبالك لو تقدمنا أكثر لاصبحنا غنيمة للشاحنة. اين كنت تنظر؟ «لم يرد عليه جورج مرة اخرى وشرع يتراجع على امتداد السياج، دون ان يزيح نظرة لحظة عن زاوية الدار المشيدة بالآجر هناك والمظلمة بين اغصان التفاح الحالكة: لكن الان لم تعد تمر اية شاحنة صغيرة.

وكل ما كان بإمكانه ان يراه هو البقعة الفاتحة التي كانت تكونها الخرقة الوردية المعلقة بالسياج، قرب الحصان، ولكن اي حصان واي حرس، لم يكن يرى اذن سوى البقعة الوردية التي كانت تصدر بريقاً ضعيفاً في شبه الظل. ثم ان الخرقة نفسها تلاشت، لانهما اجتازا سياجا اخر وهما مايزالان يمشيان القهقري. وما انفكا يديران رأسيهما الى جهة الطريق، حتى اصطدم ظهرهما بالسياج وهما يتلمسانه بأيديهما ورأهما. رفعا ساقاً فوق السياج تماماً خلال لحظة فاصبح الجذع مطبقاً عليها، ثم وقعت في الجانب الاخر وذلك بدون ان يتوقفا لحظة عن مراقبة زاوية الدار، فقد كانا رأسا وجسم مشغولين بمشاكل مختلفة، كل يهتم بشؤونه وبشؤون صاحبه أو أن صح التعبير، كانا يتقاسمان المهات. وكانت اعضاء جسميهما تؤدي عفويا، وتحت سيطرتها الذاتية سلسلة الحركات التي لم يكن دماغها يبدو أنه يعيها اهتماما. اطبق الليل الان تماماً.

وفجأة انفجرت القوقاة المتنافرة المدعورة من قنّ الدجاج، وسط معزوفة من صفق الاجنحة والهواء الممزق وقد ملأ الاحتجاج المرعب الذي لايفني فتिला ذلك الشفق لحظة، ذلك الاحتجاج المدعور الحائق، وكأنه تعقيب مشوه لصليل

المعركة: كان مزيج من الشتاء والأيدي والأذرع الحمقاء، وهي تشق الهواء، وسط الكرات الغامضة الصهباء المتصبة المتطايرة تطايراً اهوج والمتصادمة مبسوحة الصوت، الى ان يهدأ القتال رويداً وينتهي عند آخر صراخ مذعور مخنوق جدير بالشفقة تطلقه دجاجة او غيرها. واذا بك لاتسمع شيئاً اللهم سوى صوت هبوط الاجنحة البطي الصامت وهي تعود الى حالة الهدوء داخل القرن فقال ايجليزيا: «حسن. تبا لهم» ولحظة بعد ذلك اضاف وقال: ويحهم. ان الاستعراض الذي مر من تحت انوفنا يعادل في الاقل فرقة بكاملها.

لم اكن لأصدق قط بوجود هذا العدد الهائل! لم اكن لاصدق قط بانهم يستطيعون الذهاب بهذه السرعة اذا حاربوا وهم جلوس على مقاعد. فما الذي كنا نفعله هناك نحن بافراسنا القفداء ياويحهم! لقد كان مظهرنا حسناً... الشهوة هي عبارة عن معاناة كائنين حين لجسم ميت. ف «الجثة» والحالة هذه، هي الزمن الذي يقتله المرء خلال ربح من الزمن ويجعله مساوياً لحاسة اللمس في الجوهر.

مالكوهم دي شازال

كان مايزال يتكلم ويبرطم، ولكنني اسقطت قداحته على الارض. صرنا نتلمس في الظلام فتعثروا على الدرج الخشبي. وطبيعي ان الشيخ ماكان قد رجع، ولم يك للبظ وجود وقتئذ. كان ذلك امراً متوقعاً. كان بدون شك يمضي الوقت في تخمير ثمرة العرعر. الا ان ضوءاً ضعيفاً كان قد بقي داخل الغرفة، هو الضوء الذي يبقى متأخراً بعد الشفق. كنا نستطيع ان نرى خشب السرير يطلق بزيقاً. تعثرت بالاريغة فاسقطتها. فتولد من جراء ذلك صخب هائل داخل البيت الفارغ. بقينا لحظة ننصت، وكأننا سمعناه من الطريق.

ثم عدت اتلمسها في الظلام لكي التقطها فوضعت بندقيتي على الارض وجلست فعرفت انه كان قد نام وكأنه على سرير. وقلت له: تباً لك. ألا يمكنك ان تسحب بالاقل مهاميزك. ثم خيم السكوت المطبق، اعني بذلك أنني لست أتذكر شيئاً. واعتقد اني استسلمت للنعاس ساعتئذ، هناك وكأنني جنة، ربما حتى قبل ان افرغ من الكلام وربما انني لم اصل في كلامي حتى الى كلمة مهاميز. وكل ما فعلت كان مجرد اني فكرت بها لا اكثر، فقد استحوذ علي العدم والوسن الدامس كناقوس اطبق علي فابتلعي، وأنا ما أزال مسترخياً على الاريكة مائلاً الى الامام، فيما كانت يدي تتلمس محاولة حل مهاميزي. وكنت افكر بالذي خطر ببالنا وجعلنا نختذئها، بما اننا تركنا الجياد في الاصطبل. لماذا احتذيناها اذن. كانت شوكات مهاميزها عاطلة، من فرط كتل الدم الحائر المتجمعة عليها، على اثر الهابنا مناكيها بالسياط يوم الاحد عندما قطعنا مسافة خمسة عشر كيلو متراً، ونحن نعدو بدون انقطاع تقريباً، بغية عبور الجسر، قبل تدميره. وقد روى لنا مرة ان احد الاشخاص المسنين الذين كانوا يرتدون بنطالا مخططاً رمادياً، وكانت شواربهم اشبه بجلد الفقمة والازرار الظاهرة من عرى ثيابهم كانت وردية الشكل، كان قد دفع له اجرا مقابل ركوبه. فقلت له ركوب ماذا؟ فقال لي: ركوبه تماماً كالحصان. هل تحتاج الى ان اوضح لك ذلك بالرسم؟ فنظر الي بعينه الكبيرتين وقد استولى عليها الاستغراب، كأنني مغفل امامه او شبه مغفل. وضع ايجليزيا شبكة شعر في خطمه، وسوطه بيده. كان مرتدياً سترة فارس سباق، محتدياً جزمة، وكان دون شك قد ثبت عليها المهاميز. كان الشخص عارياً تماماً، بمشي وكأنه من ذوات الاربع على سجادة غرفته. كان دون اي شك يضربه بالسوط وينشر خطمه ويخلج بطنه بمهاميزه.

وقد روى هذا هو بنفسه، بصوته المتهجم الابدئي التشكك من الفضائح بحيث انه كان من المستحيل ان يعرف احد ان كان متذمراً ومستاء

فعلا: واغلب الاحتمالات انه كان يجد ذلك الامر غير مفهوم. ولكن على اية حال غير مفهوم ليس الى هذا الحد. وربما كان يجده ايضا مقززاً ولكن ليس الى هذا الحد متعوداً شذوذ الاغنياء الذين يظهرون للفقراء والمومسات والقوادات والخدم مجاملة حاملة تتغلب عليها الدهشة اكثر من الالباء ويكونون لهم شيئا من الاحتقار: استحوذ علي هذا، وكأنهم القوا على رأسي بغتة لحافاً يجسني. وفجأة خيم الظلام الدامس. ربما كنت قد فارقت الحياة. ربما كان ذلك الحارس هو الذي اطلق النار اولا، قبلي، لانه اسرع مني. ربما كنت مازال مضطجعا هناك على العشب، في قعر الحفرة، في ذلك الشق من الارض الذي تفوح منه رائحة التربة الحية لاذعة سوداء، تلك التربة التي كانت تلتصق غرضه الوردي ولكنه لم يكن ورديا، لم يكن سوى أسود، في وسط الديجور الكثيف؛ تلتصق وجهي ولكن على اية حال كانت يداي ولساني تلامسها وتشخصها. كانت يداي العميوان المطمئنان تلامسها، في كل مكان، تركضان فوقها وعلى ظهرها وبطنها، بصوت يشبه صوت الحرير، فتلاقيان الدغل المشوش وهو ينبت كغريب وكطفيلي فوق عريها الصقيل.

لم اكن اشبع من اجتيازها، وأنا ازحف تحتها، مستكشفا في الليل لكي اطلع على جسمها الهائل الجالك، وكأنني تحت عترة ارضع الحليب وانا معتر الرجلين عبر حلماتها البرونزية اعني بها التربة العضوية، حتى ادخل في جو خانق من الحرارة والتثانة، وانا ألعق والحق حتى دخلت في حالة السكر، وانا جاثم تحت عمق فخذيها الحريري، كنت اشاهد رديها من فوق يلمعان قليلا، كأن فيهما فوسفورا ضاربا الى الزرقة، في ظلام الليل بينما كنت ارشف ولاارتوي وانا احسّ بالوتد او بالشجرة وهي تعلو وتتفرغ جذورها في داخل احشائي فيما كانت كليتيان تحصرانني، وكأنهما لبلاب وخاز، تتحركان على امتداد ظهري تغطيان رقبي وكأنهما يد سحرية. كان يخيل اني اصقر، كلما كان الودد يكبر ويستمد

حجمه مني لكي نصبح انا وهو واحدا او ان يصبح هو وانا واحدا. ولم يبق من جسمي سوى جنين مجمد متكش صغير راقد بين شفطي الحفرة، وكأنني اذوب في داخلها واغور، وانا معلق كواحد من اقزام القردة في اسفل بطن امه، يبطنها واثداؤها المتعددة لكي انطمر داخل تلك الرطوبة الضاربة. فقلت: لا تشعل النور وتلقفت ذراعه بسرعة. كانت في مذاقها تشبه الحار المالح. لم اكن اود ان اعرف وأفهم شيئا اخر سوى ان ألعق...

فقلت لي: ولكنك لا تحبني بالحقيقة

فأجبته: معاذ الله

فقلت: لا تحبني انا... لست انا تلك التي ت...

فأجبته: يا ربي يا الهي، مدة خمسة سنوات ومنذ خمس سنوات

فقلت: ولكنك لا تحبني انا. هل تحبني على علاقي. هل كنت تحبني بدون ان...

اريد ان اقول لو...

فأجبته: اسمعني، لا اريد سماع مثل هذا الكلام منك. وماضير ذلك، دعيني

أ... وماضير ذلك وما معناه. دعيني. اني اريد ان أ...

قال رب رطب كان يخرج منه الجنود المشاة والخيالة الذين كنت ادفعهم ان كنت اضغط بابهامي على الطين، وكانوا يخرجون من صندوق البذور اي القيشارة وهو اشبه بطبقة مدججة بالسلاح، يحترقونها وينتشرون حول العالم. كانوا يحملون شارة معدنية على هيئة هلال، تتدلى على نحورهم، بواسطة سلسلة تلمع كالفضة من خيوط وقيطانات من فضة. كان منظرهم جنازيا قاتلا. واني لا تذكر ذلك المرج الذي وضعونا فيه او الاخرى ميزونا به او الاخرى خزنونا هناك. كنا منبطحين في صفوف متعاقبة ورؤوسنا تلامس اقدامنا، مثل جنود الرصاص المصفوفين داخل علبه كارتون. ولكننا عندما وصلناها اي الارض كانت مائتال عذراء

بكرا. في ذلك الوقت ارتحمت عليها وانا اتصور جوعا. وجعلت افكر في نفسي
واقول : الحصن تقنات منها. فلم لا اقتات انا ايضا. كنت احاول ان اتصور واقنع
نفسي بانني انا ايضا حصان. كنت منبطحا كالميت في قعر الحفرة يلتمحي النمل.
كان جسمي كله يتغير تغيراً بطيئاً، نتيجة لعدد هائل من التحولات الصغيرة،
ليصبح مادة لاحس فيها. وفي هذه الحالة كان العشب اذن، يقتات مني وكان
لحمي يغذي الارض ويسمنها، وفي النتيجة فان التغير الذي حصل لا يكاد
يذكر، وهو انني قد انتقل الى الجهة الاخرى من سطحها مثلما يجتاز المرء الى الجهة
الاخرى من المرأة، حيث قد تواصل الاشياء مسيرتها مواصلة متطابقة، اعني انها
اي الارض هناك من فوق تواصل نغوها لامبالية دائماً خضراء كما يقال عن الشعر
انه يستمر في النمو على جماجم الموتى، مع فارق واحد هو أنني سأكل الهندباء البرية
من جذورها، ملتجئاً المكان الذي تنضج وتغرق فيه، واجسامنا كاللألى نغرز
رائحة الجذور اللاذعة القوية، رائحة اليبروج. قرأت يوماً ان للغرق والنسك يقتاتون من
الجذور ومن البلوط، وفي احد الاوقات تناولته أولاً بين شفيتها، ثم اصبح بكليته
في فمها كطفل شره: فكأننا كان الواحد منا يشرب صاحبه ويرتوي منه، يلقم كل
منا نفسه للآخر فنشبع جوعنا، آملاً تهدئة جوعي والتهوين عليه قليلاً. كنت
احاول ان الوكها فانتابني فكرة وقلت في سري: انها تشبه السلاطة. فالعصير
الاخضر الحريف كان يولي اسناني خشونة. وان ورقة عشب حادة جرحت لساني
وكأنها موسى احرقني. وفي وقت لاحق، علمني احدهم كيف اميز بين العشب
الصالح للاكل مثلاً كالراوند وهو نبتة قصيرة ضخمة الاوراق حامضة الطعم:
كانوا قد استعادوا على الفور غريزتهم البدوية البدائية وتحلقوا لتحضير نار يضعون
فوقها كلباً يشوونه. كانوا قد سرقوا ذلك الكلب. مازلت اسأل نفسي ممن سرقوه،
سرقوه بدون شك من احد الحمقى من هؤلاء الضباط او نواب الضباط المتربصين
داخل مقرات الاركان، كأولئك الذي نشاهد

بيننا، بزيمه الاينق الذي لاغبار عليه، متصورين انفسهم في مأمن من كل قصف. كان قد جمعهم ذات صباح شخص فتح الباب بركلة رجله، واجبرهم ساخراً منهم بصلية من رشاشة على الاصطفاف في الساحة وقد رفعوا اذرعهم فوق رؤوسهم مصدوعين لايفهمون شيئاً لما كان قد اصابهم. يقال ان قادة وأركاناً قد اقتيدوا بهذه الطريقة، اركاناً تلمع وجوههم وقد ارتدوا أبهى حللهم. لم نكن نمالك انفسنا من تعنيفهم. كانت سحتهم بلون دقيق الفحم او زيتونية، تكتنفهم الالغاز ويسيطر عليهم الاحتقار، باسنانهم البراقة الشبيهة بانياب الذئاب. كانت أحرف الحلق تغلب على اسمائهم التي تجمع بين احمد بن عبد الله او ابو عبده او عبد الرحمن.

كان كلامهم مباغثاً يصدر عن اعماق الحلق. اما اجسامهم فقد كانت صقيلة مرداء كاجسام البنات. كانت هناك ايضا الهندباء البرية. ولكنهم كانوا يستقدمون اعشاباً أخرى، وكأئهم قطعان كاملة منهوكة القوى مختلفة الهندام، بعضهم يعتمر خوذاً مدنية، وعليهم معاطف عسكرية مفكوكة العرى تضربهم عند الزبيلة. وبعد قليل كان المرج قد ديس باكملة تغطيه صفوف الاجسام الممددة تلامس الرؤوس فيها الاقدام. وعندما كان ألفجر رمادياً، كان العشب هو ايضاً رمادياً يغطيه الندى الذي كنت ارشفه حتى يحف العشب، وكأنه البرتقال الذي عندما كنت طفلاً كنت اعشق ان احدث فيه ثقباً رغم ممانعة اهلي، وان اعصره واعصره شارباً مافي بطنه، فيما كانت حلقات أئدائها تفر من بين اصابعي كقطرات الماء، فارتجت قطرة بلورية وردية على وريقة عشب مائلة تحت النسيم الليل المرتعش الذي يسبق شروق الشمس والذي يحتوى ويعكس في شفافيته السماء المصطبغة بلون الفجر. اذكر صباح احد ايام تلك الفترة التي لم يكن فيها الربيع ولا السماء قط انقى واصفى. وفي اواخر الليالي الباردة كنا نتراحم ونتقارب آمليين الاحتفاظ بقليل من الحرارة، وقد تداخلنا الواحد بصاحبه وكأننا ديك البندقية.

واعتقد اني امسكها على النحو التالي. كان فخذاي تحت فخذيها، وكان شعر
حضنها الحريري الوحشي يلاصق بطني. كنت احصر حليب ثدييها في راحة يدي،
وقد كانت خلمتاها الورديتان الرطبتان اللامعتان (وعندما ازحت في اصبح لون
الحلمة ورديا اعمق واقرى وكأنه اصيب بالتهاب وهيجان او كانه من مادة محببة
مهانة. وكان قد بقي خيط لامع يربطها بشفتي. واني اتذكر خيطاً رقيقاً جداً فوق
وريقة عشب كان قد ترك وراءه حزمة ضوئية ومعدنية كالفضة كان من النعومة
بحيث انه كان ينوء تحت ثقل الحازون وصدفته الناعمة الحلزونية، كل حلقة من
الحلزون كانت مخططة بخطوط سمراء. كانت رقبها ايضا مصنوعة من نسيج محب
هش غصروفي في آن واحد، يتمطط ويتنصب كما تنتصب قرونها القابلة
للانكماش. هي التي لم ترضع احداً ولم ترو احداً ولم يشر بها احد سوى شفاه البشر
الخشنة.

وفي المركز كان يوجد، وكان بإمكان المرء ان يتصوره، صدع صغير افقي
الصقت اطرافه، كان يسيل ويتدفق منه حليب النسيان) تنتصبان وتنطبقان
كبقعتين، كرووس المسامير الداخلة في راحة يدي. وفكرت حينئذ انهم احصوا
كل عظامي، وكانوا يستطيعون على ما يبدو ان يسمعوها هيكل العظمي بأكمله
يصطك في داخله. كنا نرقب قدوم السحر البارد، نقشعر دون انقطاع، منتظرين
ساعة وضوح النهار لكي نستحق النهوض. اذ ذاك عبرت بخطوة جبارة وبجذر كل
الاجسام المتشابكة التي كانت اشبه بالجثث حتى وصلت الى الممر المركزي، حيث
كان الحرس يغدون ويروحون، وقد تقلدوا قلادات معدنية مثل الكلاب: حينئذ
وقفت وكنت مازال ارتجف، خلال فترة، وارتعش واحاول ان اتذكر ماشأنا
هذا الحفل الذي كانوا متمددين كلهم فيه على الارض صفوفاً صفوفاً ورؤوسهم
تلامس اقدامهم فوق البلاطات الباردة للكاتدرائية. وحسب ظني انه كان حفل
رسامة كهنوتية او حفل ارتداء الثوب الرهباني بالنسبة للفتيات الشابات

المتمددات على الارض، بين فضاء المقاعد المركزي داخل الكنيسة، حيث مر وسط غمامة البخور، الاسقف الذي كان يشبه مومياء مخفية مكسوة بالذهب والدنتلا، يحرك يده اللابسة قفازا من قطيفة، حركة خفيفة وباصبعه خاتم، يرتل بصوت مخنوق لا يكاد يسمعه احد ترتيلة لاتينية يقول فيها انهم قد ماتوا من هذا العالم ويبدو انهم يضعون بعد ذلك ستاراً فوقهم. كان السحر رمادياً من كل صوب، ويمتد على المرج. وفي الاسفل كان قليل من الضباب راكدا فوق الساقية. ولكنهم لم يكونوا يسمعون لنا بالنهوض الابدع شروق الشمس. وقبل الشروق كنا هناك نرتجف ونقشع بـكل اعضاء جسمنا المتداخلة المتشابكة. تدرجت فوقها وسحقها بثقلي. ولكنني كنت ارتجف ارتجافا المحموم اتلمس الظلمة بحثا عن لحمها. كما كنت اسمع خلال جسمها صوتاً مذكوراً شاكياً تائها. فقلت لها: «هل احبك انا؟» صدمتها فاصطدم صوتي بملحقها المختق ولكنها تمكنت ان ترد علي قائلة: «كلا» ثم عدت فقلت لها: «الاتصدقين اني احبك؟» صدمتها مرة اخرى فاخترقت وانقطع نفسها لحظة وباتت غير قادرة على الكلام ولكنها استطاعت ان تقول لي ثانية:

«كلا»

فاجبتها: الاتصدقين اني احبك. أأنت حقاً لاتصدقين اني احبك. والان هل احبك ام لا.

قولي لي هل احبك؟ فجعلت اصدمها صدمة اقوى، مرة بعد مرة دون منحها فرصة للجواب.

لم يعد حلقها وعنقها يطلقان سوى صوت غير واضح. ولكن رأسها كان يدور حائفا ذات اليمين وذات الشمال، على الوسادة، وسط بقعة شعرها الداكنة. وكانت تقول: كلا ثم كلا، كلا ثم كلا. كانوا قد حبسوا مجنوننا في مدجن للخنازير عند اعلى المرجة، كان من افراد حاميتهم فيما مضى اصابه الجنون

على اثر القصف. كان احيانا يستسلم لصراخ الى مالا نهاية له وبدون هدف على مايدو، صراخ هادئ لم يكن يتعالى او يضيح ولا يضرب الباب. كل ماكان يفعله هو انه يصرخ. وكنت احيانا استيقظ ليلا، واذ كنت انصت له كنت اقول: ماهذا؟

فكان يرد علي قائلا: «انه المجنون» كان عابسا متجها دائما وقد تفوق محاولا ايلاج رأسه تحت معطفه. كنت استطيع ان اراهم وارى ظلالهم السوداء تغدو وتروح بصمت في الممر المركزي وقد غارت رقابهم بمعاطفهم العسكرية مع قلائدhem المعدنية الشبيهة بقلائد الكلاب وهي تلمع احيانا تحت ضوء القمر، وبنادقهم تحت حمالات بناطيلهم، يصفقون بايديهم هم ايضا لكي يستدثنوا كما يفعل الخوذي وهو يقود عربته وقد بلغني صوته من تحت معطفه، مخنوقا وهو يقول: لو كنت في مكانهم لضربته مرة باخمص بندقيتي على وجهه واوقفته عند حده ليكف عن ازعاجنا. لقد انهكه الحوار بهذه الطريقة المستمرة طول الليل. يعوي بدون انقطاع وبدون هدف في وسط الدياجير. يعوي، ثم توقفت هي بغته! فانفك عناقنا وانبطحنا وكأننا انتقلنا الى عالم الاموات محاولين عبثا ان نسترجع انفاسنا. وكان قلبنا يحاول الخروج من صدرنا، مع الهواء عن طريق فمنا. واخيرا مت وماتت وقد اصمتنا ضجيج دمنا الدافق المنحسر وهو يدم داخل اعضاءنا يتهافت عبر التفرعات المعقدة لشراييننا كالموج العالي عند مصب النهر في البحر. واعتقد ان كل الانهار شرعت تجري في اتجاهها المعاكس صاعدة الى منابعها. وكأننا قد افرغنا كليا لحظة وكأن حياتنا باسرها تهاوت كهدير شلال متجه الى بطننا وخارج منها. في محاولة للافلات والتملص مني ومن وحدتي، متحررا منطلقا الى الخارج منسكبا متدفقا، بدون حد، ينغمر كل منا في الاخر. كأن لم تبق هناك نهاية، كان لم تبق نهاية الى الابد- ولكن هذا ليس صحيحا: لحظة فقط، لاننا اذ كنا ثملين حسبنا ان التدفق دائمى ولكن في المواقع استمر لحظة واحدة، كما

يحدث في حلمك عندما تعتقد ان امورا كثيرة تحدث ولكنتك عندما تفتح عينيك تجد ان عقرب الساعة لم يتحرك من مكانه - ثم انحسر ذلك وتهافت في الاتجاه المعاكس ، كما يحدث للمرء بعد ان يتعرض بجدار او بعائق يستحيل اجتيازه ، ولكن جزءا صغيرا من المرء يتمكن من تجاوزه ان صح القول ، عن طريق الخداع اي بمخادعة العائق الذي كان يمنع ذلك الجزء من الافلات والتحرر ، وبمخادعة انفسنا في آن واحد. حينئذ اخذ شيء ساخط مكبوت يعوي في وسط وحشتنا المكبوتة، شيء محبوس مرة اخرى بصطدم عاصفا بالجدران والحدود الضيقة التي لا يمكن تجاوزها، عاصفا، ثم عاد رويدا رويدا الى الهدوء. وان هي اللحظة حتى اوقدت النور، فاغمضت عيني وعصرتها بقوة. كان كل شيء بلوطي اللون احمر. وفيما كانتا مغمضتين سمعت خرير الماء الفضي يجري ويكتسح ويذيب... كنت اسمعه، لجيني اللون منجمدا اسود في وسط الليل فوق «بيتونة» مستودع الحصيد وهو يصب في القنوات وكأن الطبيعة والاشجار والارض كلها جمعاء كانت تذوب في الظلام، غريقة مائعة سائلة وقد جرفها ذلك الطوفان البطي. حينئذ عقدت العزم على ان امضي انا ايضا وان الحق بهم عند الاعرج الذي كان قد دعانا لقضاء الامسية عوضا عن ان اصعد واستلقي على الشوفان البلوطي اللون او ان اعود فاشرب شيئا في المقهى. لم يتوقف واك عن السهر ليلا لحظة واحدة. لم يكن هو خفير الاصطبل في ذلك المساء. ولكنه مع ذلك كان قد مكث هناك: نظر الي وانا امر، دون ان ينبس ببنت شفه، كما راني وقد خرجت تحت المطر الاسود. ولم اتوصل الى رؤيتها في تلك الليلة مثلا لم اتمكن في ساعات النهار. وجدتهم وقد استقر بهم المقام. كانوا ثلاثة مع الاعرج حول المنضدة. كان انجليزيا يناقش واحدا منهم « بصوت خافت ، هو الخادم الذي كان جالسا الى جانب الموقد: اما هي فلم تكن هناك. كنت ابحث عنها بنظري وانا واقف على اسكفة الدار. ولكنها لم تكن هناك. واخيرا سألت ان كان ذلك مجلس سوفيت الجنود او

الفلاحين، ولكنهم اداروا اليّ انظارهم الحذرة الشاحبة. فقلت لهم الايكلفوا انفسهم. كما قلت لهم انني لم اتمكن من ان اتكلم ان العب لعبة سوى المشاركة في معركة. ورحت اجلس بجانب الموقد: كانت فوقه دلة كبيرة من الحديد المطلي بالمينا. والمنضدة التي كانوا جالسين حولها كان يغطيها نسيج مشمع اصفر تزينه رسوم حمراء تمثل النخلات والمآذن والفرسان مع أمتعتهم ونساء عند النبع يملآن او يحملن على اكتافهن جرارا طويلة. وكلما كان احد اللاعبين يصفق ورقة لعب، كان يمسك بها في اول الامر مشهرة في الهواء لحظة او لحظتين، ثم يطبق بها بحركة ظافرة او ساخطة؟ على المنضدة التي كان يصدمها يجمع كفه صدمة قوية ثم رأيتها: لم ارها هي، تلك البيضاء التي ظهرت في ضوء الاصطبل الخافت ظهورها العذب الفاتر عند الصباح، وانما رأيت، ان صح التعبير، نقيضتها او عديمها او فسادها، فساد مفهوم المرأة نفسه، مفهوم الرقة والشهوة او عقوبتها: امرأة عجوز تشبه الجددي بوجهها ولحيها، يهتر رأسها في رجفة مستمرة. التفتت نحوي عندما جلست بالقرب منها على المقعد خلف الموقد. كانت عيناها الشبيهتان بخوختين شائكتين زرقاوين ضاربتين الى الشحوب والبياض وكأنهما انتقلتا الى الحالة السائلة. نظرت اليّ ورصدتني لحظة دون ان تتوقف عن اللوك والمضغ وذقنها الضارب الى الرمادي يعلو ويتزل. ثم انحنت عليّ وتقربت الى وجهي حتى لامسته وجلدة وجهها الصفراء المقددة (وكأنني في ذلك المطبخ الفلاحي ضحية لعملية سحرية- وفي الواقع كان هناك شيء من هذا القبيل، في ذلك البلد الضائع المنقطع عن العالم، بأوديته العميقة التي لم يكن ينبعث منها سوى رنين اجراس ضعيف عبر تلك المروج الاسفنجية وتلك المنحدرات المشجرة التي اكتسبت لون الصدا في الخريف. كان هذا ماجرى: كأن المنطقة كلها انحجست داخل جو من الفنور والسحر، واغرورقت تحت غار المطر الصامت، فاخذت تكتسي بالصدأ وتكشط نفسها بنفسها وتقرض متفسخة رويدا رويدا، تحت رائحة التربة

العضوية والاوراق الماتمة المتراكمة المتكومة التي دب فيها التفسخ البطي. وانا
الفارس والظافر الذي يحتذي جزمة، الذي جاء يبحث في اعماق الليل وفي اعماق
الزمن، ويفغوي ويخطف اميرة الزنبق التي حلمت بها منذ سنين وفي اللحظة التي
ظننت اني ادركتها وحملتها على ذراعي احصرها بها واعانقها، اذا بي وجها لوجه
امام عجوز شمطاء مخيفة كانها من رسوم غويا...

قلت: اجل، لقد عرفتها. اجل بلحيثها!

ثم توقف احدهم عن الكلام مع الخادم فنظر الي بطرفه من فوق الموقد. وقال
لي:

هل نلت اعجاب احداهن؟

فاجبته: ذلكم هو غرضي من قدومي الى هنا.

فقال لي: لكنها ربما لم تكن تماما في سنك.

فاجبته: الفرق بيننا كان مائتي سنة تقريبا. ولكن ذلك لا يهم كثيرا.

ماذا رأيت اينها الجدة العزيزة؟

انحنت علي اكثر ثم اقلت نظرة خاطفة صوب الاعرج بينما كان اللاعبون

منشغلين باستمرار في رمي اوراقهم، محدثين صوتا صاخبا على المنضدة ثم قالت:

يسوع. يسوع. المسيح. ولكنه ذكي.

كنت انظر اليه من فوق الموقد. غمزني مرة اخرى. قلت له: اصدق ذلك

قليبا. انه اذكى الجميع. اين هو؟

-في الطرقات.

-صحيح؟ كيف ذلك؟

-قالت: بلحيته وبعصا يحملها.

-قلت: رأيت انا ايضا.

-انه يحمل عصاه ولا يلقيا البتة وقد اراد ان يقاقلني.

فصرخ الاعرج وهو يلتفت وقال : ما اشد حماقتك واسفائك . اما كفاك من سرد سخافاتك للناس .

او ليس الافضل لك ان تركني الى النوم ؟

فقالت الحيزبون : تبا لك . فقهقه الجنود الثلاثة الجالسون حول المنضدة . تسمرت العجوز ، هنيهة ، خرساء في مكانها ، ترصد الاعرج ، وهي تنتظر ان يتناول اوراقه ، متفوقة متربصة على مقعدها ، فيما كانت عيناها الصغيرتان العديمتا اللون يحيط بهما اطار وردي لامع لمعانا خبيثا بغیضا . وقالت : يالك من زوج مخدوع : كانت تتكلم بدون انقطاع بين اسنانها وتهمهم قائلة : انهم خبيثاء .

أنا وحيدة ، وهي ما تزال تردد . ياله من زوج مخدوع مخدوع ! ولكنهم كانوا قد استأنفوا اللعب . ثم ألقت علي نظرة انتصار وانحنت ثانية علي وقالت : لقد طرده وهو بينديقته ، واخذها منه . ولكنه مع ذلك يبقى زوجا خدعته امرأته . حدثته مرة اخرى فوق الكانون فغمزني هو ايضا مرة اخرى . ثم قالت وهي تضحك ضحكة خفيفة : « . بإمكانه ان يحتجزه داخل غرفته . ثم انحنت اكثر ودفعتني بمرقعها ، فيما كانت عيناها الصغيرتان ، وكأنها اعين الموتى بلونها الضارب الى الصفرة ، تضحكان ضحكاً صامتاً وقالت : « ولكن لا يوجد مفتاح واحد فحسب » .

-ماذا؟

-لا يوجد مفتاح واحد فقط .

فصرخ الاعرج في وجهها قائلاً : ما الذي تقصينه علينا بعد . هلا ذهبت الى مرقدك . ا فرفضت وتنحت مسرعة ، فاصطدمت بنهاية المقعد المقابل ، ولكن بدون ان تكف عن الغمز واللمز تجاهي ، تحرك حاجبها الى الاعلى ، فيما كان فيها الاخرس يصوغ اشكال الكلمات وهي تقول بصوت خافت :
باللخبثاء ! يا للخبثاء ! وهي تلوي وجهها المقيت الشبيه بوجه العترة... بعد

ذلك التوى السرير ثانية تحت ثقلها. كانت عيناى مائزالتان مغمضتين، وانا احاول ان احتجز واحفظ ذلك الكلام الذي لا يحصره حد، تحت جفني. كان يتراوح بين البلوطى والضارب الى الحمرة، ثم يصبح ارجوانياً فاسود ضارباً الى البنفسجى. وكانت تتكون وتشوه رقع على الجلد بلون الرخام، وبقع غامضة تمر ببطء وكأنها شمس شاحبة تتقد وتنطفئ مسرة. كنت اعرف انها كانت قد تركت المصباح مشتعلا، وانها كانت تحدجني وتفحصني تفحصاً حاداً ثاقباً. اقحمت خدي وجيبي تحت ابطها، فتمكنت من سماع الهواء يتغلغل فيها بعد انكاشها، عند كل شهيق، ثم يخرج منها، وقلها مايزال يخفق ثم يتباطأ شيئاً فشيئاً. واذا كانت عيناى مائزالتان مغمضتين، انسالت نحوها اجانب منكبا، وكان بطنها يرتفع وينخفض وينبض تماماً كأنه حوصلة طائر (كان الطاووس يرتج بكل كيانه مع الستار. وكانت رقبته تنتفخ وتنكش، يعلوها رأسه الازرق الصغير الذي كانت تزينه مروحة من الريش، وكان الستار يتأيل بعد ان اسدلته يرتج، وكأنه مادة حية مثل الحياة التي كانت محتجة وراءه. رفعت رأسي مدة لاتجاوز جزئياً من الثانية. فرأيت او لم أرى وقت متأخر او مجرد اني ظننت اني كنت ارى نصف الوجه واليد اللذين انسحبا واذا به ينسدل. لم يبق يتأيل بعد ذلك سوى ذيل الطائر الذي انقطعت عنه الحركة هو ايضاً. وفي الغد ايضاً لم تتمكن من رؤيته.

كان الحصان قد مات في الليل فدفناه عند الصباح في احدى زوايا الحديقة التي كانت اشجارها ذات الاغصان السوداء اللامعة تحت المطر وقد تجردت تقريباً من كل اوراقها، تنقطر ماء في الهواء الرطب: حملنا جسم الحصان على عجلة نقل صغيرة ثم دحرجناه في الحفرة. وفيها كانت غرفات التراب تطمره شيئاً فشيئاً، كنت انظر اليه، وقد برزت عظامه تحت جلده مثيرة للاسى، وقد اصبح سرعوفة حشرة اكثر من اي وقت مضى، بقائمتيه الاماميتين الملويتين، ورأسه

الهائل المتألم المستسلم الذي كان يتوارى شيئاً فشيئاً، رأسه الذي كان ينقل تحت
 المرتفع الترابي المكفهر الذي كان يعلو ببطء، على أثر الردم، تكشيرة اسنانه
 الطويلة المرة وكأنه يسخر منا، بعد موته مثل نبي تغنيه معرفة وخبرة لم تكن
 نمتلكها، والسر الخيب للآمال الذي هو اليقين وغياب كل سروكل غموض. ثم
 شرع المطر يتساقط وعندما بلغنا الامر التحرك، اخذ ينهر ليفصلنا عن المنحدر
 المقابل للوادي، بحجابه الرمادي المعتم تقريباً. بينما كنا نحن جالسين في مستودع
 الحصيد، بكامل تجهيزاتنا وجيادنا مسرجة تنتظر اشارة التجمع، ونحن ننظر في
 اطار الباب الستار والمشط الفضي الذي كان ينزل من السطح ليحفر ثلماً خفيفاً
 على الارض موازياً لعتبة الدار. وقليلاً الى الامام، عند الخط الموازي الشاقول
 السقف، حيث كانت الحصى تظهر جرداء مغسولة حافية، كان الهواء الرطب
 الجامد يتغلغل، وكان بخار ضارب الى الزرقة يتحرر من افواهها عندما كنا نتكلم.
 وعلى الستار، كان الطاووس قائماً دوماً بلا حراك مخفوقاً بالاحاجي. كنا نرفع
 عيوننا احيانا خلسة نحوه ونحن نتكلم. كان وجه بلوم الباهت يشبه حبة اسبيرين،
 باستثناء شعره الاسود والبقعتين اللتين كانت تكونهما عيناه السوداوان المحمومتان.
 كان يحمل خوذته بيده. كان رأسه ورقبته النحيفة يبرزان بروزاً غريباً من ياقة
 معطفه ومن التجهيز الحربي الذي كان يتكون من شرشف مقوي ومن جلد ومن
 سيور ذلك التجهيز الذي كان متخفياً فيه هزيباً هشاً وكأنه داخل قوقعة.
 قال واك: لن نغادر هذا المكان. ها قد مضت على انتظارنا ساعة. اراهن
 على اننا لن نغادر. سوف يضطروننا على البقاء، طول النهار على هذا الحال. وعند
 منتصف الليل سوف يأتون ليقولوا لنا حلو السروج واذهبوا الى النوم.
 فقال له بلوم: لاتشرع في البكاء!
 فأجابه واك: انا لست ابكي ولا انتظر بالذكاء. هذا كل ما في الامر. اني...
 فقلت: والله لادفع ثمننا غالياً بغية الحصول على هذا المفتاح.

فقال واك: اي مفتاح؟

كان الطاووس مايزال بلا حركة.

فأجاب ايجليزيا: مفتاح الحقول. كنا ننظر بدون انقطاع خلال امشاط المطر، ذلك البيت الصامت والنوافذ المغلقة والباب الموصود والواجهة الشبيهة بوجه لاينفذ فيه شيء. وبين حين وآخر كانت تنفصل ورقة من الجوزة الضخمة لكي تأتي وتهوي على الارض قارب لونها السواد وقد عاث فيها الفساد والبلى. فقال بلوم: اني أراهنك على ان هذا الشخص هو مساعد ال...
فأجاب واك: هذا ليس صحيحاً. لانها قد طردته وامتشقت البندقية عندما دخل غرفتها.

قال بلوم: ياللعجب! لانه دخل غرفتها؟

فرد عليه واك: لاعلم لي بذلك. لِمَ لا تذهب وتسأله انت.

فقال ايجليزيا: هو ايضا لا يعرف من الامر شيئاً. اذن عم تتحدث؟
فرد عليه واك: عن لا شيء.

قال ايجليزيا: صادق واك خادمهم الشخص الذي كان يشبه الدب.
فأجاب بلوم: يمكن التفاهم بين الدببة.

فقال واك: اني ازعجك.

فأجبت: هيا لاتسخط. لقد ساعدته انت على ادخال بطايطه وساعدك هو في معرفة ماذا كان يجري. إحك لنا ذلك.

فرد عليه واك: لم يساعدني قط. في قتل حصان.

فقال ايجليزيا: طيب. لم تكن انت الشخص الملزم بركوبه.

فرد عليه واك: ولست ايضا انا الذي قتلته.

فقلت له: ويل لك!

فقال بلوم: اتركه اذا كان يطيب نفسا بذلك. فالتفت اليه وقال له: اذن هو

مساعد ال...؟

وقال واك: ولم لا تروح انت وتسأله بنفسك.

اذن كان هو؟

فقلت: انه سيق قديم للعائلة. انه خير صديق للعائلة. فهو يحبهم كثيرا وقد احبهم دوما كثيرا.

وقال بلوم: ولكنها طردته بعد اطلاق النار عليه.

فاجبت: انها عائلة صيادين.

وقال بلوم: هذا مايرويه الدب وليس ماتحكيه العجوز.

فرد واك: يالها من عجوز شمطاء مجنونة!

فقلت: لعلها تلبس بينها. لعلها تعتقد بانه مايزال الآخر.

قال بلوم: ومن هو هذا الآخر؟

فاجابه: كنت اتصور انك تعرف كل شيء.

وقال انجليزيا: هل كان هناك شخص اخر؟

كانت امشاط الماء تتساقط بدون انقطاع، وكأن اسنانها اسلاك من فضة او كخيوط معدنية متوزابة تقف حاجزا في وجه مستودع الحصيد. وكانت احدى السواقي تصب ماءها، محدثة صوتا كهدير شلال بعيد:

فقلت: هذا هو اذن سبب امتشاقة بندقيته. انه تناولها لكي يمنعه من الدخول الى البيت.

فقال واك: بما انك تقول ان لديه مفتاح آخر.

ولكن في وضع النهار وعلى مرأى ومسمع الجميع، وبدون جداول وبجدة اقتياد الرقباء الى الغرف لكي يروها، دخل وكأنه السيد المطاع. هذا يعني انك لاتفهم من الامور شيئا اطلاقا. اليس كذلك؟

فقال بلوم: انه رجل يحب الانعزال في بيته ويريد ان يدخل كل شيء في كل

مكان.

قال واك: لافهم شيئا مما نحكون. انتم تتصورون انفسكم اذكياء. وانا اقول لكم انكم تظنون...

فقلت: يبق ان على الاخر ان يسهر على عائلته.

—من؟

—الأعرج. لانها مسألة شرف.

فقال بلوم: اجل. لم اكن اعرف ان الشرف في عرفهم مفروق فلفتين يحيط بهما الشعر.

فرد عليه واك: ماأسخفك!

هذه هي الكلمة التي كنت ابحث عنها. كانت على رأس لساني ولكني لم اكن اجدتها ان سكان الريف هؤلاء لا ينم مظهرهم عن شيء.

كانت شبكة من السواقي تجري على رمل الدرب الاشقر، فيما كانت حافة المنحدر تفتت رويدا رويدا وتتشرب وتهاون على شكل قطع صغيرة متعاقبة، كانت تقف لحظة كسد في احد فروع الشبكة ثم كانت تتوارى امام ضغط الماء وقوته. كان العالم كله بأسره يمضي يصاحبه خرير من ماء النبع ومن القطرات المتلاحقة على الافنان البراقة، تفصل تارة وتتوالى طورا فوق اوراق الصيف ومعالمه الاخيرة. ايام انطوت الى الابد ولن نلقاها مدى الدهور.

ما الذي بحث عنه في شخصها. وعلت نفسي بالامال، ارقبها منها، مالذي تعقبته فيها سوى كلمات واصوات وانا مجنون مثله تماما مع اوراقه السوداء التي لاتغني عنه فتيلة، وقد شحنت بكتابه مقرمطة وبقوال كانت تخرج من شفاهنا كي نخدع بها انفسنا ونعيش حياة ملأى بالاصوات، ليس فيها من الواقع ومن القوة اكثر من الستار الذي كنا نتصور اننا نرى فيه الطاووس المطرز يتحرك ويرتج ويتنفس، وتخييل حاملين بما كان يحبوه و... ونحن لم نحالفنا الحظ بدون شك

حتى في ان نرى الوجه المقسوم الى نصفين واليد التي تركته يتزل ويترقب بحماس حركة خفيفة التيار هواء). وقالت:

بماذا تفكر؟ فاجبتها: بك. ثم عادت فقالت: كلا، قل لي بحقك بماذا تفكر؟ فقلت: بك وانت تعرفين ذلك جيدا فوضعت يدي عليها عند وسط جسمها تماما. كان كالزغب! وكأنهم ريش لطائر، طائر في اليد خير من عشرة على الشجرة كما يقول المثل الانكليزي.

فقلت: لماذا تغمض عينيك؟ فتحتها، وكان الضوء مايزال يشتعل. اما هي فقد كانت مضطجعة على ظهرها وقدمها مستريحة على الشرشف المدعوك قليلا. كان خدي يلامس الواجهة الداخلية للفخذ الاخر اصبح في الوضع الحالي الواجهة العليا....

كان شيئا قد بقي هنا لم تدرسه نائبات الزمن، شيئا من اجدادنا البدائيين الذين كانوا يتعانقون ويتجامعون ويتدحرجون في الظلام بعنف وبعجلة فوق الغبار والاحراج.

فقلت: بماذا تفكر اجبني. اين انت؟ وضعت يدي عليها مرة اخرى وقلت لها:

هنا. فردت علي وقالت: لا. فقلت لها: هل تحسبن اني لست ها هنا؟ حاولت ان اضحك. فقالت: لا، لن تفعل ذلك معي. كل ما مثله بالنسبة اليك هو اني اشغل الفراغ العاطفي للجنود، ان شئت كالرسوم المخططة بالطباشير او بالمسار على جدران المعسكرات على الجص المتقشر. الرسوم هي عبارة عن شكل يضيوي مقسوم الى قسمين تحيط به الأشعة كالشمس! وهي عبارة عن عين عمودية مغمضة تحيط بها الاهداب. وحتى انك لا ترى شكلا بشريا... فقلت لها: يالك من لعينة. كفى عن هذا. هل تريدن، هل تستطيعين ان تفهمي وان تتصورني اني مدة خمس سنوات لم احلم بسواك؟ فاجابت:

«بالتاكيد فقلت» بالتأكيد؟ فاجابت: «اجل دعني». حاولت ان تتخلص مني. فقلت لها: ماذا جرى لك ما الذي اعتراك؟ كانت تحاول دائما ان تملص وان تنهض. كانت تبكي. ثم عادت فقالت كالرسوم التي يرسمها الجنود، وكالا حاديث التي تدور فيما بينهم. كنت اتسمع لهم وهم يخوضون نقاشات ويتشاجرون، في السماء وهم يرقبون هبوط الليل وسقوط المطر فقال بلوم انه يرغب في ان يشرب شيئا حارا. قال له واك بما انه الى تلك الدرجة من الذكاء لم لم يذهب ويترك باب الدار ويسألها ان تقدم له فنجانا من القهوة. وقال بلوم انه لا يحب البنادق وانه يحمل بندقية على ظهره، وانه لم يميز بالاذواق التي يتميز بها الصيادون وان ذوقه للطريدة اضعف، وان ذلك الاعرج كان يبدو وكأنه يهفو الى استخدام سلاحه اذ قال: «واخيرا ان من حقه ان يطلق هو ايضا رصاصته عندما يرى ان الجميع، وفي كل مكان يشهرون بندقيتهم الرديئة الصغيرة. وعلى اية حال، انها الحرب) والان لم اعد اسمع سوى صوته. كان الظلام دامسا ولم يعد بوسع احد ان يرى شيئا. وكل المعرفة التي كانت لنا عن العالم تتلخص في ان الطقس بارد وفي الماء الذي اخذ ينفذ الى اجسامنا من كل ناحية، جاريا فوقنا بعناد وباستمرار، في كل منطقة من اجسامنا، ذلك الماء الذي كان يمتزج، الذي كان يبدو وكأنه جزء لا يتجزأ من طبقة الخوافر العديدة الشبيهة بصوت الكارثة النهائية الكبرى على الطريق. واذ كنا نهتر فوق مطايانا غير المرئية، ربما كنا نستطيع ان نعتقد ان كل هذا (اعني به القرية ومستودع الحصيد وظهور المرأة البيضاء والصراخات والاعراج والمساعد والعجوز المجنونة وكل تلك البلبلة الحالكة العمياء المأساوية الاعتيادية التي كانت تشكلها شخصيات تدوي وتشتائم وتهدد احداهما الاخرى وتتراشق باللعنات وتتعثر في الظلام وتلمس حتى ينتهي بها الامر الى الاصطبل بعائق او بماكنة مخفية هناك في الديجور (لم تكن هذه الشخصيات هي المقصودة فعلا) تنفجر في وجوها، تاركة لها فقط وقتا لان ترى للمرة الاخيرة،

وربما الاولى ايضا شيئا يشبه الضياء) اوكل هذا لم يوجد قط يوما الا في مخيلتنا او هم حلم او وهم ، بينما في الواقع لم نتوقف لحظة عن السير والعدو في تلك الليلة اللبلاء الطافحة بالماء والمطر وهي لاتنفك تجيبنا وهي لاتراناء.... اذن ، ربما كانت على حق.

واخيرا ربما كان ما قالته صحيحا ، وربما كنت أبادلها الحديث دوما او ربما كنت في حوار مع واحد قد مات منذ سنوات ، نتبادل المفارقة والنكات والبذاءات والكلمات والاصوات مجرد ان نطرد النوم عن عيوننا وان نجدع الواحد الاخر ويشجع الواحد الآخر. ثم قال بلوم: ولكن ربما لم تكن في البندقية رصاصة وربما لم يكن يعرف حتى طريقة استعمالها.

لان الناس تريد كثيرا ان تحول الاحداث الى تراجيديات والى مأس او الى روايات.

اما انا فقلت: ولكن لعلها كانت معبأة. لان هذا قد يحدث. نقرأ ذلك كل صباح في الصحف اليومية.

-اذن ينبغي ان نشترى صحيفة الغد. سيكون فيها في الاقل شيء شيق نطالعه

-كنت اتصور ان هذه الحرب تهلك. وكان يحيل الي انها تهلك مباشرة.

-ولكن ليس في الساعة الرابعة صباحا وانا على فرس هرمة تحت وابل المطر.

-هل تعتقد انها الرابعة صباحا. هل تعتقد مع كل هذا ان النهار سوف

يطلع؟

او ليس طلوع النهار هناك. اما الذي أخه هناك الى اليمين وسواده افتح مما

حوله؟

-اين؟ مالمشي الذي تراه في هذا الرجل الاسخم؟

-بين حين واخر تلوح رقعة مضيئة

-ربما هو الماء. ربما هي صحيفة نهر الميز
-او الراين
-او الايلب
-كلا ليس نهر الايلب. لو كان الايلب فعلا لكنا رأيناه
-اذن ماهو؟
-نهر صغير لا يغير في الامور شيئا
-ما الساعة الان في اعتقادك؟
-ولكن ماشأن هذا في مانحن فيه؟
-هاقد مضت ثلاثة ايام ونحن في عربة القطار هذه.
-اذن لنفترض انه نهر الايلب.

كان الصوتان اللذان لواجه لصاحبيهما يتناوبان ويتجاوبان في الظلام، لا يمتلكان من الواقع اكثر من رنتها، ينطقان بامور لا تمت الى الواقع بصلة اكثر من كونها سلسلة من الرنات لا تكف عن المحاورة: كانا في البدء مبتين بالقوة كما يقول الفلاسفة، ثم اصبحا مبتين حينئذ. ثم ان احدهما مات فعلا وبقي الاخر حيا (هكذا ظهرا بالنسبة الى جورج وهكذا ظهرا في الحقيقة). هذا وانها اي الشخص الميت والشخص الاخر الذي كان يتساءل ان لم يكن من الافضل له ان يموت هو ايضا بالحقيقة (في الاقل لم يكونوا ليعرفوه) قد اخذها واسرها، ذلك الشيء الجامد المتحرك في آن واحد ذلك الشيء الذي كان يكشط بنقله سطح الارض كسطا بطيئا (وربما كان جورج مايزال يراه هو، هذا الذي كان يكشط بنقله سطح الارض كسطا بطيئا (وربما كان جورج مايزال يراه هو، هذا الذي كان اشبه بانزلاق وبكشط لا يكاد يحسه المرء، بشع ومستمر وراء طقطقة حوافر الدواب الخفيفة الدؤوب: هذا التقدم الاولبي البارد نهر الجليد البطيء هذا الذي يمشي منذ بدء الدهور، ساحقا طاحنا كل شيء هذا النهر الذي كان يتصور

انه يرى فيه هو وبلوم متصبين متجمدين واقفين على جزمتهما ومهاميزهما، ممتطين فرسيهما الشمطاوين منهوكتي القوى بعيدين عن كل اذى، وموتى في وسط الاشباح الواقفة هي ايضا بحللها الزاهية الالوان الذابلة وهي تتقدم كلها بسرعة غير محسوسة في مركب جامد من تماثيل عرض ازياء متأرجحة، بدون انتظام على قاعداتها، تكتنفها كلها بدون استثناء هذه السماكة الزرقاء التي كان يحاول ان يراها ويتصورها ويوضحها) وهي تتكرر الى مالانهاية في اعماق المرايا الخضراء، وقال بلوم بصوته المؤثر المضحك:

«ولكن مالذي تعرفه عنها؟ انك لاتعرف شيئاً. حتى انك لاتعرف هل كانت تلك البندقية محشوة ام لا. حتى انك لاتعرف هل ان طلقة المسدس تلك خرجت بالصدفة ام لا.

حتى اننا لاتعرف كيف كانت الطقس في ذلك اليوم، هل كان مغبراً ام موحلاً عندما عاد هو بنحني حنين مع خزينته من العواطف الثمينة التي لم يشترها منه احد، لم يشترها منه احد فحسب، وانما استقبلت بالعبارات النارية؛ فوجد امرأته أعني جدة جدة جدتك التي لم يبق منها الان سوى رميم هش داخل ثوب من الحرير المتجمد في قعر سرداب في داخل كفن أكله الدود هو ايضاً، انه لم يعد باستطاعتنا ان نعرف هل المسحوق الدقيق الضارب لونه الى الصفرة الموجود بين طيات الفتنة هو من ذهب ام من خشب، هو الذي كان انذاك فتياً رخصاً، له بطن ضامر ونهدان زنبيان وشفتان وخدان حمرتها اللذة فوق هذه العظام المصفرة، اذن وجد امرأته منشغلة في تطبيق مبادئها القائلة بالتعري والكشف عن العواطف الحارة، تلك المبادئ التي شجها الاسيان....»

فقال جورج: «ليس هذا صحيحاً، انه....»

ورد عليه بلوم: «ليس؟ ولكنك اعترفت انت بنفسك بان الريب كان يسود عائلتك مقروناً بارتباك الصمت الخجول...وعلى اية حال، لست انا الذي

تكلمت عن الصور العشقية والباب المفتوح بضربة كف وعن الاضطراب
والصراخات والبلبله والأصواء في الليل....
فأجاب جورج: «ولكن....»

واستطرد بلوم: «الم تقل لي ايضاً انك، ان صح التعبير، لم تشخصه في
صورته الشخصية الثانية، في هذه المنمنمة او هذه المداليا التي يرق تاريخها الى
مابعد موته وانه كان عليك ان تقرأ عدة مرات الاسم والتاريخ المكتوبين على
ظهرها. ألكي اقنعك بانك....»

فرد عليه جورج: «صحيح، صحيح، صحيح. ولكن...»، كانت قد
اكتسبت شيئاً من الضخامة، بمعنى انها اصبحت بدنية شهوانية وتفتحت قليلاً،
كما يحدث للفتيات بعد زواجين، وامتلأت فراغات بشرتها. ولكن كيانها كله،
وهي مرتدية ذلك الثوب الذي كان بمثابة عدم الاعتراف بالثوب، اعني انه كان
ثوباً بسيطاً اي قيصاً بسيطاً نصف شفاف تظهر به وكأنها نصف عارية بنهديها
الورديين العاريين اللذين يحدهما شريط، النافرين كلياً من صدرها المنيع، كان
كيانها كله يدل على انعدام الحياء وعلى الثراء وعلى الظفر، مع وفرة هادئة
للحواس وللنفس المفعمة بالهدوء، اضافة الى ابتسامتها البريئة الضاربة التي تمكنتنا
مشاهدتها عند بعض صور نساء تلك الحقبة (ولكن ربما كان شكلها مستوحى
من موضة معينة او من طراز او من مهارة الرسام وبراعته ومراعاته للاصول
والعادات، وقد اعتاد ان يصور بريشته الواحدة او بقلمه الشهواني نفسه، ربات
اليوت وجواري الحرم الشبقات المسترخيات على وسادات الحمامات التركية؟)
باعناقهن المطاطة الشبيهة باعناق الحمام. وبالتأكيد ان المرأة التي كانت هنا هي غير
المرأة التي ظهرت امام الرسام، بردنها المشقوق الذي تظهر خلاله البطانة، وهي
موضة في عهد الملك فرنسوا الاول، ويحاف مزاجها وتصنعها وتكلفها، وهي
تلبس مشدداً مسلماً بعظم الحوت، وقد تزينت بحلي صلبة باردة.

اذ ذاك فكر جورج في نفسه وقال: «أجل. كأنها قد تحررت في تلك الاثناء
وكان موته قد أ...» فسمع ثانية صوت بلوم، وقد ارتفع ساخرا بل تهكيا،
ولكنه على ما يبدو، لم يوجه كلامه الى احد الا الى قصعته العميقة التي كان يبدو
وأنه يحدثها ويحاورها ويناجيها ويناعيا. فسأل حينئذ جورج نفسه الى اية درجة
يستطيع الانسان ان يضعف ويصاب بالهزال دون ان يتلاشى ويتوارى في العدم
بفعل شيء هو نقيض الانفجار، ان صح القول: امتصاص الجلد والكيان كله نحو
الداخل «امتصاصا. لان هزال بلوم كان فعلا مرعبا، ولان عينيه كانتا غائرتين
وجوزة عنقه كانت مدية بارزة وكأنها تثقب جلده وكان يقول بصوته الذي فقد
هو ايضا اوتاره: او لم يرث بالصدقة، علاوة على افكاره الجنيقية عاهة اخرى او
انحرافاً مشيناً؟ او لم يكن هو ايضا اعرج مشوه القدمين او شيئاً من هذا القبيل؟
لان هذا لم يكن عيباً كبيراً في تلك الفترة عند النبلاء والاساقفة الجاحدين او
السفراء. وعلى كل حال، انت لم تره الا في الصورة او في تمثال نصفي وبندقته
على كتفه وبندقية الصيد ذات العيارين مثل عطيل القرية الاعرج. ربما كان يعرج
في نهاية الامر، بكل بساطة، وربما سبب له هذا عقدة ف...» فأكمل جورج
قائلاً: «لعله» فاضاف بلوم: او ربما لم يكن الا مدينا. ربما كان قد وقع بين فكي
كماشة يهودي المنطقة البشع، يطالبه بتسديد مبالغ السندات التي في ذمته.
وكما تعلم ان الاسباد النبلاء كانوا يعيشون اساساً على القروض. كانت
تحركهم عواطف نقية وسخية ولكنهم لم يكونوا يستطيعون عمل شيء يذكر غير
الاقتراض، وبدون العناية الربانية التي كان يمثلها بالنسبة لهم هذا المرابي المعترف
الاصابع، لما استطاعوا بدون اي شك، ان ينجزوا عملاً جليلاً، باستثناء هذا
النوع من المآثر التي تبجح بها عوائلهم في وقت لاحق بهدف تحسين العلاقات
والسمعة واحتراماً للتقاليد ولكما يذهب أحد أحفاده بعد مائة وخمسين عاماً الى
الحرب وهو يصطحب معه شخصاً خادماً، او كان هو بمرتلة خادماً، قد تكلف

الفروسية ولم يفعل شيئاً أكثر من مجامعته امراته التي ليست في نظره أكثر من فرس وعاشا جنباً الى جنب خلال خريف كامل وصيف كامل ونصف ربيع دون ان يتبادلا كلمة واحدة الا عندما كان يصاب الحصان بالعرج او بشأن خدمة حتى تنتهي بهما الحال الى ان يتبع احدهما الاخر بحرص دائم او الى ان يتوصل احدهما الى ان يقنع صاحبه باتباعه على هذه الطريق التي لم تعد فيها حرب ، كما قلت انت وانما امست طريق القتل والمهلكة ، حيث كان بإمكان اي منهما ان يسقط الاخر بضربة بندقية حربية او بطلقة مسدس ، ذلك دون ان يؤدي حساسياً امام احد. ويذهب بك الامر الى ان تقول انها لم يكلم احدهما الاخر (وربما لم يتكلما لمجرد انها لم يشعرنا بحاجة احدهما الى الآخر: لان الامر اقل تعقداً من هذا بدون شك) وقد ابتعد احدهما عن الاخر مسافة ، حسب الاصول المرعية وفقاً لرتبتهما العسكرية من ناحية ، ووفقاً لوضعهما الاجتماعي من ناحية اخرى ، مثل غربيين ، حتى في الفناء الداخلي للمشرب الريفي حيث قدم لك لكي تشرب على حسابه قدحاً من البيرة المثلجة خمس دقائق تقريباً قبل ان يلتقي صليبة الرشاشة ، مثلاً لو كان قد قدم قدحاً بعد سباق رابع في حانة الفرسان. وهذا لما يجعل ان ماخرج من الثقب ربما لم يكن دماً ولكن بيرة تتدفق. لعل هذا ماكنت قد تراه لو أمعنت النظرة ، كنت ترى تمثال آخر الفرسان على جواده وهو يتبول بيرة متدفقة تحولت الى نبع من البيرة الفلمنكية فوق قاعدة.....» لم يكن يتوانى لحظة كالحموم من كشط ماتبقى من الحساء الحامض الذي تنفزز النفس منه في قعر القصعة الذي يعطي طعم المعدن.

كان جورج يلازم الصمت وينظر اليه. كانت قناتا عنقه كحبلين مسحوبين بارزين وهو يوجه الحديث نوعاً ما بصوته المنخفض الى قصعته ويقول: ماأروع ان يكون للانسان متسع من الوقت يتلهى به بحيث ان الانتحار والدراما والتراجيديات تصبح اوقاتاً شيقة للتسلية واستطرد: « ولكن عندنا في البيت كانت

لنا حاجات كثيرة نقضيها». باللاسف (لم اسمع قط أحداً يتندر بواحد من هذه الاحداث المتميزة المشوقة. واني لادرک الان ان ذلك نقص في العائلة وقلة ذوق يوسف بها، ليس لانه لم يبرز فيها بلوم واحد او اثنان او اكثر دفعهم الاغراء الى ان يفعلوا ذلك يوما ولكن لانهم لم يجدوا بالتأكيد حيزا من الوقت او الدقيقة اللازمة. وكنت افكر باني سأفعل ذلك غداً، ثم ارجي عزم اليوم الى الغد، لانه في الغد كان علي ان استيقظ مرة اخرى في الساعة السادسة وان اباشر فوراً الخياطة والتفصيل او حمل بالات القماش الصغيرة المغلفة بقماش مربعة من السرج الاسود: بعد الحرب ينبغي لك ان تأتي لتزورني سوف اطلعك على شارعنا. اولاً، يوجد مخزن مصبوغ باللون الاصفر المشابه للخشب وقد كتب فوق زجاج واجهته بالحروف الذهبية: «جواخة اقشة شركة زيلنيك، البيع بالجملة». ولا تجد في داخله سوى الاقشة ولكنها ليست كما تجدها في بعض المخازن التي يخرج من بين رفوفها بائع انيق متعطر لوحة خشبية رقيقة لف عليها طول من الجوخ الرقيق ينشره امامك بحركات انيقة: يضاهي سمك الطول سمك جذع شجرة قديم تقريباً، بإمكانك ان تسكوبه وحده عشر عوائل. وهناك اقشة قبيحة ثخينة وداكنة. والمخزن الذي يحجم في داخله الظلام الدامس يتلقى الانارة عن طريق ستة او سبعة مصابيح، زال بريقها متدلية عند طرف انبوب من الرصاص اكتنى الكهربائي بتسرير سلك في داخله بدلا من الغاز ولكن هذه المصابيح ماتزال هي نفسها مدلاة هناك منذ خمسين او ستين عاما، اما المخزن الثاني فهو مصبوغ بلون يضرب الى الحمرة. ويختلف ايضا عن المخزن الاول بقاعدته التي هي تقليد للرخام بلونها الاخضر المعرق الفاتح. ويظهر اسم الشركة دائماً على الزجاج الاسود مكتوباً بالحروف الذهبية نفسها وهو: «البيع بالجملة، بطانات واصواف. دافيد وشركائه، جواخة فرنسية». وترى في الداخل جذوع الاشجار الضخمة نفسها وقد لفت عليها اقشة حزينة ثقيلة وقبيحة اما المخزن الذي يليه

فقد صنيغ هو ايضا ولكن باللون الاصفر البولي كتقليد للخشب واسمه : « جواخه وبطانات وولف ». وبعد هذا المخزن تأتي بوابة كبيرة لمرور العربات ، وفوقها اطار مزخرف مستطيل يحمل اسم : « ايحار العربات اليدوية وبيع الفحم » وفي مؤخر المحل نجد الفحم وفوق ، رقعة الشركة ، وفي نصف الدائرة الكائن فوق البوابة ، توجد نافذة تكاد تكون مربعة الشكل ، لا بد انها تعود الى غرفة واقعة فوق الرواق. لطالما تسألت كيف يستطيع امرؤ ان يقف على رجله فيها ، ومع هذا فانها آهلة بالسكان ، بما ان فيها سترًا من التول وشنلات خضراء في قحوف معلقة بالدريزون الحديدي الصغير. وبعد ذلك نجد ان الحائط نفسه تكسوه طبقة من الصبيغ البلوطي الضارب الى الحمرة. كما ان الدكان الذي يأتي بعد الرواق يحمل اسما مكتوبا بالحروف الغوطية هو : « خمور ممتازة في القبور القديم ، مشروبات روحية » ثم نجد مرة اخرى ، واجهة من تقليد الخشب الاصفر تحت اسم : « اقشة زولنسكي بالجملة وشبه الجملة بدلات رجالية وولادية » وبعد ذلك تأتي زاوية الشارع ومقابلها حانة تحمل اسم : « مقهى البهلوان تبوغ » وقد كتب بالاحمر على خلفية بيضاء ، والواجهة حمراء قانية ، تتخللها لوحات حمراء فاتحة ، والباب الركني يقع في الزاوية وهو مشرع على الشارعين مفتوح دائما الا عندما يكون الجو باردا جدا ، بحيث انك تستطيع دائما ان ترى شخصين او ثلاثة وقد استندوا الى التوتياء. لا يكونون من ناس الشارع ولكن عمالا ومحصلين ويمثلي شركات يأتون الى المنطقة لاصلاح عطل او للقيام بجولة ، وهم يلمعون جهاز طهي القهوة البراق ، كما ترى الخادمة وراء التوتياء ، وتوجد علبة رسائل زرقاء من يسار الباب وفوقها نقرأ مرة اخرى كلمة « تبوغ » باحرف كبيرة مكتوبة عموديا باللون الاصفر على خلفية حمراء. ومن الجهة الاخرى اي من يمين الباب نجد لوحة ضيقة عالية رمادية فيها معين عمودي احمر نقرأ فيه مرة اخرى كلمة « تبوغ » مكتوبة باللون الاصفر وتحتها عبارة « اوراق وطوايع » وتحتها رسم لعظمي الكاحل خط بالفرشاة

ورسم لخصليتي شعر وتحتها ايضا نقرأ كلمة «تلفون» وبعد المقهى ياني دكان أو الاصح ليس دكانا، لانه لا توجد واجهة بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكن مجرد نافذة كبيرة وباب، وحائط الشركة مصبوغ حتى الطابق الاول باللون البلوطي ونقرأ بالحروف البيضاء: « صناعة القطن المندول اقطان مفتولة وحشوات كتف من جميع الانواع البيع بشبه الجملة»، بضائع مخصصة للخياطين والفرائين وصانعي الخوذ وبائعي المشدات وتجار الجلود والصقالين والسمكرية وبائعي الحلبي والمجوهرات الخ.

بامكاني ان استمر واردد لك كل هذا عن ظهر قلب تردداً معكوساً أو بدءاً من الوسط او من النهاية مثلما يروق لك. لقد شاهدت هذا مدة عشرين سنة من نافذتنا ومن الصباح حتى المساء. هذا وكنت ارى الناس محملين بادراج الاقشة الضخمة وهم يمشون مرتدين بلوزات رمادية وكأنهم يمضون وقتهم في حملها ونقلها حملا ونقلنا لانهاء لها، من دكان الى اخر من مؤخر مخزن الى مؤخر مخزن اخرو، وفي كل هذه المحلات لا تنطفأ الاضواء اطلاقاً من الساعة السادسة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا، دون انقطاع، واذا ما انطفأ فذلك لان اصحابها لم يجدوا بعد وسيلة لقضاء اربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة في جر إبرة او تشغيل مقص او حمل ادراج القماش او صنع حشوات اكتاف او قاشات صوفية أو قطنية ناعمة. فاذا سلمنا، والحالة هذه، بأن امثالا عديدين لبلوم راودتهم فكرة الانتحار عددا من المرات اجهله، وهذا الامر من قبيل الاحتمالات، كيف تريد ان يجدوا لا اريد ان اقول، حتى ال.....

-فقلت له: « وهذا لا يعني ان ذلك لا يحدث. مالك الا ان تقرأ في الصحف. هناك كل يوم اشياء من هذا القبيل، في الصحف» بينما كان ينظر الي، كان الرذاذ يتساقط على سترته المفصلة من الجوخ، على قطرات ناعمة زئبقية وقضية، وكأنه غبار رصاصي فوق منطقة الكتف التي كانت تتجاوز افريز الدار، في الوقت الذي

كانت تصلنا الاصدااء المتنافرة والاصوات الناشزة و تنف الغضب والحاس المتطيرة بما يسمونه بالحزين الدائم الذي لا ينضب او الأصح الخزان او الاخرى مبدأ كل عنف وكل هوى يبدو متخطيا بليدا كسلان لاهدف له على وجه البسيطة ، كالرياح او الاعاصير التي لاهدف لها سوى غضبها الاعمى التافه ، وهي تهز هذا وحشيا ودون تبصر ما تلاقيه في طريقها. لعلنا كنا قد وقفنا على ما كان يعرفه ذلك الحصان وهو يموت ، وقد استطالت عينه المحملية الغارقة في التفكير عينه الحلوة الفارغة التي كنت ، رغم فراغها ، استطيع ان ارى أشباحنا تنعكس فيها ، كما كنت ارى عين الصورة الشخصية الدامية المستطيلة هي ايضا الملأى بالايعاز والحلوة عينا كنت اطرح عليها اسئلة كثيرة. وكان يقول لي : « هذا يدخل في باب المسرح والتراجيديا والرواية المختلفة يسرّك فتضيف اليه ما يروق لك. » فاجبته : « كلا » فقال لي : « وعند الحاجة تخترع من عندك ما تشاء. » فأجبته : ؟ « كلا » . يحدث هذا كل يوم. كان باستطاعتنا ان نسمع تلك العجوز الشمطاء البلهاء تصعد الحسرات البطيئة ، دون انقطاع ، من داخل بيتها ، بعينها الجافة ، وهي تتأيل من الامام الى الخلف على اريكته ، بينما كان الاعرج يقوم بدورته ببندقته المعابة برصاصات الصيد ، وهو مستعد للذهاب وحده عارجا متخطيا في الحقول الاسفنجية وعبر الروضة المبتلة ، حيث كانت اقدامه تصعد ببطء ، محدثة صوت امتصاص خافتا. اما العميد فقد كان يتبعه اعوانه متخطبين جميعا لاهتين ورائه ، فيما كان هو نشطا رشيقا جافا للاحساس له ، « تماما كقطعة خشب هرمة ، بيده يطلق رصاصة نحو رأسه لم تحدث بالتأكيد صوتا اكثر من صوت انكسار غصن منهري ثم يسقط جثة هادمة بهامته الصغيرة المتجعدة ، هامة فارس سباق ، ويجزمتها الصغيرة اللامعة جزمة فارس سباق. فقلت له : « هل هذا من اختراعي. أهي قصة انا اختلقتها؟ كنت اتخيله عارجا يقرضه ويلتهمه ذلك العذاب ، يلاحق طريدة كالكلب التعيس ويلاحقه العار والاهانة العظمى

التي تكبدها من زوجة اخيه الذي رفضوه مقاتلا، في تلك الحرب، وأبوا ان يسلموه بندقية. وقال: « هيا التي هذا السلاح جانباً. لانه بهذه الطريقة تقع الحوادث ».

لكنه لم يرد ان يسمع شيئاً. كان ظاهرياً. متمسكاً بعدة الصيد هذه وبهذه البندقية التي حسب نفسه وهو يحملها وكأنه في حادث صيد. كنت افكر في سري أن هذا هو سبب عدم رضاها بشراء بندقية الصيد هذه لي من فرط ترددها قصص عائلتها التي لا اول لها ولا آخر، قصص اجدادها. وكما رفضت باصرار ان اتعاطى المسايقة بحجة ان احد اعضاء اسرتها، اجهله انا، كان قد لقي حتفه في منازلة، فاخترق سيف التدريب المفلول عنقه، هذا اللهم اذا كانت قد قرأت هذه القصة في جريدة هي ايضا في زاوية الاخبار المحلية التي تنشر اخبار الحوادث والجرائم، زاوية الحوادث الاجتماعية التي تحكي عن الولادات والاهواء الهوجاء التي يثيرها جمال جسم اميرة الغاب النائمة المحوطة والمختبئة هناك الى الورد، فيما كان ذيل الطاووس يتأيل ببطء ولكن لاوجود للاميرة الاسطورية ليدا. من اي عرق ومن أي محمد الهى اذن هو هذا الطائر المتباهي المفرور الابله الذي يمشي محتالاً بريشه الزاهي الالوان، على عشب حدائق القصور ووسادات الخدم ؟ كنت اتخيله في هيئة احدى هؤلاء ال... كنت استطيع ان المس واجس واعصر نهديها وبطنها الحريري العاري تقريبا، لانها كانت قد انتشحت بذلك القميص الذي كان يتصب منه عنقها بلون الحليب. فقلت له: « هل تسمعي ». ان الفكرة الوحيدة التي بإمكانها ان توحيا اليها هي ان تزحف وتميل كالنعب وتلتقي وفساتينها التي كانت اشبه بالقمصان خضراء شاحبة مع شريط يحصر... ها... اجل ما اعظم الفرق بينها وبين تلك الصورة الشخصية القاسية الضاربة الشبيهة بديانا القناصة. وفي هذه الصورة كان ينبغي لها ان يكون كلب سلاقي متمدد حرد تحت قدمها. اما فيما بعد فعلى العكس ينبغي ان يكون بجانبها كلب

صغير مجعد الشعر تقرب اصابعك الى فة فيرتعش من فرحه ويبادر الى لعقها
بلسانه الطري ، يتلوى من المتعة التي يشعربها وهو يتأوه ويختلج ، كسمكة في
الماء وكالصور التي نراها مرسومة على الجدران ، مثلما سبق ان قالت تمثل رسمين
هيوغليفيين ومبدأين مبدأ الذكورة ومبدأ الانوثة لا يكون مبدأ الذكورة فيها
سوى علامة تشبه مقصا مغلقا ، تحته دائرتان ، مثل حلقتين تدخل فيها ابهامك
وسبابتك ، ورأس المقص منتصب الى الاعلى والدائرتان الرمزيتان متجهتان الى
الاسفل تحيط بهما خطوط رمزية كأنها اشعة أما مبدأ الانوثة فيضيوي يقطعه خط
وسطي ، وكلاهما اشبه بجرمين يتألفان في فلك الجدران الداكنة ، وقد رسما
بواسطة رأس مسمار . واذا غلبت على أمرها الان ورفضت ، فقد تجرأت على ان
تطلق صوتا طفوليا ، ربما كان حسرات او شكوى او تقيضها . كان الموسم انذاك
خريفاً مرة اخرى ولكننا خلال سنة ، كنا قد تعلمنا لا ان نتزع هذا الزي الذي لم
يعد الان سوى اثر جرح مخجل لاقيمة له فحسب ، ولكن ايضاً ، لوصح
التعبير ، تعلمنا ان نتزع جلدنا او الاصح جلدنا الذي انتزع منه ما كنا نتصور قبل
عام انه يحتويه ، اعني بذلك انه لم يعد يحتوي جنوداً ، حتى ولا بشراً ، لاننا
تعلمنا شيئاً فشيئاً ان نكون اشباها للحيوانات ، نأكل ، دون تحديد الوقت ،
كل ما وقع بين ايدينا ، شريطة ان تتمكن من مضغه وابتلاعه . كانت هناك
اشجار بلوط ضخمة عند اطراف الغابة التي كانت توازي المعسكر وكان البلوط
يسقط ويتناثر على الطريق التي كان المحليون يذهبون لجمع اسقاطه منها وكان
افراد الدورية يصرخون في وجههم في البدء يطردونهم ولكنهم كانوا يعودون
مصرين صبورين عيدين . وفي النهاية كانوا يسكتون عنهم ويتناسونهم ويحرسون
اكثر على مراقبة اي ضابط قد يأتي . اختلطت بهم وانا منحني الى الارض انظاها
بالبحث عنه وبوضع بعضه في جيوبي . كنت ارصد الضابط من زاوية عيني ،
وفي اجد الاوقات اذار ظهره فاصبحت في الحال داخل الدغل اركض لاهثا على

اطرافي الاربعة كحيوان عبر الخيس اجتاز العليق الذي كان يجز يدي ولكن دون ان اشعر لاني كنت اركض واعدو دون توقف على اطرافي الاربعة . كنت كلباً وقد تدلى لساني بعد العدو واللهاث . كنا كلانا كالكلاب .

كنت استطيع ان ارى تحتي حقوبها الفارغين ، وهي تدمام وفيها يكاد يخنق ويحجب صوتها المزوج باللعب على الوسادة المدعوكه ، ومن وراء كتفها خدوها الطفولي الراقد وثرغها الطفولي المنتفخ الشفتين وقد كانتا متعبتين مغفورتين قليلا تطلقان الدمدمة . بعد ذلك انبرت ارى شيئا فشيئا واعاين مرة اخرى مستطيل النافذة المفتوحة ، والسماء وقد اصبحت اوضح ونجمة واحدة ثم اخرى فآخري ايضا ماسية الشكل باردة جامدة ، وبينما كنت اتنفس بصعوبة كنت احاول ان أحرر احدى ساقي تلك التي كانت تنوء تحت ثقلنا كلينا مجتمعين . كنا اشبه باحدى سفر الرؤيا الذي يروي لنا نهاية العالم . ولهذا البهيمه رؤوس متعددة واطراف متعددة ترحف في الظلام . قلت : «ما الساعة الان ؟ فأجابني : «ما وجه التغيير الذي قد تحدثه معرفتك للوقت . ما الذي تنتظره ، النهار ؟ وماذا يغير النهار ليت شعري . هل انت الى هذه الدرجة مشتاق لرؤية وجهينا القذرين ؟» كنت احاول ان اتنفس وان ازيح الثقل الذي كنت ازرع تحته وان التقي الهواء . ثم لم اعد اشعر بالثقل وكل ما كنت احسه في الظل كان حركات خاطفة صامتة وخفخفات ثياب . صحت تماماً وقلت : «ماذا تفعلين ؟» لم ترد عليّ . صار بمقدورنا ان نميز الاشياء تمييزاً غامضاً . لعلها كانت تبصر في الظلام كالقطط . قلت : «ياري . ما الذي يجري . ماذا تفعلين ردي عليّ» . فقالت : «لا شيء» قلت لها : «انت . . .» بعد ان صحت تماماً جلست على السرير واشعلت الضوء . كانت هي ، وقد ارتدت ثيابها ، تحمل فردة خدائها بيدها . ان هي الا لحظة ، واذا بي ارى وجهها البالغ المشاشة والجمال ، وجهها المأساوي ، وعلى خديها خطان لامعان . كان وقتئذ اسير الحيرة

تائها فغاضباً وقاسياً. وكان فيها ايضاً قاسياً عندما صرخت بي تأمرني ان اطفئ هذا المصباح فانا لست بحاجة الى النور. فأجبتها على الفور : «ماذا ت... . فردت عليّ : «اطفئ اقول لك اطفئ». ألا تسمع . اطفئ !» وفجأة سمعت صوت انكسار قنديل السرير الذي تدحرج وتحطم عندما رتمته بجذائها . لم اعد ارى شيئاً هنيئاً . فقلت لها : «ولكن ماذا دهاك .» فاجابت : «لا شيء» فشرعت اسمع مجدداً الاصوات الحافظة الصامتة في الظلام وفهمت انها كانت تبحث عن حذاءها وانا أسائل نفسي كيف لها ان تتصرف في وسط تلك الظلمة واقول : «واخيراً ما الذي يجري .» ولكن فيما كانت مازال تفتش عن حذاءها قالت : «هناك قطار في الساعة الثامنة .» فأجبت : «قطار؟» ماذا تقولين . «قلت لي ان زوجك لن يعود الا غداً» . لم ترد عليّ بل كانت تلهي نفسها في الظلام . لا بد انها كانت قد عثرت على حذاءها وانتعلته . كنت استطيع ان اتخيلها واقفة تروح وتغدو فقلت : «يارب سترك» ثم نهضت . ولكنها ضربتني فسقطت على السرير وعادت فضربتني مرة اخرى . وكانت تخرج من فيها القريب اليّ صوتاً كقرقرة الماء كانت تحاول ان تبتلعه . واعتقد انها كانت تقول : «اتركني . يالك من قدر .» فاجبتها : «ماذا؟ فردت عليّ قائلة يالك من انسان قدر نذل . ألم يكن باستطاعتك ان تتركني مرتاحة . لم يعاملني احد قط حتى الان مثل . . .» فقاطعتها : «اية معاملة؟» فاجابت : «لا شيء» لست شيئاً في نظرك بل أنا أقل من لا شيء» فقاطعتها : «اف» .

فقلت : «انا التي... انا التي...» فقاطعتها قائلاً : «هيا ، هيا ، فردت عليّ بقولها : لا تلمسني . فقلت لها : «هيا» . فأجابت : لا تلمسني . . . فقلت : سأرافقك . لن تستقلي القطار . ساصحبك بسيارتي . فاجابت : «دعني ، دعني ، دعني وشأني .» وفي الغرفة المجاورة طرق شخص عليّ الجدار . فنهضت وفتشت عن ملابسني : وانا اقول يارب سترك ! اين . . .

العائد اليّ. ولكنها عادت ففصرتني كيفما اتفق في وسط الظلام ، بشي صلب كان في اعتقادي حقيبتها . وضربت عدة مرات بكل قوتها واصابتني مرة في وجهي ، فشعرت بنكهة ضرباتها الغريبة العنيفة وكأن اللحم يتفجر علي وجنتي في داخلي اضافة الى الالم ، عصيراً أخضر حامزاً لا تنقرز منه النفس مشعشعا . واذا فكرت بالجلد وبنكهة الخوخ والشاهلوج الناضج الضارب الى الزرقة المشقق وعصيره المسكر . تخلّيت عنها فسقطت على السرير وانا أجسّ وجنتي ثم شرعت اسمعها تروح وتغدو مسرعة بمركات سريعة واضحة ، حركات تتناوبها النساء في اشاعة الترتيب والنظام في البيت مطأطئة رأسها لكي تلتقط شيئا . سألت نفسي كيف تستطيع القيام بذلك ولكنها كانت دون شك ، تستطيع ان تعاین في الظلام . ثم سمعت صوت قفل حقيبتها وهي تطبقه . بعد ذلك سمعت قبة كعبها وهي تحتاز للفرقة مسرعة ، ورأيتها بعد ذلك مرة على ضوء مصباح الممر ، ولكني لم أر وجهها : رأيت خصل شعرها وظهرها يبرز واضحا في الظلام ثم انغلق الباب . سمعت صوت خطاها الخفيفة يبتعد ويضمحل ، وبعد ذلك لم اعد اسمع شيئا . بعد لحظة اخسست بطراوة السحر . فمحببت الشرف عليّ معتقداً ان الخريف لم يعد بعيدا جدا ، وفكرت في ذلك اليوم الاول ، قبل ثلاثة اشهر عندما كنت قد عرجت لزيارتها . ووضعت يدي على ذراعها وجعلت افكر انها ربما كانت على حق ، وان النساء لا يعملن بمثل هذه الطريقة واني بمثل هذه الطريقة لن افلح (ولكن كيف يمكننا ان نعرف ذلك) . لعله كان باطلا وخاليا من اي معنى وعاريا من صحة تدوين سطور مقرمطة ومغريشة على الورق ، تماما كالبحث عن المعنى خلال الكلمات ، لربما كانا كلاهما على حق ، لا سيما هو الذي كان يقول عني اني اخترع وازروق القصص من لاشي ، مع ان الجميع كانوا يطالعون ذلك في الصحف بحيث انه يجب ان نصدق ان بين المخازن ذات الواجهات المصنوعة من الخشب الكاذب الاصفر باسمائها السوداء والذهبية والمقهى او بين منتصف

الليل والساعة السادسة صباحا او بين درجتين من الجوخ كانا يحدان الوقت الكافي والمكان الكافي لكي يهتما بامور كهذه - ولكن كيف يمكننا ان نعرف ؟ كان من الضروري ايضا ان اكون ذلك الشخص المختبئ وراء السياج وأنا انظر اليه وهو يتقدم بهدوء ، سباقاً الى الموت على هذه الطريقة متبخترا ، كما قال بلوم كالطاووس وقحا بليدا متعجرفا فارغا مستنكفا او لعله لا يخطر بباله حتى ان يجعل حصانه يعدو او ربما لم يسمع صياح اولئك الذين نصحوه بعدم التقدم ، او لعله لم يفكر حتى ان يجعل بامرأة اخيه المتطية او بالاحرى بالمرأة التي امتطياها اخوه في السلاح او على الاصح بالفروسية ، بما انه كان يعتبره ، في هذا المجال ، ندا له أو ان شئت شيئا ضدا له ، بما انها هي التي كانت تستلم له او يستلم لها حورية واحدة ومطية واحدة لاهثة محوزقة تتقدم اذن في عصر يوم هادئ تسألني :

ما الساعة الآن في اعتقادك ؟

لو اخذنا بنظر الاعتبار ان الطريق تتجه شرقا وغربا ، على وجه التقريب وافي في ذلك الوقت كنت استطيع ان ارى ظله ، وهو على فرسه قصيرا نحو اليمين ومتجها الى الخلف بزاوية تقارب الاربعين درجة ، واننا صرنا في النصف الثاني من شهر ايار ، فإني اعتقد ان الشمس اذن كانت في وجهنا مائلة الى اليسار (وان سبب عدم امكاننا رؤية الاشجار والسطوح الازدوازية ومستودعات الحصيد والبيوت البراقة كالمعدن او كالحوذ في وسط ذلك الجو المنخفض الرأ من جهتها الظليلة السوداء هو ان عيوننا كانت شبه عمياء يكسوها شيء كأنه الحصى او كاغد الصقل ، نتيجة لقلة النوم) كان موقع الشمس اذن في الجنوب الغربي اي ان الساعة كانت حوالي الثانية بعد الظهر ولكن اني لنا ان نعرف ذلك ؟ كنا نحاول نحن الاربعة ان نتصور انفسنا ، وظلالنا ونحن نتقل على وجه البسيطة صفارا جدا ، نقطع مسارا معا كسا يوازي تقريبا المسار الذي سلكناه قبل عشرة ايام ، ونحن نصول لمقابلة العدو . اذ ان محور القتال قد انتقل انتقالا طفيفا في تلك

الاثناء . مما اسفر عن وجوب نقل العدة والعتاد من الجنوب الى الشمال بمسافة بلغت خمسة عشر او عشرين كيلومترا ، بحيث ان المسار الذي اتخذته كل وحدة يصبح بإمكان تمثيله بالاسهم او بالاتجاهات التي تصور التحركات التي قامت بها اصناف القوات (كالخيالة والمشاة ورماة الرمانات) المشاركة في المعارك ، وتظهر على خرائط هذه الاصناف المكتوبة ، بالحروف الخشنة لانها انتقلت اباً عن جد ، اسماء ابسط القرى والضباع والمزروعات والمطاحن او التلال او المروج او الامكنة المعنية التي تحمل اسماء خاصة بها: -

الرياح الاربعة

الشوكة

السرطان

حجر الذئب

مؤخر الحمار

التاندينيرة الحسناء

عصا الشيطان

عصا الطير

تريوكس الشيطان

الارنب الابيض

التملق

صليب الكرمل

مزرعة البراغيث

مزرعة الجنون

المزرعة البيضاء

مزرعة الاسلاك الحديدية

الغابة الساقطة

غابة الملك

طول الغابة

الجورنبيلات العشر

الحذاء البالي

المرجل

الرمادية

الأسل

مرج فتاة الورد (وهي فتاة فاضلة تمنح تاجا من الورد لصيتها الحسن)

حقل مارتان

حقل بنوا

حقل الارانب

كانت التلال ممثلة على الخارطة بخطوط صغيرة مروحية الشكل تحد خط قة متموجا بحيث ان ساحة المعركة تبدو وقد تخللتها عشرات من الاشكال الملتوية التي تشبه ام اربع واربعين. ويتمثل كل صنف من صنوف القتال بمستطيل صغير ينطلق منه الاتجاه المناسب وينحني كل منها لكي يأخذ شكل الصنارة تقريبا، اعني السهم الموجه الى عكس جزء الخط، مشكلا مايشبه السارية على ان قة المنحني الموصوف اعلاه تتفق مع النقطة التي تم الاتصال عندها بالقوات المعادية. كان اذن بالامكان تمثيل وقائع المعركة التي دارت، باكملها على خارطة اركان الحرب، بواسطة سلسلة من الصنارات المتوازنة ورؤوسها متجهة نحو الغرب. لايأخذ هذا التصوير المبسط لتحركات الوحدات المختلفة بالطبع بنظر الاعتبار، لاطوارئ الارض ولا العوائق غير المتوقعة التي تبرز في اثناء القتال. وان للمسارات الحقيقة في الواقع شكل الخطوط المتكسرة المتعرجة التي تتطابق احيانا

وتتشابه وكان من الاوفق رسمها، في البدء على شكل خط سميك واضح، ثم تسترق تدريجيا وتنتهي بخط منقط تتباعد نقاطه وتفتت حتى تتلاشى تماما، كرسوم الاودية التي تكون في البدء عميقة ثم تتلاشى- على نقيض الانهار التي يتسع عرضها تدريجيا ويكبر ابتداء من النبع وانتهاء بالمصب- وتزول وتتبخر وقد امتصتها رمال الصحراء.

ولكن اي اسم نطلق على هذا القتال: فهي ليست حربا ولا تدميرا او ابادا لاحد الجيشين، وانما هي على الاصح تلاشي ما كان قبل اسبوع افواجا وبطرية واسرابا وزمرا ورجالا وامتصاصه من قبل العدم بل هي اكثر من هذا، انها زوال فكرة ومفهوم الفوج والبطرية والسرية والزمرة والرجل بل هي اكثر من كل هذا، انها تلاشي كل فكرة وكل مفهوم، بحيث ان العميد، في النهاية لم يعد يجد سببا يتيح له البقاء على قيد الحياة ليس عميدا فحسب اعني جنديا وانما مجرد خليفة عاقل، لذا فقد انتحر باطلاق رصاصة على راسه.

كان الخيالة الاربعة يقاومون النعاس، ويتقدمون دون توقف عبر المراعي التي تفصلها عن بعضها الاسيجة، وعبر البساتين ومجاميع البيوت الحمراء التي تكون تارة منفصلة عن بعضها وطورا متقاربة وملتصقة على حافة الطريق، حتى تشكل احيانا شارعا ثم تعود فتباعد، والغابات المتفرقة تنتشر في الريف كبقع شبيهة بالغيوم الخضراء المبعثرة تبرز منها المساكن مشكلة قرونا مثلثة داكنة الالوان. كانوا اذن جنودا لانهم كانوا لا يسيرون زيا موحدا، ومسلحين اعني ان الاربعة كانوا مجهزين بالسيف الذي يعرف بالسيف الاعوج الذي يبلغ طوله مترا واحدا ووزنه كيلوين، مقوس الحد قليلا وقد شحذ بعناية فائقة واستودع غمدا معدنيا داخل غمد من قماش بلوطي اللون. كان السيف وغمده مربوطين بحبلين يسميان حبل قربوس السرج وحبل السيف في الجهة اليسرى من السرج، بين موضع فخذ الفارس وشبه الموضع، بحيث ان الغمد كان يشكل انتفاخا طفيفا تحت

الفخذ الايسر للخيال، بينما كان مقبض السيف النحاسي، عند يسار قربوس السرج، كي يستطيع الراكب عند الحاجة امتشاقه بيده اليمنى. وفضلا عن ذلك، كان الضابطان مسلحين كل منهما بمسدس اما الخيالاتان البسيطان الآخران فكانا مزودين ببندقية قصيرة السبطانة تحمل مع النجاد.

لم يعودوا جنوداً بكل ما للكلمة من معنى، لانهم لم يكن لهم قبل بكل تدريب نظامي، لانهم كانوا جاهلين بما كان عليهم ان يفعلوه، ليس الان فقط لان ارفعهم رتبة اعني به النقيب لم يتلق اي توجيه (ماعدا التوجيه الخاص ربما بزيادة الانسحاب وهو امر يرقى الى عشية امس احتمالاً او الى عشية اول امس، بحيث انه بات من المستحيل ان نعرف هل نقطة الانسحاب هذه لم تكن قد وقعت تحت اقدام العدو (وهذا ما كان يدعيه الحرس او الناس الذين كانوا يسلكون الطريق) وهل ان امر الانسحاب هذا كان يمكن اعتباره، بالتالي، نافذا يجب تطبيقه ولكن ايضا لانه اي النقيب كان يبدو وكأنه لم يعد في وضع يمكنه من اصدارها (اي الاوامر) كما لم تبق له رغبة في ان يطاع، كما ظهر قبل ذلك بقليل عندما كان مراسلان يركبان دراجة نارية ويتبعانه قد اعلنا انها يرفضان الاستمرار مدة اطول على انه لم يلتفت اليها كي يسمعها ولا تظاهر بسحب مسدسه تهديداً لها، ولكن كيف السبيل الى معرفة ذلك؟

كانت الجياد الخمسة تتقدم بخطى المسرعين اي المصابين بالتجول الليلي، اربعة منها هجينة يرجع اصلها الى مدينة تارب، نتجت من تزاوج يعرف باسم الانكلو-عربي، اثنان منها غير خصبة اما جواد النقيب فخصي والرابع الذي يركبه ابسط الخيالة كان في الحقيقة فرسا.

وكلها تتراوح اعمارها بين الست سنوات والاحدى عشرة سنة ولونها كانت، بالنسبة لجواد النقيب كميثا اسمر، وهذا يعني انه كان اسود تقريبا مع خصلة شعر في رأسه. اما جواد الملازم الثاني فقد كان اسمر ضارباً الى الحمرة ذهبياً. والفرس

التي كان يمتطيها الخيال البسيط كانت كميتا مع خطوط في راسها يضاف اليها جوادان محجلان كانا يمشيان في المقدمة وفي المؤخرة جهة اليمين. فجواد الجندي المرافق كان كميتا فاتحا بلون خشب الاكاجو مع غرة بيضاء في مقدمة رأسه اليسرى، والجواد الذي يقاد باليد كان جنياً اي لا يركبه احد مهيأ، لحمل رشاشة، كانت احزمة عنانه مقطوعة (بجد السيف؟) تلامس الارض. كان في الماضي جواد حراثة اسمر ضارباً الى الحمرة او على الاصح اصهب او على الاصح ورديا بلون ثمانية الخمرة، عليه بقع رمادية وذيله رمادي اللون ضارب الى الصفرة متسوج قليلا، وعلى رأسه، خصلة شعر تنزل الى مناخيره، وشفته العليا بيضاء وردية. كانت اعراف الجياد الخمسة مخلوقة حلقا نظاميا وكأنها، باستثناء جواد النقيب، زناجير سوداء مشعرة ومحززة عندما يرفع الجواد رأسه عالياً، بحيث ان جلده ينتفخ عند البروز الاعلى لصدره، مكونا طيات تتراصف الواحدة فوق الاخرى. كانت ذيلها طويلة حتى العرقوب. كانت احدى الدواب الخمس وهي دابة الملازم الثاني تطرق اي ان رأس مؤخرتها اليسرى كان يصطبم بعقب مقدمتها اليمنى، مع تقدم العدو، فيما كانت مطية المرافق تعرج قليلا عند مؤخرتها اليسرى، من جراء جرح اصاب صحنها، سببه احدى حجارة الصابورة للسكة الحديدية التي كانت قد اضطرت ان تركض فوقها عشية امس الاول، عندما تخلص الجحفل من كمين سابق. لم تنزع السروج ولا العدد من متون الخيل منذ ستة ايام. وهذا ما يفسر ظهور الجروح البليغة تحت السرج، كان سببها الاحتكاك وقلة التهوية.

ولكن كيف السبيل الى معرفة ماجرى فعلا. كيف؟ كان الخيالة الاربعة والجياد الخمسة المسرعة لا يحققون تقدماً البتة، وانما كانوا يرفعون ارجلهم وينزلونها في اماكنها، باقين دون حركة تقريبا، على الطريق. والخارطة او سطح الارض الرحب والمروج والغاب تنتقل انتقالا بطيئا تحت اقدامهم، وحوطهم،

واوضاع الاسيجة والاحراج والمنازل تتغير تغيرا لا يكاد المرء يحس به. وكأني بالرجال الاربعة قد شدوا بعضهم الى بعض بشبكة غير مرئية ومعقدة من القوى والدفعات والجاذبيات او النفور التي تتلاقى وتتلاحم لكي تشكل في محصلتها النهائية، ان صح القول، شكلا متعدد الزوايا يساند كل افراد الجحفل، ويفتكك هو ايضا، بدوره بدون انقطاع، بسبب التغيرات المستمرة التي تحدثها اعراض داخلية وخارجية. وكمثال على ذلك، كان الخيال البسيط راكبا وراء الملازم الثاني، والى يمينه وقد عاين، في وقت من الاوقات، عندما ادار الملازم الثاني رأسه لكي يرد جوابا على النقيب، صفحة وجهه تبدو على شكل صورة تم عن غرور صاحبها وغبائه، بحيث ان اللامبالاة التي كان يشعر بها الخيال البسيط او التي كان يتصور انه يشعر بها تجاه شخص الملازم الثاني، قبل لحظة، تحولت تحولاً لاشعوريا الى عاطفة تناهز العدا والاحتقار، بينما اكتشف، في الوقت نفسه ومن تحت خوذته، الرقبة الفتية بل الصبيانية الرفيعة بل الضعيفة لابل الهزيلة جدا ظاهريا، ثم خفض نظره حتى صدر الشخص فشاهده مع الكتفين والواحها التي تشكو من آلام لا تنتهي، بحيث ان الكراهية التي تولدت عنده قبل قليل، توازنت مقابل عاطفة من الشفقة.

وعليه فقد تحيدت وتعطلت نزعتا الشفقة والكراهية وتولدت بعدهما نزعة عدم الاكتراث. كانت العلاقات القائمة بين الضابطين، دون شك، متباعدة. ولكن كان يشوبها اعتراف وتقدير متبادلان بالجمالة التي كانت تتيح لهما ان يخوضا حديثا لاقيمة له ولاهمية نافها وثمينا، لاسيا في ذلك الوقت.

لانهما كانا والموت قاب قوسين، حيث كان يشغل بالهما اهتمام واحد بالاناقة وحسن الهندام، وهذا الاهتمام كان يضطرهما الى تجاذب اطراف حديث تافه عار من الاهمية وخال من اية قيمة.

كان النقيب ومرافقه يمشیان، يفصلهما مجال اربعة امتار، ولكن دون ان

يلتفت الاول قط لكي يوجه الكلام الى الثاني، وانه، لو ضربنا صفحا عن الاهتمام البالغ بالاناقة، لكان دون شك فضل تبادل الحديث معه بدلا من الملازم الثاني، ولكن هل من سبيل الى معرفة ماجرى فعلا؟، وذلك نظرا للوشائج القديمة الوثيقة التي كانت قد تكونت بينها، نتيجة نزوة (او حاجة) كانت قد جعلت النقيب يتزوج فتاة يبلغ عمرها نصف عمره تقريبا. كانت نزوة قد دفعته الى انشاء اصطبل لخيول الطراد والى استخدام فارس سباق، كانت نزوة المرأة الشابة او الاصح نزوة شهوانية منها قد دفعته الى ذلك..

هذا ان لم تكن نزوة فكرية له، اذا نظرنا الى الشخصية الطبيعية البحتة لفارس السباق الذي لم يكن يبدو وكأنه يقدم عرضاً يستأثر بالاهتمام. هذا ان لم نأخذ ايضا بنظر الاعتبار مظهره الخارجي بل سجاياه، كمهارته في ركوب خيل السباق، تلك السجايا التي من شأنها ان تنسبها بنيتها الطبيعية التي قلما تقري احدا، لعلها توسمت فيه ولكن كيف السبيل الى معرفة الحقيقة، بما انها رفضت في وقت لاحق اي بعد انتهاء الحرب، ان تعترف بانها اقامت معه علاقات شخصية، ولم تتسقط اخباره بعد ذلك، ولم تحاول اللقاء به مرة اخرى (ولم يحاول ايضا ذلك) بحيث انه لم يكن في كل هذا ذرة من الواقع سوى قصص غامضة ونمائم وتبجحاته دفعه الى اختلاقتها شابان مراهقان اسيران متمتعان بخيال جامع حرما من النساء او على الاصح انتزعا منه هذه الاقاصيص انتزاعا. اذن، الا اذا لم تكن قد توسمت فيه سوى اداة ذكرية او بريائية..*

كانت الوشائج بين النقيب وفارس السباق القديم واهية. فضلا عن العراقل

* وبرباب هو اله القوة التناسلية عند اليونان او اداة تعلقها الزوجات اليابانيات عندما يكن في وضع غير ملائم... لاشباع رغباتهن الاساسية الطبيعية او العقلية كالتحدي مثلا او الثأر والانتقام، ليس من الرجل الذي تزوجهن (اشتراهن) والذي كان يدعي اقتناءهن اي اقتناءها حسب، وانما ايضا من طبقة اجتماعية وضد ثقافة وعادات ومبادئ وضغوط تكن لها الحقد والكراهية

التي لا يمكن ازالها من الناحية العملية، العراقي التي يخلقها بين كائنين بشريين فرق هائل في الامكانيات المادية وفرق في الرتب العسكرية. وقد تفاقمت هذه الموانع، لان كلا منها كان يستعين بلهجة مختلفة، مما كان يقيم بينها حاجزا لا يمكن تجاوزه الا في حالة واحدة، أي عندما يتعلق الامر بالمشكلة الفنية والانفعالية التي كانت تجمعها واقصد بها مشكلة الجياد، فحينئذ لا يستعملان كلمات مختلفة لتعيين الاشياء نفسها، وانما يستعملان الكلمات نفسها لتعيين اشياء مختلفة. لعل النقيب كان يضرر شيئا من الكراهية او قليلاً من الحسد تجاه الكفاءة التي كان يمتاز بها فارس السباق القديم، عند ركوبه الخيل وغيرها من المخلوقات. كانت تختلج في قلب فارس السباق هذا عواطف طبيعية جدا خالية من أية نية سيئة وذلك لانه ولد، لحسن حظه، في وسط اجتماعي لم يتمكن فكره الذي هو أحد المنتجات الطفيلية للدماغ، نظرا لضيق الوقت وانعدام وسائل التسلية، لم يتمكن من البروز والخروج من القوقعة، وقد بقي محصورا داخل التجويف الدماغي، قادرا على مساعدة الانسان على اداء وظائفه الطبيعية ليس غير، كانت تختلج في صدره عواطف من النوع الذي ينمي فرد متحدر من طبقة كادحة تجاه الشخص الذي يرتبط به ارتباطا ماديا، وبالتالي هرميا اعني بهذه العواطف، قبل كل شيء، بعض الاندفاعات المتعلقة بالاحترام والتعاطف والشفقة التي ربما تولدت في وقت لاحق.

اذن هي عواطف احترام وعواطف ادارية (هذا فيما يتعلق بالمال والسلطة) وعواطف عدم الاكتراث التام. لم يكن للنقيب وجود في نظره الابدقار الاجر الذي كان يتقاضاه منه، مقابل ركوب خيله وتدريبها. وقد استطاع، في وقت لاحق، ان يؤهل لاصدار الاوامر له نفسه.

وكل هذه الصلات او العواطف مكتوب عليها ان تزول في الوقت المحدد لها عندما يتخذ النقيب قرارا بحجب الاجر عنه، نتيجة لافلاسه ولتصفية اصطلب

السباق او لاختياره فارس سباق ومدربا آخرين من ناحية، او نتيجة لنقل الفارس او للجرح يصيبه او لوفاته من ناحية اخرى.

كان الفارس البسيط وفارس السباق القديم متحررين من كل هموم الاناقة واللباقة في التصرف، ولو ان اسباب هذا الانعتاق كانت مختلفة. كانا يتبادلان الحديث عن بعد متزايد، وكانت طبيعة ذلك الحديث مشهدية قصيرة قاب قوسين من عدم التماسك. والسبب في ذلك يعود من ناحية، الى طبع فارس السباق الانعزالي بالسليقة ومن ناحية اخرى، الى حالة الانهالك التي بلغاها. كان الخيال اذن يكتفي بالمشي (او الاخرى كان حصانه يمشي) وراء حصان النقيب الذي بات الخيال يشعر تجاهه بالغيط الغامض المصدوع والعاجز عن تحقيق شيء. ولكن كيف السبيل الى معرفة الحقيقة، وما الذي علينا ان نعرفه؟ اذن حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، ساعة تنقطع الطيور عن الشدو، وعندما تنكمش الزهور وتندلى شبه ذابلة، تحت اشعة الشمس، حيث تفرغ الناس عادة من شرب قهوتها، ويعرض لك باعة الصحف المسائية الوجبة الاولى من عناوينهم البارزة، قبل ان تنزل صحيفة «كل الرياضة» وصحيفة «الوريد» قرع جرس الجولة الاولى يدعو الى الانطلاق. وفيما كنت أمر، قرأت على حائط من الآجر اعلانا قديما مغسولا ممزقا يدعو الى «جولات سباق في لاكاييل». هناك في الشمال، تحب الناس الرهانات ونزالات الديكة ذات الذبول الزاهية الالوان والريش الذي يعطي انعكاسات زرقاء وخضراء، الذي يتطاير متناثرا، وبلد المروج والغاب والمستنقعات الهادئة الذي يقصده صيادو الاسماك ايام الاحاد (ولكن اين كان الصيادون وجموع السباحين والصيبيان الذين يتراشقون بالماء وهم لابسون مايوهات مخططة، اين اولئك الشاربون في الحانات الريفية التي تكثر فيها العرازيل والاراجيح للبنات الصغيرات- ولكن اين كن هن وفساتينهن البيضاء وسيقانهن العارية الثرة التي تفتقر الى اللباقة...؟) اولئك الصيادون

الفلمنكيون والفلاهيون بوجوههم الشاحبة الزاهية ، بلد تكثر فيه المساكن التي تشبه ألوانها لون دم الثيران ترى على واجهاتها المبنية بالاجر، اعلانات صفراء خاصة بخمر «انيس» و «بيزنو»، كانت الناس تدعي ان الاعلانات عن مشروب الهندباء تحمل معلومات يستفيد منها العدو كالمخططات والخرائط: ربما كنا نستطيع ان نتملص في الغد، والا نقع في الاسر، لو كنا قد حصلنا على واحد من تلك الاعلانات، لو كنا يمينا شطر الشمال بدلا من ان... ولكن كان لزاما علينا ان نعرف الدروب الخالية كدروب الصيادين، وسط الغابات الكبيرة والصغيرة (تندفع ثانية لاهئين اندفاعا خاطفة من سياج الى سياج، نرصد لاهئين قبل ان نجتاز المروج والبقاع) والاشجار المكورة وزوايا الغاب والمقالع ومصانع الآجر والوادي الضيق والسياج المنسوج من الاسلاك الشائكة ومواد الردم والانحدارات والتربة والارض المجردة بأكملها والمرصوفة الخاضعة تماما لسيطرة الانسان بتضاعفها. وفي خرائط اركان القوات المسلحة تمثل الغابات على شكل بذار مثورة داخل دائرة صغيرة، او هليلات محاطة بنقاط، وكأنها قطعت قبل فترة قصيرة. تنطلق فساتل الاشجار، مكونة اخياسا منقطة حول الجذوع المنشورة عند أصل الشجر (ينبغي صبغها باللون الاصفر الذي يكسو الخشب الذي تم قصه قبل وقت قصير) تكون الجذوع والفروع اكشف وتتراص عند اطراف الغاب وكأنها حاجز غامض يستحيل اقتحامه. كنا نستطيع ان نراها ممتدة مشعة مخضوضرة فوق التلال عند الجنوب.

ولاشك اننا اخذنا ذلك الاتجاه، من اجل التفرج عليها، اعتقادا منا اننا لو بلغناها، ولكن قبل كل شيء، كان علينا ان نجتاز الطريق ثانية، لم يكن يبدو شيء يتحرك عليها، ولكننا مع ذلك تقدمنا محتئين واندفعنا لكي نجتازها راكضين. وفي الاخر شاهدته وكان لي من الوقت متسع لان اشخصه. ولكني تصورت انه قد اصبح الان نننا كالحيفة تماما. ولكن هذا حسن جدا. الا فليفسد هنا وليعفن

ولينشر الوباء حوله، الى ان تضطر الارض كلها جمعاء والعالم بأسره لان يسدا منخريهما. ولكن لم يكن قد بقي شخص هناك سوى امرأة هرمة تحمل برميل حليب، تمشي بمحاذاة حائط المصنع توقفت، وكأن شيئاً هالها او ربما اثار عندها العجب، عندما نظرت اليها ونحن نجتاز مثل اللصوص.

كان المنظر اشبه بمسرح خال من أي تمثيل. وكأن فرقة التنظيف قد مرت هناك او جمعاً من النهابين او كأن جيش المتصرين قد مر هناك ولم يترك الا ما وجده ثقيلاً جداً او مزعجاً جداً يصعب اخذه او مأ وجده غير صالح للاستعمال اطلاقاً. لم يبق هناك الا حتى الحقيقة الممزقة.

كما اني لم المح القماشة الوردية ولا حتى الذباب. ولكنه بالتأكيد كان يعمل، على قدم وساق، اعني انه كان حول المائدة، بطن، يخرج ويدخل من والى المناخير. ثم درنا ونحن نركض الى زاوية الحائط فلم اعد اراه. وعلى أية حال فقد كان حصاناً ميتاً، جيفة لاتصلح الا للسلخ لاشك في انه كان يمر مع باعة الخرق البالية وجامعي انقاض الحديد والزبل، بحثاً عن الاجزاء المنسية او التي لم تعد صالحة للاستعمال. الان وقد انصرف الممثلون والجمهور، ابتعد صوت اطلاق المدفع هو ايضا. كان بإمكان المرء الان ان يرى الى اليمين، صوب الغرب محرسة عالية ذات قباب في اعالي الريف. ولكن هل من سبيل لان نعرف هل احتلوا المدينة الصغيرة؟ كيف نعرف، كيف نعرف. كان بإمكاننا ان نرى اسماءها الطلسمية على لوحات الاشارة والانصاب وهي مكتوبة ايضا بألوان غائمة: «ليس» جمع جزمة و «كريميس» اي مهرجان وهينان وهينان وزنجفر وكأنه نظرية حشرات سوداء تطير بمحاذاة الحيطان وتتوارى الله اعلم اين في شقوق الابواب ونخاريب اضيق الامكنة وفي اصغر ثقب، حيث لايفلح صرصر في ان يدخل» حتى لو قص جسمه وسطحه الى اقصى مدى. كان يتوارى ويغنى عليه كلما كان يسمع اطلاقة مدفع يتبعها غيم من الغبار الوسخ لا أحد يعلم لماذا في هذا الجص

وفي هذه المدينة التي لم يبق فيها شيء سوى استعراض النمل المخزن، ونحن الاربعة فوق حصننا التي التهب حوافرها. ولكن يجب ان نعتقد ان لديهم ذخيرة وعتاد كان عليهم ان يصرفوها - ولعلمهم افرغوا ما في مدافعهم في الليل. اما الان فقد صاروا يطلقون النار جزافا تجنباً لعناء اعادة تحميلها في شاحنات الذخيرة. كانت النسوة يحمين الولد الذي خرج من أحشائهن، وهن يضممنه الى صدورهن، وينقلن بالات الزغب الاحمر المخزقة التي كان ينتشر فيها الزغب والريش، وهما يسحبان وراءهما احشاء المساكن البيضاء التي كانت تنفتح او كحلزون او كشريط زخرفة منشور ومعلق على الاشجار. ما اسم ذلك القديس الذي رأيت في احدى اللوحات الفنية وهو يتلقى العذاب من جلاديه المفتولي الساعد يلفون امعاءه الكاوية الدامية الخارجة من بطنه على خنزيرة محصصة لرفع الاثقال؟ ورأيت للمرة الثانية، الاعلان نفسه، ولكنه كان يرق في تاريخه في الاقل الى ماقبل سنة، ولكنه كان يتعلق بسباقات خيل مطقمة ولكن لافارس فوقها والحصان الذي كنت امتطيه لم يكن حصاني، وانما حصان فارس ميت مجهول. لم يكن لهذا دون شك كبير اهمية. غير انني مع ذلك كنت اتحسر على مصباحي الكهربائي الجديد وقطعة لحم الجانبون تلك التي وفقت في العثور عليها يوم امس في بيت يجب ان اقول انه ايضا قد نهب من اعلاه الى اسفله. أقبح بها من حالة، حالة الفارس الذي يذوق الهزيمة ويأتي في المؤخرة، يسبقه المشاة ورجال المدفعية الذين نظفوا كل شيء وقفت ايديهم عليه: كل ماعثرنا عليه لناكله، منذ ثمانية ايام، كان عجائن الثمار المطبوخة وهي الطعام الوحيد الذي اهملوه. كنا نشرب ونبتلع العجينة مباشرة من الآنية، فيما كان العصير الحلو اللزج يسيل من اشد اقدنا. كنا نرمي الاناء الذي لم نتناول منه سوى رבעه فنسمع صوت انكساره وننحن على جياذنا، عند حافة الطريق. لم يكن بالامكان اخذه معنا لانه كان سينضح من كل صوب. كنت اتحسر ايضا على

لوازم الزينة والنظافة العائدة لي. كنت أود ان اغتسل وان اتبرد واشعر بالماء يسيل على جسمي. كان الموتى كلهم في حالة من القذارة يتقرز منها النفس.....، ولكن ألاذهب وتغتسل وانت في زمن الحرب؟. كان مقابل العدل الايسر المشدد. بالاحزمة سطل اعتيادي من القماش مطوى ومسطح كمصباح سكان البندقية، كان مخصصا، من حيث المبدأ لسقي الخيل، ولكن هذه السطول افادتنا لاسيا في حلق لحانا. وكلما افكر الان في هذه السطول اعود فأراها ملأى بالماء ومغطاة بغلاف او برفاقة صابونية ضاربة الى الزرقة ومتصدعة، وعلى جدرانها الداخلية الخشنة عناقيد من فقاعات ملتصقة. ومن جهة اليمين، كنت ترى مقصا لقطع الاسلاك الشائكة. لطالما ساءلت نفسي عما كان هذا الميت الاحق ينقله في هيمانه الذي كان متنفخا حتى التصدع، ولكنه دون شك، كان يحمل قيصا وسروالا وسخين وربما رسائل من امرأة كانت تسأله:

هل تحبني؟ ما الذي كانت تريده اكثر من هذا، وانا لم افعل شيئا سوى التفكير بها. ربما كان يحمل جواربه ايضا كانت قد نسجتها له. وعلى اية حال فقد كان قصير القامة. لان الركابين كانا قصيرتين جدا بالنسبة لي فقد كانا يضطران ركبتي على الصعود الى الاعلى وتضطرهما الى الالتصاق بالعدلين بينما كنت متعودا او الاخرى كان ديني وديدي ان اركب بخطوة طويلة مثل القردة أي فرسان السباق. كنت انوي تطويلهما منذ ارتقائي على السرج وكنت اكرر مع نفسي انه لابد من تطويلهما مسافة ثقب واحد او ثقبين او ثلاثة، ولكن كانت قد انصرفت ساعة بدون ان افعل ذلك، اعتقادا مني انه سوف يعقد العزم بين لحظة واخرى على السير عدوا. وفكرت في نفسي: يا الهي. أهو خير لنا ان ننصرف من هنا ونخرج من هذه المهلكة وبطوننا تمسح التراب؟ لان كل ما كان نفعه هناك هو أننا كنا نتجول نتجول النبلاء وكأننا اهداف سهلة. ربما كانت كرامته او عرقه او طبقته او التقاليد التي ورثها تمنعه من ذلك. هذا ان لم يكن بكل بساطة شغف

بالجihad. لانه صار يهزم جواده همزا لاشك مبرحا بغية التخلص من ذلك الكمين ولعله كان يتصور ببساطة ان جواده كان يحتاج الى الراحة حتى لو ان هذه الراحة قد تؤدي بحياته، مثلما راودته قبل فترة قصيرة فكرة اقتياده الى المنهل: واصل اذن اقتياده جواده وهو ماش، لان اجداده علموه وجوب ترك المطية تتنفس قليلا، لاسيما المطية التي يتوقع منها ان تؤدي جهداً عنيفاً. ذلكم هو سبب تقدمنا تقدما ارستقراطيا فروسيا مهييا على نسق السلاحف. اما هو فقد استمر في الحديث مع ذلك الملازم الاول القصير القامة، وكان شيئا لم يكن يحكي له عن مأثر في ميادين سباقات الخيل وعن سجايا اللجام المصنوعة من المطاط عند الركوب في سباق. كان هذا هدفا رائعا للاسبان الذين يتعذر اقتحامهم لانهم كانوا دوما في قة التمرد والحساسية. يجب علينا ان نؤمن بالمواعظ المبكية التي تلي بعد تلاوة الانجيل بشأن الاخوة الشاملة والله العقل والآلهة الفضيلة والاسبان الذين كانوا ينتظرونه في كمين وراء اشجار البلوط الفليني والزيتون. انني اسائل نفسي عن الرائحة وعن النفس اللذين يفوحان من الموت هذه الرائحة التي لم نعد نشمها اليوم فانها رائحة عفونات الكبريت والزيت المحروق والاسلحة السوداء المزينة كانت تنفر منها النفس وهي تطلق صريراً مدخنا مثل مقلاة نسيبتها صاحبها فوق النار. انها اشبه بنتانة فضلات المائدة ممزوجة بالخص والغبار.

لاشك انه كان يفضل الايقوم بذلك العمل بنفسه، وانه كان يأمل ان يأخذ احدهم على عاتقه مهمة القيام به لا بدلاً منه مجنباً اياه ذلك الوقت المضني، ولكنه لعله كان ما يزال يشك في ان العقل او الفضيلة او جسامته الصغيرة خانت الامانة، ولعله وجد عند وصوله فقط شيئا كان بمثابة دليل مثل ذلك السائس المختبئ في خزانة الحائط، شيئا الزمه على اتخاذ قرار، شيئا قدم له الادلة التي لا يمكن نقضها على ما كان يرفض تصديقه او ربما ما كان شرفه يمنعه من رؤيته اي ما كان مكشوفاً امام عينيه، بما ان ايجليزيا نفسه كان يقول عنه انه كان

يتظاهر دائماً بأنه لم يكن يرى شيئاً. وقد روى أيضاً إنجليزية حادثة كاد يباغتها فيها عندما شاهدها وهي ترتعد من الخوف ومن الرغبة التي لم تشبع - لم يكذب بتوفر لها الوقت اللازم لكي تصلح هندامها في الاصطبل أما هو فلم يلق عليها حتى نظرة واحدة وإنما راح إلى فرسه وانحنى لكي يحبس عراقيها وجل ماقاله كان: «هل تعتقدان أن هذا الدواء المصروف يكفي؟ تخيل إليّ أن العرقب ما يزال متورماً. اظن أنها تحتاج إلى بضع كيات بالنار».

كان يتظاهر دائماً بأنه لا يرى شيئاً وكان يفكر وهو على حصانه تفكيراً تافهاً ويتقدم للملاقاة موته الذي كانت أصبعه بدون شك موجهة نحوه. أما أنا فقد كنت اتعقب طيفه العظمي الجامد المقوس وهو على سرجه. لم يكن يبدو للمرامي لأول وهلة سوى بقعة لاتزيد على حجم ذبابة، كان شبحاً خيفاً عمودياً على قنطرة البندقية المصوبة عليه يكبر ويكبر. كان يتقرب فيما كانت عين قاتله الرائية إليه صبورة وإبهامه على استراحة البندقية.

كان يرى، أن صح القول، عكس ما كنت أراه وأنا عكس ما كان يراه، أعني أنا الذي كنت أتبعه والقاتل الذي كان ينظر إليه وهو يتقدم. كنا نمتلك اللغز بأكمله (فقد كان القاتل يعرف ماذا سيحل به وأنا كنت أعرف ماذا حل به فعلاً، أعني الذي حدث قبل الحادثة وبعدها، أو إن شئت كنصفي برتقالة مقسومة يتطابقان تماماً) كان يقف هو وسط اللغز جاهلاً، أو يريد أن يكون جاهلاً لما حدث ولما سوف يحدث في وسط الجهل (يقال أنه في وسط الأعصار توجد منطقة هادئة تماماً) ذاك أو عند نقطة الصفر: كان بحاجة إلى امرأة متعددة السطوح تمكنه من أن يرى نفسه فيها وشبحه الذي يأخذ في الكبر إلى أن يميز الرامي شيئاً فشيئاً شاراته العسكرية وعري قيصره وأسارير وجهه نفسها ومن ثم تختار قنطرة بندقية أنسب مكان في صدره وفيها هو في ذلك، كانت تنتقل سبطانة البندقية تنقلاً غير محسوس تتعقب شبحه، وشعاع الشمس يضرب حديدتها

الاسود محترقا سباح الزعرور الذي تفوح منه روائح الربيع . ولكن تراني رأيت فغلا
ام ظننت انني رأيت ام كان هذا ضربا من الخيال او الحلم؟ لعلي كنت نائما لم
اصح من نومي ، لحظة واحدة ، وعيناي مفتوحتان في وضوح النهار تهددني طقطة
الجياد الخمسة الرتيبة ، وهي تدوس على ظلالها لاتمشي بالضبط على وتيرة واحدة
بحيث ان صوت الخواف كان اشبه بنخشخة تتناوب وتتلاحق وتراكم عناصرها
وتندمج مع بعضها اجانا ، حتى لكأنك تسمع جوادا واحدا . ثم تتفرق مجددا
وتفكك فتعود على ما يبدو الى التسابق بعد ذلك ، وهكذا دواليك . كانت
الحرب ان صح التعبير عديمة الحركة هادئة حولنا فيما كانت اطلاقات المدفع
المتقطعة تضرب في البساتين المقفرة محدثة صوتا اصم تذكاريا فارغا ، مثل الباب
الذي يتحرك على اثر ضربة الريح في بيت فارغ .

كان المنظر كله غير مأهول خاويا تحت السماء الجامدة ، وكان العالم متوقعا
متعطلا متفتتا متسلخا ينهار تدريجيا على شكل قطع ، مثل عمارة مهجورة لم تعد
صالحة للاستعمال اصبحت في ذمة الانحلال الذي هو فعل الزمن البطيء
الاشخصي المدمر .

النهاية

طريق فلاندر

كلود سيمون الحائز على جائزة نوبل للادب. اديب فرنسي ولد في مدغشقر. كثير الاسفار - وقد استقر به المقام في جنوبي فرنسا. من اصدق ممثلي حركة الرواية الحديثة التي ظهرت في فرنسا في الخمسينات. حظي باهتمام بالغ لسعة نظرتة التاريخية ولاصالة اسلوبه في الكتابة.

في رواية (طريق فلاندر) لقي النقيب دي ريكسك مصرعه بيد مظلي الماني في عام ١٩٤٠. ترى هل بحث عن هذه الميتة بمحض اختياره؟ اراد جورج احد ابناء عمه وهو من افراد كتيبته نفسها ان يتقصى الحقيقة. وبمساعدة بلوم السجين السابق في معسكر الاعتقال استجوب ايجليزيا الذي كان مروض خيول في اصطبل دي ريكسك. وبعد الحرب اسفر البحث عن العثور على كورين، ارملة النقيب الشاب. هذه احداث. ولكن طريق فلاندر تكتسب قيمتها بالاجواء التي خلقتها وبالاسلوب الروائي المتميز والجديد لمؤلفها «كلود سيمون». انها واحدة من اشهر روايات الحرب..

(سيناران)

دار المأمون للترجمة والنشر